

إثبات

نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

تأليف

الإمام أبي العباس ضياء الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن عمر
الأزهرى الأندلسي القرطبي
المعروف بابن المزين
المتوفى ٦٥٦ هـ

تحقيق ودراية

الدكتور أحمد آيت بلعيد

منشورات

مختبر بحوث

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بينهم، وتبيّن لنا المنهاج الذي علينا أن نسلكه ونتبعه في دعوتنا لغير المسلمين إلى اعتناق الدين الإسلامي، وإلى الطريقة التي يجب السير عليها في مجادلاتنا مع مَنْ يُخالفوننا، لا سيما مع أهل الكتاب.

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا: "إثبات نبوة ﷺ"، هو موضوع الأطروحة التي تقدمت بها إلى قسم الدراسات العربية والإسلامية بكلية الآداب، جامعة كُومبلوتُنسي بمدريد لئيل الدكتوراه في الآداب تحت إشراف الأستاذ الدكتور Josep Puig Montada، بتاريخ 5 مارس 2002. وقد كانت اللجنة مكونة من الأساتذة الآتية أسماؤهم: María Jesús Viguera Molins - رئيسة، Emilio Tornero Poveda - مقررًا، Rafael Ramón Guerrero، محمد بنشريفة، Juan Pedro Monferrer Sala - أعضاء.

كما أن هذا الكتاب هو جزء من مؤلّف للإمام أحمد بن عمر القرطبي¹ يسمى: "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن دين الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام"، الذي يمكن تصنيفه ضمن كُتب الردود على النصارى.

مؤلف كتاب الإعلام:

لقد نُسب كتاب الإعلام في البداية إلى غير مؤلفه الحقيقي، ويرجع سبب ذلك إلى كون النسخة الأولى التي تم العثور عليها، والموجودة بمكتبة كُوبريلي أحمد بإسطنبول تحت رقم b794، والتي توجد نسخة مصورة منها بمعهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم 29 توحيد، تحمل "القرطبي" كمؤلف لها.

ولم يُشر كاتبها في البداية ولا في النهاية إلى اسمه أو إشارة إليه، كما تعود على ذلك كثير من المؤلفين القدامى، حيث يوردون في مقدمتهم أسباب تأليفهم لذلك الكتاب، ذاكرين اسمهم والعنوان الذي اختاروه لعملهم ذلك.

وهذا ما جعل الباحثين والمهتمين بالتراث العربي المخطوط يجتهدون في معرفة صاحبه، وهكذا نجد أن المؤرخ الألماني Carl Brockelmann صاحب تاريخ الأدب العربي ينسبه إلى القرطبي محمد بن أحمد بن قَرَح المفسر²، واتبعه في ذلك كل من القصبي

1 انظر التعريف به لاحقاً.

2 انظر: Carl Brockelmann: Geschichte der arabischen literatur, Leiden, E.J.Brill, 1996, S.I, p: 737.

محمود زلط¹ و بلعم مفتاح السنوسي²، في حين أن Paul Devillard و Mikel De Epalza نسباه إلى أبي جعفر ابن نصر القرطبي³.

أما Fernando De la Granja، فقد ذكر بأن الإعلام نُسب إلى ابن فرح القرطبي المفسر ولم ينسبه هو لأي قرطبي آخر⁴، ونفس الشيء قام به أحمد حجازي السقا⁵، في حين أن María Jesús Viguera نقلت عن De Epalza بأن كتاب الإعلام هو للقرطبي المتوفى في 1273 / 571، يعني القرطبي المفسر، وأضافت أو قد نُسب إليه⁶.

وتشاء الأقدار الربانية أن تضع حدّاً لهذا الخلط وعدم معرفة المؤلف الحقيقي لكتاب الإعلام، وذلك لما قام مجموعة من الأساتذة المحققين بتحقيق "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم" لأحمد بن عمر ابن إبراهيم القرطبي⁷، وقد أشاروا في المقدمة إلى بعض مؤلفاته، من بينها كتاب الإعلام، ومن ما جاء في ذلك:

"الإعلام بمعجزات النبي عليه الصلاة والسلام، ذكره كثيراً في كتاب النبوات، وأحال عليه في باب ذكر إبراهيم عليه السلام، وفي باب ميراث الكلالة، وباب كونه ﷺ مختاراً من خيار الناس"⁸.

وقد أكد محمد بن شريفة نسبة الإعلام إلى أحمد بن عمر القرطبي، مشيراً إلى كون المؤلف

1 انظر: القصبي محمود زلط: القرطبي ومنهجه في التفسير، بيروت، المركز العربي للثقافة والعلوم، ص: 47-48.

2 انظر: بلعم مفتاح السنوسي: القرطبي: حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير، بنغازي، منشورات جامعة قارونس، 1998، ص: 147.

3 انظر: Paul Devillard: Thèse de troisième cycle présentée à la Faculté des Lettres à Aix en Provence le 10 Janvier 1970, jury : Mr. Arnaldez, Le Tourneau et Audebert. Burman, p : 20 .

Mikel De Epalza : « Notes et documents, notes pour une histoire des polémiques anti-chrétiens dans l'Occident musulman », *Arábica*, 18 (1971), p : 104.

4 Fernando De la Granja: "Milagros españoles en una obra polémica musulmana (el Kitāb : انظر maqāmi' al-sulbān) de al-Jazra'ī al-Andalus, Madrid-Granada, 33 (1968). p: 314-315.

5 انظر تقديم أحمد حجازي السقا في تحقيقه لكتاب الإعلام، القاهرة، دار التراث العربي، 1980، ص: 5.

6 انظر: María Jesús Viguera Molins: "La Religión y el Derecho" Historia de España, fundada por R. Menéndez Pidal, VIII, 2000, p: 162.

7 أحمد بن عمر القرطبي: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محيي الدين ديب متو، أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، محمد إبراهيم بزال، الطبعة الأولى، دمشق وبيروت، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، 1996.

8 انظر ترجمة المؤلف في المفهم، ص 39.

قد أشار إليه مراراً في كتابه المفهم، يقول ابن شريفة:

"وقد نسب بروكلمان إلى القرطبي [يقصد ابن فرح المفسر] كتاب الإعلام بما في دين النصاري من الفساد والأوهام، وتبعه في هذا بعض الدارسين، والصواب أن الكتاب لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي شيخ مفسرنا، وقد نسب المذکور إلى نفسه وأحال عليه مراراً في كتابه المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"¹.

ومما أكد نسبة كتاب الإعلام لأحمد بن عمر القرطبي هو ظهور نسخة منه بمكتبة القصر الملكي بالرباط تحت رقم 83، والتي أشار إليها Van Koningsveld في مداخلة له بمدينة طليطلة²، وكان قد سبقه Mikel De Epalza³، ذاكراً وجود مخطوط في الجدل الديني بالرباط من غير ذكر لرقمه ولا لعنوانه.

وانطلاقاً من هذه المعطيات الجديدة التي تخدم كلها التراث العربي المخطوط وإخراجه إلى حيز الوجود، استطاع سمير قدوري⁴ أن يؤكد أن الإمام أبا العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي هو مؤلف الإعلام، معتمداً على خاتمة المخطوط الموجود بمكتبة القصر الملكي، والتي ورد فيها ما يلي: "ووجدت على الأصل أيضاً: بلغت المقابلة بالمبيضة والحمد لله وحده، وذلك على يد الفقير إلى مولاه، الغني به أحمد بن عمر"⁵.

كما اعتمد على الإشارات التي ذكرها أحمد بن عمر للإعلام في المفهم، والتي كان لها أثر

1 انظر: محمد بن شريفة: "الإمام القرطبي المفسر: سيرته من تأليفه"، مجلة دار الحديث الحسنية، العدد السادس عشر، 1999، ص: 173.

2 انظر: Van Koningsveld: "La apología de al-Kindī en la España del siglo XII. Huellas toledanas de un "animal disputas" in Estudios sobre Alfonso VI y la reconquista de Toledo, Toledo, 1989, p: 110.

3 انظر: Mikel De Epalza : « Notes et documents » p : 105.

Mikel De Epalza: Fray Anselm Turmeda (Abdallāh al-Tarḡumān) y su polémica islamo-cristiana. Edición, traducción y estudio de la Tuhfa, 2º Edición, Hiperión, 1994, p: 69, 71.

4 انظر: Samir Kaddouri: "Identificación de "al-Qurtubī", autor de al-I'lām bimā fī dīn al-nasārā min al-fasād wa al-awhām", al-Qntara, Madrid, CSIC, 21, (2000), p: 215-219.

5 انظر المخطوط الموجود بمكتبة القصر الملكي تحت رقم 83، ص 292، والذي أنا بصدد تحقيقه ودراسته والتعليق عليه، ومقابلته بالنسخة المصورة من معهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، والتي اعتمد عليها أحمد حجازي السقا في تحقيقه المنشور سنة 1980.

إيجابي في التأكد من كونه هو صاحب الإعلام، رغم أنه لم يذكر عنوانه كاملاً ولو مرة واحدة. وهذه هي الإشارات التي ذكرها المؤلف، وتأكدت منها بعد اطلاعي على المفهم بأكمله:

* وقد ذكرنا من ذلك جملة صالحة في كتاب الإعلام بمعجزات النبي عليه الصلاة والسلام".¹

* وقد بينا ذلك في كتابنا في الرد على النصارى".²

* قد أعطي من كل نوع من أنواع معجزات الأنبياء قبله، كما قد أوضحناه في كتابنا المسمى بالإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام".³

* حصل لنا العلم بأكثر معجزاته الدالة على صدق رسالاته، كما قد ذكرنا جملة ذلك في كتاب الإعلام".⁴

* وقد ذكرنا منه مواضع كثيرة جاءت في كتب أنبياء بني إسرائيل في كتاب الإعلام".⁵

* وقد قال بعض الناس: إن الحوارين كانوا أنبياء، وأنهم أرسلوا إلى الناس بعد عيسى، وهو قول أكثر النصارى، كما قد ذكرناه في كتاب الإعلام".⁶

* وقد أسبغنا القول في هذا في كتاب الإعلام".⁷

* كما قد نقلنا ذلك في كتابنا المسمى بكتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ".⁸

هكذا إذن نتأكد من كون أحمد بن عمر القرطبي هو مؤلف الإعلام، وهذا التأكيد يجعلنا نفند كل تخمينات الباحثين والدارسين الذين نسبوا الإعلام إلى غير مؤلفه الحقيقي، لكن لا يفوتنا التنويه بها لكونها تدل على اهتمامهم بهذا الكتاب القيم خصوصاً، وبالتراث العربي المخطوط عموماً.

فمن هو إذن أحمد بن عمر القرطبي؟ وأين نشأ؟ وما هي آثاره العلمية؟ هذا ما سنحاول التعرف عليه في هذه الترجمة الخاصة به، معتمدين في ذلك على المصادر التي عرّفت به وعلى كتابه المفهم.

3 المفهم، ج 6 ص 50.

6 المفهم، ج 6 ص 176.

2 المفهم، ج 5 ص 203.

5 المفهم، ج 6 ص 148.

8 المفهم، ج 7 ص 404.

1 المفهم، ج 4 ص 570.

4 المفهم، ج 6 ص 52.

7 المفهم، ج 6 ص 183.

التعريف بالمؤلف:

كثيرة هي المصادر التي ترجمت للإمام أحمد بن عمر القرطبي¹، لكنها وللأسف الشديد، لم تحوِ حياة مفصلة عنه، ولا تعريفاً شاملاً بشيوخه، ولا بتلاميذه، ولا بمؤلفاته، بل كلها تطرقت لذكره في سطور قليلة، وتشابه التعريف به في كلها، مما صعب علينا الحصول على معلومات مفصلة عن حياته، لكننا جمعنا تلك التتف وحاولنا التنسيق فيما بينها للتعرف أكثر على المؤلف.

وهذه لائحة المصادر التي عرفت به:

- الديمياطي، شرف الدين: معجم شيوخ شرف الدين الديمياطي، المخطوط رقم 12910، والموجود بالمكتبة الأحمدية، دار الكتب الوطنية، تونس، ص: 217-218.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد: الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد وزكّار عبد الجبار، الطبعة الثانية، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1993، ص 274.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد: تذكرة الحُفَظ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ج 4 ص 1438.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد: سِير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، الطبعة التاسعة، بيروت، دار الرسالة، 1990، ج 23 ص 323.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الثانية عشرة، بيروت، دار العلم للملايين، 1997، ج 1 ص 186.
- السيوطي، جلال الدين: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، 1967، ج 1 ص 457.
- الصفدي، صلاح الدين جليل: الوافي بالوفيات، فسادن، ألمانيا، فرانز شتاير، 1969، ج 7 ص 264-265.
- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الآفاق الجديدة، من غير ذكر للسنة، ج 5 ص 273-274.

1 سأذكر هذه المصادر كلها تعميماً للفائدة، وحتى يسهل للقارئ الاطلاع عليها.

الفاسي، تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد: ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد، تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 1990، ج 1 ص 361.

ابن فرحون إبراهيم علي: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، مأمون بن محيي الدين الجنان، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996، ص 130-131.

ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي: البداية والنهاية، تحقيق: أبو ملحم أحمد، علي نجيب عطوي، وعلي عبد الستار، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 1985، ج 13 ص 226.

المراكشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: محمد بن شريفة، بيروت، دار الثقافة، من غير ذكر للسنة، ج 1 ص 348.

المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ج 2 ص 615.

نسب الإمام أحمد بن عمر ونشأته:

هو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري الأندلسي القرطبي¹، أبو العباس. لُقِبَ بضياء الدين²، وعُرف بابن المزين³.

وقد كانت ولادته بقرطبة سنة 578 / 1182، ورحل مع أبيه من الأندلس في سن الصغر⁴، ولعله كان الابن الوحيد له، لذا لم تتم الإشارة إلى بقية أفراد أسرته، فقلة المعطيات الواردة في ترجمته، جعلتنا نهمل الأسباب التي جعلت والده يأخذه معه في رحلته، ولا المدة التي مكثاها، ولا الوجهة التي قصداه، ولعل سبب الرحلة تلك تعود لأحد أمرين: إما أن أباه كان تاجراً فأخذه معه في رحلته كي يساعده فيها، وإما أنه كان محباً للعلم، فأحب أن يكون ابنه ممن يتعلمون ويأخذون من العلماء في مجالسهم، وهذا هو الأرجح.

أما عن الوجهة التي قصداه فلعلها تكون المغرب، ومما يرجح هذا الظن هو قربه من الأندلس، زيادة على هذا شهرة شيوخه وصيتهم الواسع.

1 اتفقت جل المصادر أعلاه على هذا التعريف.

2 ذكر هذا اللقب في الديباج فقط، ص 130.

3 الديباج: 130، ذيل التقييد: 1 / 361، نفح الطيب: 2 / 615.

4 الديباج: 131.

ثم عاد إلى قرطبة، فسمع من علمائها الكثير¹، مما زاد في تكوينه العلمي، وأهله لأن يحدث فيها²، ثم بعد ذلك اتجه صوب المغرب في طريقه إلى المشرق، فأخذ من علماء سبتة وفاس وتلمسان³.

ثم توجه إلى الحجاز من أجل أداء فريضة الحج⁴، فمر على تونس، ومنها إلى الإسكندرية التي مكث بها عشرة أيام، واستغرقت رحلته هاته شهراً كاملاً، ومن الإسكندرية أتم رحلته إلى الحج⁵.

ولما وصل إلى الديار المقدسة، سمع كثيراً بمكة والمدينة⁶، كما سمع بالقدس ومصر⁷ والإسكندرية وغيرها من البلدان⁸، بل أنه كانت له حلقات علم يحدث فيها بالمشرق، مما جعل اسمه يعلو في الآفاق، ويصبح قبلة للمتعلمين⁹.

وساعد أخذ الإمام أحمد بن عمر وتعلمه عن مجموعة من العلماء والشيوخ في علوم شتى وفي أماكن مختلفة في أن يكون عالماً في الحديث والفقه والعربية والبلاغة¹⁰.

وهذا ما جعل علماء التراجم يطلقون عليه ألقاباً ويصفونه بأحلى الأوصاف، فنجد ابن فرحون يصفه بالفقيه، ويصفه ضمن الأئمة المشهورين والعلماء المعروفين¹¹، ويصفه الذهبي بالعلامة المحدث¹²، وبالعالم الإسكندرية¹³. كما أن الدمياطي¹⁴ والمقري¹⁵ والصفدي¹⁶ يصفونه بالفقيه المحدث، المدرس الشاهد، نزيل الإسكندرية. ويضيف الصفدي أن أبا العباس كان بارعاً في الفقه والعربية، عارفاً بالحديث¹⁷.

ويصفه ابن العماد الحنبلي بالمحدث الشاهد، نزيل الإسكندرية، وقد صنفه ضمن كبار الأئمة¹⁸، أما جلال الدين السيوطي¹⁹ وابن كثير²⁰ فيصفانه بالفقيه المحدث.

ولقد اتفق جل المترجمين له على أنه مالكي المذهب، وهذا ما جعل محمد مخلوف يُصنِّفه

2 الوافي بالوفيات: 7 / 264-265.

5 المفهم: 6 / 24.

10 الديباج: 131.

13 سير أعلام النبلاء: 23 / 323.

15 نفح الطيب: 2 / 615.

17 الوافي بالوفيات: 7 / 264-265.

20 البداية والنهاية: 13 / 226.

1 البداية والنهاية: 13 / 226، نفح الطيب: 2 / 615.

3 الديباج: 131.

6 الديباج: 131.

8 الديباج: 131.

11 الديباج: 130.

14 معجم شيوخ الدمياطي: 217.

16 الوافي بالوفيات: 7 / 264-265.

18 شذرات الذهب: 5 / 273-274.

19 حسن المحاضرة: 1 / 457.

ضمن طبقة المالكية¹، ويظهر هذا جلياً في كتابه المفهم، حيث يستدل كثيراً بأقوال الإمام مالك وعلماء المذهب المالكي ويرجحها في غالب الأحيان، لكنه أحياناً يختلف مع الإمام مالك في مسألة ما فيرجح رأياً آخر لمذهب آخر.

ولقد استقر به المقام بمدينة الإسكندرية بعد أن جال الكثير من البلدان طلباً للعلم وتحصيله، بل وتلقيه لغيره، فأخذ يُحدّث فيها ويُدرّس، مما ساعده على أن ينال مكانة علمية عالية، وشهرة فائقة حتى "اشتهر وطار صيته وأخذ الناس عنه وانتفعوا بكتبه"².

يقول الدمياطي: "لقبته بها [الإسكندرية] وأخذت عنه شيئاً ولم أتحققه الآن، وأجاز لي رواية مروياته ومصنفاته وأن أرويهما عنه"³.

شيوخ أحمد بن عمر القرطبي:

لقد سمع أبو العباس أحمد بن عمر وتلقى علومه من علماء عديدين، وفي أقطار مختلفة كما أسلفنا الذكر، فسمع بالأندلس والمغرب والمشرق، وقد ذكر أسماء بعض شيوخه في كتابه المفهم، وأشار من ترجم له إلى آخرين، وسنذكر بعضهم بإيجاز:

أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن حفص اليحصبي، قال عنه القرطبي: "الشيخ الفقيه، القاضي المُحدّث، الثقة الثبت أبو الحسن علي ابن الشيخ الزاهد الفاضل المُحدّث، المقيد أبي عبد الله محمد بن علي بن حفص اليحصبي قراءة عليه [أي صحيح مسلم]، وهو يمسك أصله نحو المرتين، في مدة آخرها شعبان سنة 607"⁴.

أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله (ت 612 / 1215)⁵، قال عنه أبو العباس: "الشيخ الفقيه، القاضي الأعدل، العلم الأعلّم أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود ابن حوط الله قراءة عليه، وسامعاً لكثير منه، وإجازة لسائر [أي صحيح مسلم]، وذلك بقرطبة في مدة آخرها ما تقدم [أي شعبان سنة 607]⁶. وقد عدّ الدمياطي⁷

1 محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة، المطبعة السلفية، 1931، ص 194.

2 نفح الطيب: 2 / 615.

3 معجم شيوخ الدمياطي: ص 217.

4 المفهم: 1 / 103.

5 قاض وفقيه، من حفاظ الحديث. انظر ترجمته في الأعلام ج 4 ص 91.

6 المفهم: 1 / 103. 7 معجم شيوخ الدمياطي، ص 217.

وتقي الدين¹ هذا الشيخ ضمن شيوخ أحمد بن عمر القرطبي.

أبو الحسين مرتضى بن العفيف المقدسي (ت 634)²، قال عنه الإمام القرطبي: "ومن أجاز لي [أي صحيح مسلم] الشيخ الفقيه، المُحَدِّث الزاهد التلاء للقرآن أبو الحسن مرتضى بن العفيف المقدسي، لقيته بقرافة مصر، سمعت عليه، وقرأت عليه، وأجاز لي جميع رواياته"³.

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي (ت 610)⁴، سمع عنه بتلمسان⁵.

أبو الأصبع عبد العزيز بن أبي الوليد يوسف بن الدباغ، كان قد لقيه بتلمسان⁶.

أبو القاسم عبد الرحمن بن عيسى بن الملجوم الأزدي، وقد سمع عنه بفاس⁷.

عبد الحق بن محمد بن عبد الحق الخزرجي، سمع عنه بسبته⁸، وقد سمع عليه الموطأ إلا يسيراً عنه عام 600⁹.

تلاميذ أحمد بن عمر:

بما أن العباس قد اشتهر وطار صيته، فقد أصبح قبلة للراغبين في العلم والتعلم، والأخذ عنه والاستفادة منه، وستكتفي في هذا التعريف بذكر لأهم تلاميذه اجتناباً للتطويل، فمنهم:

محمد بن فرح القرطبي (ت 671)¹⁰، المعروف بالمفسر¹¹.

1 ذيل التقييد: 361 / 1.

2 أبو الحسن مرتضى بن أبي الجود حاتم (العفيف) ابن المسلم بن أبي العرب الحارثي، فاضل مصري، أصله من القدس. انظر ترجمته في الأعلام، ج 7 ص 200-201.

3 المفهم: 1 / 104.

4 أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي المُرسِي الأندلسي، نزيل تلمسان، من العلماء بالتراجم، انظر ترجمته في الأعلام، ج 6 ص 191.

5 الديباج: 131.

6 الذيل والتكملة: 1 / 348.

7 الديباج: 131.

9 معجم شيوخ الديماطي، ص 217.

10 هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الخزرجي الأندلسي أبو عبد الله القرطبي. انظر ترجمته في الأعلام، ج 5 ص 322.

11 الديباج: 131.

أبو محمد شرف الدين الدمياطي (ت 705)¹، وقد ذكر الإمام أحمد بن عمر ضمن شيوخه في معجمه.

يقول شرف الدين الدمياطي: "لقيته بها [أي الإسكندرية]، وأخذت عنه شيئاً ولم أتحققه الآن، وأجاز لي رواية مروياته ومصنفاته، وأن أرويهما عنه"².

الحافظ أبو الحسن بن يحيى القرشي (ت 599)³، وقد ذكره في معجم شيوخه⁴.

أبو عبد الله بن عبد الله بن الأبار (ت 658)⁵، وقد حدث عنه بالإجازة⁶.

مؤلفات أحمد بن عمر:

لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي مؤلفات عديدة عدا الإعلام، لكن وللأسف الشديد لم يصلنا منها إلا القليل، وقد ذكر بعضها بعض من ترجم له، وذكر هو بعضها الآخر في كتابه المفهم. وهاته المؤلفات هي:

* المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لم يشر إليه أي مصدر من المصادر التي ترجمت له بهذا العنوان، فأشارت إليه بـ "المفهم في شرح صحيح مسلم"⁷، وبـ "المفهم في شرح مختصر مسلم"⁸، وبـ "المفهم في شرح مسلم"⁹، وبـ "شرح صحيح مسلم المسمى بالمفهم"¹⁰.

وهناك من أشار إلى هذا الكتاب دون أن يحدد عنواناً له، كما فعل الدمياطي حين قال: "واختصر الصحيحين وشرحه"¹¹، وأيضاً ابن فرحون حين ذكر في ترجمته لأحمد بن عمر:

1 عبد المؤمن بن خلف الدمياطي أبو محمد شرف الدين، حافظ للحديث ومن أكابر الشافعية. انظر ترجمته بالأعلام، ج 4 ص 169-170.

2 معجم شيوخ الدمياطي، ص 217، والديباح: 131.

3 محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو عبد الله القرشي الهاشمي، زاهد أندلسي الأصل. انظر ترجمته في الأعلام، ج 5 ص 319.

4 الديباح: 131.

5 محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي، من أعيان المؤرخين. انظر ترجمته في الأعلام، ج 6 ص 233.

6 الذيل والتكملة: 1 / 348، الديباح: 131.

7 حسن المحاضرة: 1 / 457.

8 شذرات الذهب: 5 / 273-274.

9 نفع الطيب: 2 / 615.

10 البداية والنهاية: 13 / 226.

11 معجم شيوخ الدمياطي، ص 217.

"وله على كتاب صحيح مسلم شرح أحسن فيه وأجاد، سماه المفهم"¹.

ولقد وصف المقرئ المفهم بـ"أنه من أجل الكتب، ويكفيه شرفاً اعتماد الإمام النووي في كثير من المواضع عليه، وفيه أشياء حسنة مفيدة"².

* اختصار صحيح البخاري ومسلم³: لقد وقفت على اختصار صحيح مسلم مطبوعاً تحت عنوان تلخيص صحيح الإمام مسلم⁴، لكنني لم أقف على اختصار صحيح البخاري.

* شرح اختصار صحيح البخاري⁵.

* كشف القناع عن حكم مسائل الوجد والسماع: تحدث فيه عن الحكم في الاستماع إلى الأناشيد، وقد أحال عليه الإمام أحمد بن عمر القرطبي في كتابه المفهم، وبالضبط في كتاب الجهاد، باب التحصين وحفر الخنادق، قائلاً: "... وقد كتبنا في ذلك جزءاً حسناً سميناه: كشف القناع عن حكم مسائل الوجد والسماع"⁶.

وقد ذكر هذا الكتاب كل من المقرئ⁷ والصفدي⁸ تحت عنوان: "كشف القناع عن الوجد والسماع".

* أصول الفقه: وقد أشار أحمد بن عمر إليه مراراً في المفهم، كما في قوله: "... كما أوضحناه في الأصول"⁹، و"... كما بيناه ومراتبه في كتابنا في أصول الفقه"¹⁰، و"... كما قد بيناه في أصول الفقه"¹¹.

1 الديباج: 131.

2 نفح الطيب: 2 / 615.

3 نفح الطيب: 2 / 615، الديباج: 131، البداية والنهاية: 13 / 226، حسن المحاضرة: 1 / 457، الوافي بالوفيات: 7 / 264-265، شذرات الذهب: 5 / 273-274، معجم شيوخ الدمياطي: 217.

4 أحمد بن عمر القرطبي: تلخيص صحيح الإمام مسلم لابن الحجاج القشيري (ت 261)، تحقيق رفعت فوزي وأحمد محمد الخولي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 1988.

5 نفح الطيب: 2 / 615، الديباج: 131، البداية والنهاية: 13 / 226، حسن المحاضرة: 1 / 457، الوافي بالوفيات: 7 / 264-265، شذرات الذهب: 5 / 273-274، معجم شيوخ الدمياطي: 217.

6 المفهم: 3 / 645.

7 نفح الطيب: 2 / 615.

8 الوافي بالوفيات: 7 / 264-265.

11 المفهم: 4 / 326.

10 المفهم: 4 / 311.

9 المفهم: 1 / 122.

* إظهار إدبار من أباح الوطء بالأدبار: وقد ذكره أبو العباس في المفهم حين كان يتحدث عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ [البقرة: 223]، وتفسيره له، فقال: "... وقد حكينا نص ما نُقِلَ عن مالك من ذلك في جزء كتبناه في هذه المسألة سميناه: "إظهار إدبار من أجاز الوطء في الأدبار"¹، ثم أحال عليه في موضع آخر قائلاً: "ومن أراد زيادة على ما ذكرناه فليطالع الجزء المذكور الذي أُلْفناه"².

* شرح التلقين: وقد ذكره في المفهم حين كان يتحدث عن طريقة غسل الرجلين أثناء الوضوء، فقال: "... وقد طولنا النفس في هذه المسألة في كتابنا في شرح التلقين، أعاننا الله على تمامه"³.

* جزء حسن في حديث "أن شارب الخمر لا تقبل منه صلاة أربعين يوماً"⁴: وقد أحال عليه في المفهم، في كتاب الإيمان، باب رقم 22، فقال: "... فكان هذا كما قلناه في قوله عليه الصلاة والسلام: "إن شارب الخمر لا تقبل منه صلاة أربعين يوماً"⁵، وقد كنا كتبنا في ذلك جزءاً حسناً"⁶.

* جزء في حكم الطلاق بلفظة واحدة: وقد ذكره أبو العباس في المفهم في كتاب الطلاق، باب إمضاء الطلاق الثلاث من كلمة، فقال: "... وقد أشبعنا القول في هذه المسألة في جزء كتبناه في هذه المسألة سؤالاً وجواباً"⁷.

وفاة أحمد بن عمر:

بعد عمر دام ثمان وسبعين سنة⁸، مليئة بالتعلم والتحصيل والتدريس، انتقل إلى دار البقاء أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري بالإسكندرية التي قضى بها آخر حياته في رابع ذي القعدة سنة ست وخمسين وستائة.

وقد اتفقت كل المصادر التي أشارت إلى تاريخ وفاته على هذا التاريخ، باستثناء ابن

1 المفهم: 4 / 157. 2 المفهم: 4 / 158. 3 المفهم: 1 / 496.

4 سنن النسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الرواية المبينة عن صلوات شارب الخمر، رقم الحديث 5574، وسنن ابن ماجه، كتاب الأشربة، باب من شرب الخمر لم تقبل له صلاة، رقم الحديث 3368، ومسند أحمد، مسند الكثيرين من الصحابة، رقم الحديث 6484.

5 نفس التخریج.

6 المفهم: 1 / 257. 7 المفهم: 4 / 238. 8 تذكرة الحفاظ: 4 / 1438.

فرحون الذي ذكر أن وفاته كانت سنة ست وعشرين وستائة¹، وأضاف: "وفي كتاب: الذيل والتكملة، لقاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي، أنه توفي سنة ست وخمسين فانظره"².

وتجدر الإشارة إلى أن المراكشي لم يُشير إلى تاريخ وفاة أحمد بن عمر في الذيل والتكملة، ولعل النسخة التي اعتمد عليها ابن فرحون مختلفة عن التي وصلتنا.

التعريف بالإعلام³:

بإمكاننا القول، وبكل جرأة، أن الإعلام موسوعة كاملة في الصنف الردود على النصارى، تطرق فيه أحمد بن عمر لأمر عديدة، ففَصَّل ووضَّح، وشرح فأفهم، لذا يمكن تصنيفه ضمن أهم الكتب التي صُنِّفت في هذا التخصص، ككتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم القرطبي.

ويشهد على كلامنا ما ورد في آخر النسخة المخطوط الموجودة بمكتبة القصر الملكي⁴ على لسان خادم حديث رسول الله ﷺ محمد بن أبي أحمد بن موسى ابن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن مغيرة بن شرحبيل: "طالعت من أوله إلى آخره، فاستطعت طلعه في موارده ومصادره، وإن وجدناه لبحراً للمعارف زاخراً، وفجراً للحقائق باهراً. فيا له من تأليف! ما أبدع اختراعه وأبدع مأخذه وأنواعه، لقد برز في حلية السباق، وأعجز عن اللحاق، تحرير الألباب في فهمه، وتفرق القلوب عن نظمه. جلا نوره ظلام الشكوك....."⁵.

لكن هذا الكتاب، وللأسف الشديد، لم يلق اهتماماً واضحاً من لدن الباحثين والدارسين، حيث أن الأبحاث المتعلقة به، أو التي أشارت إليه أو إلى فحواه جد قليلة⁶.

1 و 2 الديباج: 131.

3 فضلت اختصار عنوان الكتاب نظراً لطوله.

4 تحمل هذه النسخة رقم 83 بمكتبة القصر الملكي (الخزانة الحسنية) بالرباط (المملكة المغربية).

5 انظر الصفحة 292 من المخطوط.

6 من بين الأبحاث والدراسات التي يمكننا الإشارة إليها نجد:

Paul Devillard: Thèse de troisième cycle présentée à la Faculté des Lettres à Aix-en Provence le 10 Janvier 1970, jury: Mr. Amaldez, Le Tourneau et Audebert. Burman; Thomas E: Religious polemic and the intellectual history of the mozarabs, C 1050 – 1200, Leiden, E.J: Brill, 1994; Juan Pedro Monferrer Sala: « Un texto base polemista: La versión árabe andalusí de la leyenda del monje Bahīrā incluida en al-I'lām del Imām al-Qurtubī » en Qurtuba, Córdoba, Facultad de Filosofía y Letras, 1999, p: 142; Kaddouri, Samir: « Identificación de al-Imām al-Qurtubī, autor de al-I'lām, al-Ontara, Madrid, CSIC, 21 (2000), p: 215-219 .

الطبعة الوحيدة من الإعلام، حسب علمي، هي التي اعتمد عليها الباحثون الغربيون، وهي تلك التي قام بإنجازها الدكتور أحمد حجازي السقا¹، لكنها تحوي بعض الأخطاء التي تشوه معنى الجمل وتجعلها غير مفهومة، وسأذكر أمثلة لهذا من الجزء الذي نحن بصدد دراسته.

في الصفحة 304: "وكانت الفاقة أحب إليه من الغناء"، والصواب: وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى".

في الصفحة 353: قال "عمران" و"نحيل" لي: "أنهما لم يزدادا إلا امتلاء"، والصواب: قال عمران: "ويخيل لي أنهما لم يزدادا إلا امتلاء".

في الصفحة 383: فحال بينهم وبين الموضع الذي يريدونه "قطة" من البحر"، والصواب: "فحال بينهم وبين الموضع الذي يريدونه قطعة من البحر".

زيادة على تشويه معنى بعض الجمل بإدخال كلمات لا صلة لها بالنص، فإن المحقق لم يقم بتخريج أي حديث من الأحاديث الشريفة التي كان المؤلف الإمام أحمد بن عمر القرطبي يستدل بها، لكنه قام بتخريج الآيات القرآنية والعديد من نصوص الكتاب المقدس، لكنه أحياناً لم يصب في تخريجه لهذه الأخيرة، حيث يضع فقط رقم الاصحاح ويغفل عن ذكر رقم العدد مما يجعل مهمة القارئ صعبة للرجوع إليها.

من ذلك ما ورد في الصفحة 267، حيث وضع في الهامش الأول: المزمور الثاني والسبعون، والصواب هو: المزمور 72: 8-17.

في الصفحة 273، نجد في الهامش الثالث: إشعياء، الاصحاح الثاني والأربعون، والترجمة مختلفة كثيراً، ولعل الصواب هو: إشعياء، 42: 1-4، والباقي لم يتم العثور عليه.

محتوى كتاب الإعلام:

أما عن محتوى كتاب الإعلام، فيخبرنا عنه القرطبي بقوله: "وقد استخرت الله في أن أجعل هذا الكتاب غير مقصور على جواب هذا السائل، بل أضمنه زائداً على ذلك فصولاً من عقائدهم وجلاً من أحكامهم، وأتكلم معهم فيها حسب ما أمكن، وأعان الله عليه ويّين".

1 الإمام القرطبي: الإعلام، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أحمد حجازي السقا، القاهرة، دار التراث العربي، 1980.

ولذلك اشتمل هذا الكتاب¹ على صدر وأربعة أبواب:

الباب الأول : في الكلام على الأقانيم.

الباب الثاني : في الاتحاد والحلول.

الباب الثالث : في الكلام على النبوات، وإثبات نبوة نبينا عليه السلام².

الباب الرابع³ : في جمل من فروع أحكامهم، أبين فيها أنهم ليس لهم⁴ في أحكامهم مستند إلا محض الهوى والتحكم واللد. وكل باب من هذه الأبواب يتضمن فصلاً⁵.

وعن الأسباب التي دفعت أحمد بن عمر إلى تأليف كتاب الإعلام يقول عنها: "فقد وقفت، وفقك الله، على كتاب كتب به بعض المتحليين لدين الملة النصرانية، سماه كتاب: تثليث الوجدانية، بعث به من طليطلة، أعادها الله إلى مدينة قرطبة حرسها الله، متعرضاً فيه لدين المسلمين، ناثلاً فيه من عصابة الله الموحدين، سائلاً عما لا يعنيه، ومتكلماً بما لا يدره، فأمعنت النظر فيه فإذا بالمتكلم يسرف بما لا يعرف، وينطق بما لا يحقق، ناقض ولم يشعر، وعمي من حيث يظن أنه يستبصر"⁶.

وعن المنهج الذي سلكه في كتابه، يقول: "فأذكر كلام هذا السائل كما بلغني، وأبين من خطئه وتناقضه ماشاء الله أن يفهمني، فأناقشه في لفظه، وأظهر سوء نقله وحفظه، فتارة أسأله، وأخرى أجابه، ليعلم أن الناقد بصير والباحث خبير، وليتبين عيه وجهله للكبير والصغير. ثم من بعد الفراغ من تتبع كلامه، أعطف بالمناظرة على أقسته ورهبانه، فأحكي

1 "غير مقصور على جواب هذا السائل، بل أضمنه زائداً على ذلك فصلاً من عقائدهم وجملاً من أحكامهم، وأتكلم معهم فيها حسب ما أمكن، وأعان الله عليه ويّين. ولذلك اشتمل هذا الكتاب"، هذا الكلام غير موجود بالنسخة المطبوعة.

2 عليه السلام، في النسخة المطبوعة: عليه الصلاة والسلام.

3 الباب الأول، الثاني، الثالث، الرابع، في النسخة المطبوعة: الباب الأول، الباب الثاني، الباب الثالث، الباب الرابع.

4 أنهم ليس لهم، في النسخة المطبوعة: أن ليس لهم.

5 انظر الصفحة الخامسة من المخطوطة، والصفحة 46 من النسخة المطبوعة.

6 انظر الصفحة الثانية من المخطوط رقم 83 والموجود بمكتبة القصر الملكي بالرباط، والصفحة 43 من النسخة المحققة من طرف أحمد حجازي السقا، مع وجود اختلافين، فبدلاً من: عصابة الله، عصابة الحق، وبدلاً من: يسرف، يهرف.

مذاهبهم كما دونوها في كتبهم، وعلى ما تلقفوها من أسأفتهم، ثم أسبرها على محك العرض، وأبين بعض ما فيها من الفساد والنقض¹.

محتوى "إثبات نبوة محمد":

كما أسلفت الذكر، فهذا الكتاب: إثبات نبوة محمد هو الجزء الثالث لكتاب الإعلام لأحمد بن عمر القرطبي، وقد جعله المؤلف لدحض أقاويل كل الذين يعارضون نبوته ﷺ، يهوداً كانوا أو نصارى أو غير متشرعين، فجمع كل الأدلة التي تفيد، من قريب أو من بعيد، إثبات نبوته ﷺ. يقول أحمد بن عمر متحدثاً عن هذه النبوة وعن الأدلة التي يستدل بها عليها: "نقول إن محمداً بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الإسماعيلي، رسول الله ﷺ، صادق في كل ما أخبر به عن الله تعالى، لا يجوز عليه شيء من الكذب. ونستدل على ذلك بأدلة صادقة، وبراهين قاطعة، أصولها أربعة أنواع:

الأول : إخبار الأنبياء قبله، ووصفهم له في كتبهم.

الثاني : النظر في قرائن أحواله.

الثالث : الكتاب العزيز.

الرابع: ما ظهر على يديه من خوارق العادات"².

وقد استهل حديثه عن الأدلة التي تفيد نبوة الرسول ﷺ وتأكيدها، مستخرجاً الاستشهادات من كتب اليهود والنصارى أي التوراة والإنجيل.

وهكذا نجده قد استشهد بنصوص من الأسفار التالية: التكوين، والخروج، والتثنية، ويشوع، والمزامير، وإشعيا، وحزقيال، ودانيال وحقوق. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يشر بالاسم إلى الأسفار الثلاثة الأولى، بل يذكرها بقوله: "ما جاء في التوراة" أو "ما جاء فيها"³، أو بقوله: "وقد قال في التوراة"⁴، أو بقوله: "وفي التوراة أيضاً"⁵.

1 انظر الصفحة الرابعة من المخطوطة والصفحة 46 من النسخة المطبوعة.

2 انظر الصفحة 3 من هذا الكتاب.

3 انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب: 5 و 6 و 7.

4 انظر الصفحة 5.

5 انظر الصفحة 8.

كما أنه يذكر سفر المزامير باسم الزبور، أي زبور داود عليه السلام، فذكره مرة بقوله: "ما جاء في الزبور الذي بأيديكم"¹، أو بقوله: "وفي الزبور أيضاً"².

كما استدل أحمد بن عمر بنصوص من الأناجيل الأربعة، لكنه لم يشر صراحة إلا إلى واحد، وهو إنجيل يوحنا وفي مناسبة واحدة³، وكان يشير إليها بقوله: "في الإنجيل الذي بأيديكم"⁴، أو "وفيه أيضاً"⁵، أو "في إنجيلكم"⁶، أو "وفي الإنجيل"⁷.

والملاحظ أن بعض الاستشهادات المستخرجة من التوراة غير موجودة في التوراة الحالية، خصوصاً تلك التي ورد فيها اسم الرسول محمد ﷺ صراحة، وهذا ما يجعلنا نزكي القول الذي يقول بتحريف الكتب السماوية، لا سيما التوراة والإنجيل.

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بالأسلوب المتبع من طرف المؤلف، فهو لا يذكر فقط الاستشهادات، بل يقوم بتحليلها ومناقشتها، مما يجعل القارئ شغوفاً لمواصلة القراءة ومهتمّاً بها، وكمثال على هذا ما يلي:

"وفي التوراة أيضاً: "أقبل السيد من سيناء، ومن ساعير تراءى لنا، وأقبل من جبال فاران، ومعه آلاف من الصالحين، ومعه كتاب ناري، وهو ختم الأجناس، وجميع الصالحين في قبضته، ومن تدانى من قدميه يصيب من علمه".

ففكر على إنصاف وتثبت، من الجائي المقبل من جبال فاران ومعه الآلاف من الصالحين؟ ومن جاء بالكتاب الذي ما منه سورة إلا وفيها الوعيد على المخالف بالنار، وعذابها وأنكالها وأغلاها؟ فإذا نظرت وطرحت عن نفسك الهوى والتعصب، علمت أنه لم يأت بهذه الصفات إلا محمد ﷺ⁸.

ثم جعل المؤلف بعض قرائن أحوال النبي ﷺ دالة على إثبات نبوته، من ذلك عدم إحساس أمه السيدة آمنة بالآلام الحمل والولادة، ورؤيتها لقصور بصرى من أرض الشام

1 انظر الصفحة 9.

2 انظر الصفحتين 9 و 10.

3 انظر الصفحة 12.

4 انظر الصفحة 12.

5 انظر الصفحات 12 و 13 و 14.

6 انظر الصفحة 16.

7 انظر الصفحة 17.

8 انظر الصفحتين 8 و 9.

بواسطة النور الذي خرج منها، وامتلاء البيت نوراً حين ولادته، وكون الرسول محمد ﷺ قد وُلد وأصابه يده مقبوضة، مشيراً بالسبابة كالمسيح بها، وأنه ولد مختوناً.

وذكر القرطبي ما حصل للسيدة حليلة حين أخذته لكي ترضعه، من سرعة أتانها، والخير الذي فاض عليهم إلى غير ذلك، وما حصل له وهو عند السيدة حليلة مرضعته، حين أتاه ملكان وشقاً بطنه.

وذكر أيضاً خروجه ﷺ مع عمه أبي طالب في رحلة تجارية، وما حصل لهم مع بحيرا الذي وجد صفات النبوة عند محمد ﷺ كما رآها في الكتب السابقة، ووصيته لعمه لكي يقيه من شر اليهود. وتحدث عن خروجه للتجارة في مال السيدة خديجة مع ميسرة، وعن الراهب الذي أخبر ميسرة عن كون ذلك النائم تحت الشجرة هو نبي، يقصد محمداً ﷺ، وعن الملكين اللذين كانا يظلاله في رحلته تلك حين يشتد الحر.

كما أشار إلى كمال خلقتة، وجمال صورته، وفصاحة لسانه، وشرف نسبه، وعزة قومه، وجميل صبره، وعظيم حلمه، وحسن تواضعه وعدله، وجزيل زهده، وعميم جوده وكرمه، إلى غير ذلك من الصفات والمميزات التي كان يتصف بها محمد ﷺ، والتي تدل على كونه كان المصطفى من الخلق لتبليغ الرسالة إلى جميع العالمين.

ثم جعل القرطبي القرآن الكريم، معجزة محمد ﷺ، الدليل الثالث لإثبات نبوته ﷺ، فهذه المعجزة، يقول القرطبي، تحدى الرسول الفصحاء البلغاء من العرب والعجم على أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يستطيعوا. وذكر بأن القرآن معجز لأوجه أربعة: أولاً أنه متميز عن كلام العرب بأمور لا يعرفها إلا العارفون بالألسنة واللغات، منها خفة اللفظ على اللسان وعذوبته، وسهولة المخارج، والتعبير بأبلغ عبارة وأوضح تفسير. وقد استدل على هذا بآيات بينات من الذكر الحكيم.

الوجه الثاني هو نظم القرآن العجيب وأسلوبه الغريب، فهو ليس منظوماً حتى يكون شعراً، وليس منثوراً فيكون نثراً، وهو خارج عن الصنفين معاً.

الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن حسب أبي العباس أحمد بن عمر هو ما تضمنته من الأخبار بالغيب قبل أن يحيط أحد من البشر بعلمها، من ذلك قوله: ﴿الْمَعْرُومُ ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ ۞ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ ۞ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝﴾ [الروم: 1-4]، وقوله تعالى: ﴿لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحِلِّينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: 27].

إلى غير ذلك من الآيات.

الوجه الرابع من إعجاز القرآن هو ما تضمنه من الأخبار عن الأمم السالفة والقرون السابقة، والشرائع القديمة، والقصص الغابرة، من ذلك حديثه وقصصه عن الأنبياء، وحديثه عن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف إلى غير ذلك.

وقد كان القرطبي في كل أمر من الأمور يستدل بآيات من القرآن المبين، أو بمقتطفات من السيرة أو غير ذلك.

أما الدليل الرابع على كون محمد ﷺ كان نبياً حقاً فهي تلك المعجزات التي طرأت على يديه، وقد ذكرها انطلاقاً من الأحاديث الشريفة الواردة في كتب الحديث، وهي انشقاق القمر، وحبس الشمس، ونبع الماء وتكثيره، وتكثير الطعام، وكلام الشجر والحيوان والجمادات معه ﷺ، وإحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة، وإبرائه المرضى وذوي العاهات، وإجابة دعائه وبركاته، وإطلاعه على الغيب، وعصمة الله له ممن أراد كيده، وما ظهر على أصحابه والتابعين لهم من الكرامات والمعجزات.

وفي ختام هذا الجزء، ذكر أحمد بن عمر بعض المسائل التي يعتقد فيها النصارى، وقد انتقد اعتقادهم ذلك، ووصف تلك الأمور بكونها خرافات وتُرّهات، من ذلك كون يد المسيح تظهر في إحدى الكنائس وراء ستر يوماً واحداً في السنة، ووجود صليب واقف بين السماء والأرض، ووجود ثريا في كنيسة الغراب، واقفة بين السماء والأرض، وأن مريم عليها السلام نزلت على السيد أذفنش المطران بجامع طليطلة وكسته بثياب مزينة....

وتجدر الإشارة إلى أن الإمام أحمد بن عمر القرطبي قد استفاد كثيراً من الكتب السابقة، كسيرة ابن إسحاق¹، وسيرة ابن هشام²، وتاريخ الطبري³، والروض الأنف⁴، وكتب

1 ابن إسحاق، محمد: سيرة ابن إسحاق أو كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق: حميد الله، فاس، معهد الدراسات والأبحاث، 1976.

2 ابن هشام عبد الملك: السيرة النبوية، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1987.

3 ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1979.

4 السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمان: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، القاهرة، مكتبة الكلية الأزهرية، دون تاريخ.

الأحاديث، وإعجاز القرآن¹، والتمهيد في الرد على الملحدة²، والشفاء بتعريف أحوال المصطفى³، ومقامع الصلبان⁴.

عملي في هذا الكتاب:

لقد قمت بنقل النص كاملاً من المخطوطة الموجودة بمكتبة القصر الملكي بالرباط تحت رقم 83، وهو موجود بين الصفحات 151 و 244، وسميته: الأصل، وقابلته بالنص الذي قام بتحقيقه الدكتور أحمد حجازي السقا، والموجود بين الصفحات 261 و 387، والذي سميته بـ: ك، نسبة إلى كوبريلي، وكنت أشير إلى الاختلافات الواردة بين النصين.

ثم بعد ذلك، قمت بشرح كل المفردات التي رأيت أنها تحتاج إلى تبسيط حتى يتم الفهم، وبتخريج الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة.

كما قمت بالتعريف بالأعلام الواردين في النص، خصوصاً منهم الغير المعروفين، وأيضاً عرفت بالأماكن.

ولتسهيل مهمة القارئ، وضعت مجموعة فهارس في الختام، وهي: فهرس الأعلام، فهرس الأمم والقبائل، فهرس الأماكن والدول، فهرس الغزوات، فهرس الكتب السماوية، فهرس أهل الملل والنحل، فهرس الاستشهادات من العهد القديم (التوراة)، وفهرس الاستشهادات من العهد الجديد (الإنجيل)، وفهرس الاستشهادات من القرآن الكريم.

فأسأل الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير في الدنيا والآخرة، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

الدار البيضاء في يوم الجمعة 5 ذي الحجة 1423 / 7 فبراير 2003.

1 الباقلائي، أبو بكر بن الطيب: إعجاز القرآن، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1988.

2 الباقلائي، أبو بكر ابن الطيب: التمهيد في الرد على الملحدة والمعطة والرافضة والخوارج والمعتزلة، دار الفكر العربي، دون تأريخ.

3 القاضي عياض: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: علي محمد، بيروت، دار الكتاب العربي، 1977.

4 الخزرجي، أحمد بن عبد الصمد: مقامع الصلبان، تحقيق: عبد المجيد الشرفي، تونس، S.T.A.G، 1975.

الرموز:

الأصل: المخطوط الموجود بالخزانة الحسنية بالرباط (المملكة المغربية) تحت رقم 83.

ك: النسخة التي قام بتحقيقها أحمد حجازي السقا، وهي صورة من الميكروفيلم الموجود بمعهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بمصر، وهو مصور عن المخطوط الموجود بكوبريلي تحت رقم 794 مكرر.

يا وجعل الله من امرهم مرجا واخبرهم ان هذا ملككم عظيم لا يخلق عنده احد فيعملوا
 فقد مراعى النجاشي واسمه الحجة وكان على جميع ديار النصرانية فليما قد مرا عليه
 استغفر بيم المنزل ووجدوه خيرا منزلا فاذا ما فعلوا ذلك بيمهم واعتبه النجاشي بعينه
 وحسن بخواره فليما راى انهم غرضوا له فوجدوا بارض النجاشي اما وادعته وجعلوا النجاشي
 منهم والجميع فعلوا هذا جليلا الى النجاشي واقتسمته وطلبوا منه ومن اسلم فبعته ان
 يسلمهم فليما قدما ارض النجاشي فبعها لا قسمته هذا لينا هم وطلبنا منهم ان
 يعينهم على وديهم معصم واسلمهم لقومهم ثم فبعها للنجاشي فبعته وقال له
 ايها الملك قد ضار الريلد ما تعلمان سيعملوا فرفوا ديار قومهم ولم يدخلوا في دينه
 وجاوا بديار بنده عودا لا يعرفه غير ولا الت وقد بعثنا اليه ايمهم اشرا و قومهم
 من ابا بيمهم والجميع وعشما يرمهم لترد من اليهم فبعهم على بيمهم عينا واعلم بيمهم
 عابوا عليهم فبالن بطارفته واقسمته صد فاليها الملك فومهم على بيمهم عينا واعلم
 بيمهم عابوا عليهم واسلمهم اليهم فبعهم النجاشي ثم قال لا والله لا اسلمهم اليهم
 ابد ولا يكره فوجا وروجه ونزلوا بالادي واختاروه من سواي لا اسلمهم حتى ادعوا
 فاسلمهم على ما يقولون هذا امرهم ثم ارسل اليه الحجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فجاءه واوقفه دعا النجاشي اسلم فبعته فنسروا ما جفهم حوله فبال الله امرهم
 الذي انبى جارفهم فومهم ولم تدخلوا في دينه ولا يدور احد من هذا الملك فليما
 جعفر ابراهيم طالب فقال له ايها الملك انا قومنا انما جديلية نعيد الاصل وناكل الميت
 ونابى انهم احشروا نفع الارض ونسبهم الجوار وياكل القوي الضعيف وفتنا دعنا
 حتى بعث الله اليها رسولنا نعرفه ونعرف نسبه واما الله وحدفه وعفاه فدعانا
 الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد غير وانا وانا من الجارة ورسولنا وامننا
 بصد والحديث وادنا الامانة وحلة الرجح وحسن الجوار والجد عز السمح والادب
 وتمنا عن انهم احشروا نفع الارض واليقيم وهذا المصحف وامننا ان نعبده الله ولا نشرك
 به شيئا وامننا بالعلماء والزكيات والجميل وعدد عليه امور رسولنا بصد فاما وانا

وزوجه للتمتع وليرتضاها اليه النفايص وينسب الرخصة اليه وان قلتم كل ذلك
 بغير اذن منه فكيف ينبغي ان تقوم مع امرائه قد اخطأها عن نفسها. انعلم واتخذها امولة
 بزعيمكم فتقرر بغير اذنه الرجل من نفسه بخسوة وثيابا مزرقة في خيصة خالية
 هذا محل خيانه وتهمة فعلى الله عما يقولون علوا كبيرا وصحاحه عما ينسب اليه الجاهلون
 بشرة واصيلا واستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم واصطه التوبة من خطيئة عده
 القليل من رواية هذه الباطل بالجد له الذي اعلاه الاسلم من جهة الرضا بل وضم
 يخل الباطل بالحق يستحق استباحا لغيره فيجب اخل باطل ويتميز عند هذا الحق
 من الباطل الباطل الرابع في بيان النصارى متكون اديانهم وانهم ايا
 يستند لهم في احكامهم الا محض افراضهم وانهم اياهم هذا الباب يشتمل على صدر وقبيل
 المصدر وفيه فصلان **الفصل الاول** العلم ايها العقلاء وقد الله ارادة صارى ضعف
 الناس عقولا واقلهم وطنة وتفصيلا معهم لذلك يعتقدون في الله السموات وينكرون
 الضرورات ويستندون في احكامهم الى الخرافات فتارة يستندون في اياهم الرمانية
 راوتها او خرافة سمعوها وما وعوها واخرى يتحكم فيهم متفلسف جاهل بمحض الجمل
 والحق ورا باطل من غير ان يستند الى جواز في مما يريد ان يفعل من الاجايل على بشورية
 ولا باجبارية في بعض من صور الكنايس ويتناولهم تافيل متسلخ من الملتزم ورا باطل
 بهم على انوار فيجتمعون على استباحا بل فيحكمون يا هو اياهم ويقولون فيجبار اياهم
 فيجلون ما حرم الله ويحرمون ما احل الله اعترا على الله قد فعلوا وما طاروا ممتنعين ونحن
 نسير لذلك ونستند عليهم ارشاه الله على طريقته الانصارى من غير اعتسالي بما طعنهم
 يعتقدون في الله السموات ويتكبرون بضروريات مفديينها فيما تقدم من اراد ان
 يعرف ذلك ملبعة نكرا احتمالك وما طعنهم يستندون في احكامهم الى الرمانية
 والمنامات فيدل عليهم بالحكمة فيما تقدم من خبر يولش والله اختار عليهم خصرهم
 عن دير المسيح وفولهم من المذاهب والاراء كل فيهم صغرهم عن قبلتهم واحلهم ما
 حرم عليهم ومروجا عنهم وشئت كل متهم فيتم له كل مكر على كل عبي عمى وقد
 قد من

فدمت حديثه في باب النبروت في الروا. وكذلك خبر فسطح كثير من مله في جاده لما راى
 ملكه مختار ونظره لا يستقيم ولا يحصل باختلاف رعيته عليه وفلة انقيادهم اليه
 جمع وزراره وقضا ورسم ما اختص راينهم ان يتعبد الفري بطلب دم وان يشترع لهم
 شريعة يتعبدون بها في جميع ما يابدهم من الخيل او الكثر وتتعبد لهم بالصلوات
 وتشرع لهم ثوبا المختار وغير ذلك من الاحكام التي وافقته وجاءت في اختياره واكد ذلك
 لما مره انما ذكر فيها امر الصليب فتم له مراده فيهم وخبره معروف عندهم وعند
 غيرهم وقد قدمت بعض في باب النبروت ايضا واملاوتهم بحكمون بارانهم والامر انهم
 يريدوا ذلك ما اودعوا كتب محاربتهم وما عليه لان معظم علمهم وقدرهم تلك
 الكتب قضي من حيلهم وجراقتهم على الله كل عجب فان العالم انما يحكم بالمصالح وهي عندنا
 اصل راجح فلما لهم اركان المصالح عندهم اصلا تقولوا عليه ونستندون احكامهم
 اليه مع انهم اطلعوا على ما ركنتم اصلتموه الا بقسطهم بقدر قسطهم في الاصل والبيع
 ثم يلزمكم من هذه النقول الاستغناء عن الترابيع وانما شرع الله من راحلهم في التورية عند
 لا محقوله ولا يابده اذ في النظر في المصالح غير عندها وان كانوا الانبياء شرعوا لهم اصل المصالح
 فلا بد من الاستدلال على ذلك من كلامهم وانما لم تستدلوا على ذلك بدعواكم بالعلمة وخجة
 احصت ثم لقولهم نعم ان رتبنا. شرعوا لهم اصل المصالح بمقتضى دعواهم بالعلمة
 كيف ما كانت المصلحة مطلقة او عينوا لهم نوعا من المصالح ما كانوا احد غير النبي
 لهم ولا تعبدوا ما غير لهم الانبياء. فما بالهم تستمر سلسلوا يستمر سلسل من محكم بحجاء ولا
 يجاب الله ولا يخشاه وان كانوا اطلعوا على المصالح في المصالح وقالوا لهم منكم فلهذا لهم
 مصلحة كانية ما كانت با عملهم ما يقتضيهما بخلاف يلزم على هذه الاسماء كثير من احاط
 التورية بالمصالح والراي كما جعل يقول لشرحت قال لهم هل رايتكم سارحة تشرح من عند
 ربها وخرج الرمز حيث تورمه قالوا لا قال ما رايت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج
 النارية من ههنا في الشرف وما اوجب ذلك الا وحوا حق الوجوه ان يصلي اليه فيقالوا له صدقت
 فهداهم عن استغفال الرب المقدس الى استغفال حجة الشرف بدمه الهذيان ثم قال لهم

بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة تزكية وتنويه

سعدت كثيرا بقراءة الأُصْرُوحَةِ التي أنجزها الدكتور
السيد أحمد آيت بلعيد وكذلك بالمشاركة في مناقشته
التي كانت في شعبة الدراسات العربية والإسلامية
بكلية الفيلولوجيا جامعة كومبلتنسي - مدريد.

وقد أعجبت جدا بعمل هذا الباحث الشاب المقتدر
وبالملاحة الجيدة في موضوع الجدل الديني الذي اختاره

لتخصمه وبأسلوبه /الأنيق/ في اللغة العربية

ومحفوظه الممتاز في القرآن الكريم والحديث الشريف
والسيرة النبوية وغير ذلك مما يتصل بموضوع تخصصه
وكذلك بتكوينه الجيد في اللغة الإسبانية الذي نوه
به الأساتذة /إسبان/، ويضاف إلى هذا كله ما يتحلى
به من خلق رفيع وسلوك مستقيم وأدب جم.

ولهذا فإنني أنزكيه وأوصيه خيرا وأتمنى
أن يجد ما يستحقه ويسعد بما هو أهل له داعيا له
بالتوفيق والنجاح والسلام،

الأستاذ الدكتور محمد بنسريعة
عضو أكاديمية المملكة المغربية والجامع العربية
١٩٩٢

صورة شهادة تزكية وتنويه



Universidad Complutense de Madrid
Departamento de Estudios Árabes e Islámicos

FACULTAD DE FILOLOGÍA
Ciudad Universitaria - 28040 Madrid
Tlf. 3945368, -586 - Fax 913945375
E-mail: puigmont@filol.ucm.es

J'ai l'honneur de vous présenter M. Ahmed Ait Belaid, qui vient de soutenir sa thèse de doctorat à l'Université Complutense sous ma direction. Il a fait une édition critique, une traduction espagnole annotée et une étude préliminaire excellentes du *Kitāb al-ʿIlām* d'Ahmad Ibn 'Umar Ibn Ibrāhīm Abū l-'Abbās al-Qurṭubī. La thèse a mérité la plus haute qualification du jury constitué par les professeurs M. Bencherifa, R. Ramón, MJ. Viguera, E. Tornero et JP. Monferrer.

J'ai fait la connaissance de M. Ait Belaid quand il s'est inscrit en 1997 en mon cours de doctorat. Je me rappelle qu'alors son espagnol était faible, et maintenant il en a une bonne connaissance. Il a travaillé pas seulement sur le sujet de sa thèse, mais aussi dans le domaine des religions comparées car Ahmed a étudié le christianisme et s'est renseigné aussi sur l'éducation religieuse en Espagne. Or sa spécialisation est l'histoire des religions et leur entrecroisement, une matière nouvelle dans quelques pays, et qui attire beaucoup d'intérêt.

J'aimerais bien de souligner les qualités personnelles de M. Ait Belaid: Son intelligence, son caractère laborieux et discipliné, son honnêteté. Je le souhaite tout le meilleur dans sa vie privée et professionnelle.

Madrid, le 18 mars 2002.

Josep Puig Montada
Professeur titulaire des études arabes et islamiques



صورة شهادة تزكية وتنويه باللغة الفرنسية

[151] بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله¹.

الفصل الأول من القسم الثاني² في إثبات نبوة نبينا محمد عليه السلام³

نقول: إن محمداً⁴ بن عبد الله العربي القرشي⁵ الهاشمي الإسماعيلي، رسول الله ﷺ صادق في كل ما أخبر به عن الله تعالى، لا يجوز عليه شيء من الكذب. ونستدل على ذلك: بأدلة صادقة، [152] وبراهين قاطعة، أصولها أربعة أنواع⁶:

الأول : إخبار الأنبياء قبله⁷، ووصفهم له في كتبهم.

الثاني : النظر في قرائن⁸ أحواله.

الثالث : الكتاب العزيز.

الرابع : ما ظهر على يديه من خوارق العادات. فهذه أربعة أنواع.

1 بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، أغفل في ك.

2 الفصل الأول من القسم الثاني، في ك: أنواع القسم الثاني.

3 عليه السلام، في ك: عليه الصلاة والسلام.

4 محمداً، في ك: محمد.

5 القرشي، في ك: القرشي.

6 أربعة أنواع، في ك: أربعة.

7 إخبار الأنبياء قبله، في ك: أنواع أخبار الأنبياء قبله.

8 قرائن، في ك: قوائين.

النوع الأول من الأدلة على نبوة محمد ﷺ إخبار الأنبياء به قبله

وإنما قدمنا هذا النوع، وإن كان غيره أولى بالتقديم، لكون الأنبياء المخبرين¹ بعلاماته متقدمين عليه في الزمان. ولكون هذه البشائر كانت معروفة قبل مجيئه، ولكون السائل الذي كتبنا هذا الكتاب جوابه، لم يطلب منا بجهله، إلا الاستدلال بما جاء في كتب الأنبياء، وليكون هذا الباب مؤنساً له، وباعثاً على النظر فيما بعده. ولتعلم أن الاستدلال بهذا النوع، لا يَنفَع به إلا من صدّق بتلك الكتب، وتواترت عنده.

ومن خلى عن شيء من ذلك، لا ينتفع بشيء منها، ولا يستدل بها عليه. وأما ما بعد هذا النوع، فيستدل به على كل من أنكر نبوته من سائر الفرق. فأما هذا النوع فإنما هو حجة على اليهود والنصارى، لإدعائهم أن تلك الكتب تواترت عندهم.

وهذا النوع عندنا على التحقيق، إنما هو داخل في باب الإلزامات لهم، ليظهر عنادهم وإفحامهم. ثم لتعلم أننا نذكر أخبار الأنبياء المبشرة بنبوة محمد عليه السلام²، من كتبهم التي بأيديهم، وعلى ما ترجحها مترجموهم من غير زيادة ولا نقصان.

فمن ذلك ما جاء في التوراة³، أن الله قال لموسى بن عمران⁴: "إني أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبي مثلك، أجعل كلامي على فيه، فمن عصاه انتقمته منه"⁵.

فإن قلت: إن ذلك إنما هو يوشع بن نون⁶، قلنا: لا⁷، فقد قال في آخر التوراة: "إنه لا

1 المخبرين، في ك: الخبيرين.

2 عليه السلام، في ك: ﷺ.

3 التوراة، في الأصل: التواتر، وفي ك: التوراة، والصواب هو هذا.

4 هو النبي موسى عليه السلام، كلم الله، المبعوث إلى بني إسرائيل، تم ذكره في القرآن 135. انظر ترجمته في دائرة المعارف الإسلامية، ج VII، ص 638-639.

5 نص مشابه لما ورد في سفر التثنية، الاصحاح 18: 19-18.

6 يوشع بن النون، وفي ك: يشوع بن نون.

7 قلنا: لا، أغفلت في الأصل، ووجدت في ك.

يخلف من بني إسرائيل نبي غير موسى¹. فلا محالة أن ذلك الذي بشرت به التوراة لا يكون من بني إسرائيل، لكن من إخوة بني إسرائيل. فلتنظر² من هم إخوة بني إسرائيل؟ فلا محالة أنهم العرب والروم³. فأما الروم، فلم يكن منهم نبي سوى أيوب، وكان قبل موسى بزمان، فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة، فلم يبق إلا العرب، فهو إذن محمد عليه السلام.

وقد قال في التوراة حين ذكر إسماعيل جد العرب: "إنه يضع فسطاطه في وسط بلاد إخوته". فكنتي عن بني إسرائيل بإخوة إسماعيل، كما كنتي عن العرب بإخوة بني إسرائيل في قوله: "سأقيم⁴ لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك⁵"⁶. ويدل أيضاً على [153] ذلك قوله: "من عصاه انتقمته منه"، إذ قد فعل الله ذلك بصناديد قريش وعظماء ملوك الروم وغيرهم، فهم بين أسير وقتيل ومُعطي الجزية على وجه الصغار والذلة. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: 34].

ومن ذلك ما جاء فيها أنه قال⁷: "جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران، ومعه جماعة من الصالحين"⁸.

فمجيئه من جبل سيناء أن الله أنزل فيه التوراة، وكلم عليه موسى. وإشراقه من جبل ساعير أن دين المسيح إنما اشرق⁹ من جبال ساعير، وهي جبال الروم من أدوم. واستعلانه من جبال فاران أن الله تعالى بعث منها¹⁰ محمداً¹¹، وأوحى إليه فيها. ولا اختلاف أن فاران مكة،

1 إنه لا يخلف من بني إسرائيل نبي غير موسى، في ك: لا يخلف من بني إسرائيل نبي مثل موسى. هذا النص مشابه لما ورد في سفر التثنية، الاصحاح 34: 10.

2 فلتنظر، في ك: فلتنظر.

3 والروم، في ك: أو الروم.

4 سأقيم، في ك: إني سأقيم.

5 من إخوتهم مثلك، في ك: من إخوتهم نبي مثلك.

6 في ك، أضيف: ويدل على ذلك أيضاً قوله: "أجعل كلامي على فيه" فإن هذا تصريح بالقرآن، إذ هو كلام الله الذي جاء به محمد ﷺ، وتلقيناه من فلق فيه. هذا النص مشابه لما ورد في سفر التثنية، الاصحاح 18: 19.

7 في ك، أضيف: "وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته. فقال.

8 نص مماثل لما ورد في سفر التثنية، الاصحاح 33: 1-2.

9 شرق، في ك: أشرق.

10 منها، في الأصل: منها، وفي ك: منها، وهذا هو الصواب.

11 محمداً، في ك، محمد ﷺ.

وقد قال في التوراة: "إن الله أسكن هاجر وابنها إسماعيل فاران"¹.

ومن ذلك ما جاء فيها أيضاً أن الله قال لإبراهيم: "قد استجبتك في إسماعيل وباركته، وكثرته وأئمنيته جداً جداً. يُولد له اثنا عشر عظيماً، وأجعله رئيساً عظيماً لشعب عظيم"². ولا يُشكك في أن الشعب العظيم هو النبي محمد عليه السلام⁴ وأمته، إذ لم يكن في ولد إسماعيل أعظم منهم.

وقد تفتن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود، وقرأ بعض كتبهم، فقال: "في التوراة موضعان يخرج منهما اسم محمد بالعدد على ما يستعمله⁵ اليهود فيما بينهم". ثم ذكر ما قدمته من قول الله لإبراهيم: "قد استجبتك في إسماعيل".

فأما قوله: "جداً جداً" فهو بتلك اللغة "بِمَاد مَاد"، وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون، وذلك أن الباء عندهم اثنان، والميم أربعون، والألف واحد، والدال أربعة، والميم الثانية أربعون، والألف واحد، والدال أربعة. وكذلك الميم من محمد أربعون، والحاء ثمانية، والميم أربعون، والدال أربعة. وأما قوله: "لشعب عظيم" فهو بتلك اللغة "لِغُوي غَدُول". فاللام⁶ عندهم ثلاثون، والغين ثلاثة، وهي عندهم مقام الجيم، إذ ليس في لغتهم جيم ولا ضاد. والواو ستة، والياء عشرة، والغين أيضاً ثلاثة، والدال أربعة، والواو ستة، واللام ثلاثون. فمجموع هذه أيضاً اثنان وتسعون، وهذا من رشيقي الفهم، وملح البحث، وغرائب العلم⁷.

1 "إن الله أسكن هاجر وابنها إسماعيل فاران" نص مشابه لما ورد في سفر التكوين، الاصحاح 21: 21. في ك، أضيف: وفي بعض التراجم: "أقبل السيد من سيناء، ومن شعير تراءى لنا، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف من الصالحين، ومعه كتاب ناري، وهو ختم الأجناس، وجميع الصالحين في قبضته، ومن تدانى من قدميه يصيب من علمه". ففكر على إنصاف وتثبت، من الجائي المقبل من جبال فاران مع الآلاف من الصالحين؟ ومن جاء بالكتاب الذي ما منه سورة إلا وفيها الوعيد على المخالف بالنار وعذابها وأنكأها وأغلاها؟، انظر الهامش السادس من الصفحة الخامسة والثلاثين.

2 وأجعله رئيساً عظيماً لشعب عظيم، في ك: وأجعله لشعب عظيم.

3 نص مشابه لما ورد في سفر التكوين، الاصحاح 17: 20.

4 هو النبي محمد عليه السلام، في ك: هو محمد عليه السلام.

5 يستعمله، في ك: تستعمله.

6 فاللام، في الأصل: فالدال، وفي ك: فاللام، وهذا هو الصواب.

7 هذا العلم يسمى علم الحروف، وهو إعطاء رقم حسابي لكل الحروف الأبجدية ابتداء من 1 لحرف الألف وهكذا.

وفي التوراة أيضاً أن ملك¹ الرب قال لهاجر: "ستلدين ابناً، وتدعين اسمه إسماعيل. يده على كل، ويد كل به، وسيحل على جميع حدود إخوته"².

ولا محالة أن إسماعيل، وولده لم تكن أيديهم إلا تحت يد إسحاق، لأن [154] النبوة والمُلك إنما كانا في ولد إسحاق. فلما بعث الله تعالى محمداً، جعل يد بني إسماعيل فوق أيدي الجميع، ورد النبوة والمُلك فيهم، وأنهم وعظمتهم وبارك عليهم جداً جداً.

وفي التوراة أيضاً: "أقبل السيد من سيناء، ومن ساعير³ تراءى لنا، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف من الصالحين، ومعه كتاب ناري، وهو ختم الأجناس، وجميع الصالحين في قبضته، ومن تدانى من قدميه يصيب من علمه"⁴.

ففكر على إنصاف وتثبت، من الجائي المقبل من جبال فاران مع الآلاف من الصالحين؟ ومن جاء بالكتاب الذي ما منه سورة⁵ إلا وفيها الوعيد على المخالف بالنار وعذابها وأنكالها وأغلاها؟⁶. فإذا نظرت وطرحت عن نفسك الهوى والتعصب، علمت أنه لم يأت بهذه الصفات إلا محمد ﷺ⁷.

ومن ذلك ما جاء في الزبور الذي بأيديكم أنه قال: "سبحوا الرب تسيحاً حديثاً. سبحوا الذي هيكله الصالحون، ليفرح إسرائيل بخالقه وبنات صهيون⁸، من أجل أن الله اصطفى لهم أمة، وأعطاهم النصر، وسدد الصالحين منهم بالكرامة. يسبحون الله على مضاجعهم، ويكبرونه بأصوات مرتفعة. بأيديهم سيوف ذوات شفرتين، لينتقم الله بهم من الأمم الذين لا يعبدونه، يوثقون ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال"⁹.

أخبرونا يا هؤلاء الجاحدون للحق، المعرضون عن أخبار الصدق: من هذه الأمة التي

1 ملك، في ك: ملاك.

2 نص مشابه لما ورد في سفر التكوين، الاصحاح 16: 11-12.

3 ساعير، في الأصل: الشعير، وفي ك: شعير.

4 نص مشابه لما ورد في سفر التثنية، الاصحاح 33: 2.

5 سورة، في الأصل: صورة، وفي ك: سورة، وهذا هو الصواب.

6 وفي التوراة أيضاً..... وعذابها وأنكالها وأغلاها، ذكرت في ك في مكان سابق، انظر الهامش الأول من الصفحة الرابعة والثلاثين.

7 فإذا نظرت وطرحت عن نفسك الهوى والتعصب، علمت أنه لم يأت بهذه الصفات إلا محمد ﷺ، أهملت في ك.

8 بنو صهيون، في الأصل: بنات صهيون، وفي ك: بنو صهيون.

9 نص مشابه لما ورد في سفر المزامير، المزمور 149: 1-8.

سيوفها سيوف ذوات شفرتين، ينتقم الله بهم من الأمم الذين لا يعبدونه؟ ومن المبعوث بالسيف من الأنبياء؟ ومن الذين يُكَبِّرون الله بأصوات مرتفعة في الأذان؟ هذه أوصاف محمد ﷺ، وأوصاف أمته، بلا ريب ولا رجم غيب.

وفي الزبور أيضاً، وذكر¹ صفة محمد ﷺ فقال: "ويجوز من البحر إلى البحر، ومن منقطع الأنهار إلى منقطع الأنهار. وأنه يخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم، ويلحس² أعداؤه التراب³، وتأتيه ملوك بالقرايين وتسجد له، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد، لأنه يخلص المضطهد البائس من الأقوى⁴ منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالضعفاء والمساكين. وأنه يعطي من ذهب بلاد سبأ، ويصلى عليه في كل وقت، ويدوم أمره إلى آخر الدهر"⁵.

تأمل أوصاف النبي ﷺ، فهي على ما ذكر ما غادر منها واحداً. ولم تجتمع [155] هذه الصفات والعلامات لأحد قبله، على ما هو معروف من أحوال الأنبياء المتقدمين، عند العلماء المنصفين غير الجاهلين المتعصبين.

وفي الزبور أيضاً: "إن الله أظهر⁶ من صهيون إكليلاً محموداً"⁷. فالإكليل: ضرب مثل لرئاسته، ومحمود: هو محمد عليه السلام⁸، وقد بلغ دينه صهيون وغيره. وفيه أيضاً: "تقلد أيها الجبار السيف"⁹، فإن ناموسك وشرائعك¹⁰ مقرونة بيمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يخرون تحتك"¹¹.

تأمل: من الجبار الآتي بشرائع يظهرها بالسيف والسهام؟ فإنك إذا تأملت ذلك لم تجد

1 وذكر، في ك: ذكر.

2 يلحس، في الأصل: يجلس، في ك: يلحس، وهذا هو الصواب لورودها هكذا في نص التوراة.

3 التراب: في الأصل: بالتراب، وفي ك: التراب.

4 من الأقوى، في الأصل: من أقوا، وفي ك: من الأقوى، وهذا هو الصواب.

5 نص مشابه لما ورد في سفر المزامير، المزمور 72: 8-17.

6 إن الله أظهر، في ك: إن الله تعالى أظهر.

7 لم يتم العثور على هذا النص في سفر المزامير.

8 هو محمد عليه السلام، في ك: هو محمد ﷺ.

9 تقلد أيها الجبار السيف، في ك: تقلد أيها الجبار سيفك.

10 شرائعك، في ك: شريعتك.

11 نص مشابه لما ورد في سفر المزامير، المزمور 45: 4-6.

على هذه الصفات أحداً من عهد داود إلا النبي محمد عليه السلام¹، فهو المبشّر به لا محالة. وقد تقدم قول داود: "اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنه بشر". فليُنظر هنالك، فإنه نص على نبينا محمد ﷺ، فإنه جاعل السنة، وهو أخبر بأن المسيح بشر وليس بإله. وفي الزبور، ترجمة وهب ابن منبه، يقول الله² لداود عليه السلام في المزمور الخامس: "اسمع ما أقول، ومر سليمان، فليقله للناس من بعدك: إن الأرض لي أورثها محمداً وأمته. فهم خلافكم لم تكن صلاتهم بالطنابير، ولا قدسوني بالأوتار"³. وهذا تصريح باسمه، وبتأييد شريعته⁴، وبصفات أمته.

وزبور وهب بن منبه هذا الذي نقلت منه أصح ما يوجد من كتاب الزبور، فإنه أوثق وأعلم من كل من ترجمه⁵ في سالف الدهور، ولكن النصارى مع ذلك يكذبون إذ هم جاهلون ومعاندون.

ومن ذلك ما جاء في الإنجيل الذي بأيديكم أن المسيح قال: "إن كنتم تحبونني⁶ فاحفظوا وصاياي، وسأرغب إلى الآب في أن يبعث إليكم روح البرقليط⁷ ليكون معكم في الأبد⁸. روح الحق الذي لا تقبله⁹ الدنيا لأنها لا تراه ولا تعرفه، وأنتم تعرفونه لأنه نازل عليكم وعندكم لاث، ولست أدعكم أيتاماً"¹⁰.

وفيه أيضاً عن يوحنا أن المسيح قال¹¹: "سينفعكم¹² ذهابي، لأنني إن لم أذهب

1 إلا النبي محمد عليه السلام، في ك: إلا النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

2 يقول الله، في ك: يقول الله تعالى.

3 لم يتم العثور على هذا النص في سفر المزامير.

4 بتأييد شريعته، في ك: تأييد شريعته.

5 وأعلم من كل من ترجمه، في ك: وأعلم من كل ترجمة.

6 تحبونني، في ك: تحبونني.

7 أن يبعث إليكم روح البرقليط، في ك: أن يبعث إليكم البرقليط.

8 في الأبد، في ك: إلى الأبد.

9 تقبله، في ك: تقبله.

10 نص مشابه لما ورد في إنجيل يوحنا 14 : 15-18.

11 أن المسيح قال، في الأصل: أن المسيح، وفي ك: أن المسيح قال، وهذا هو الصواب.

12 سينفعكم، في الأصل: قد سينفعكم، وفي ك: سينفعكم.

لا يأتاكم¹ البرقليط، وإن ذهب سابعته إليكم. وإذا قدم سيعرف الدنيا بالمأثم والعدل والحكم. فأما المأثم فتركهم الإيوان بي، وأما العدل فذهابي إلى الآب، ولا تروني بعدها. وأما الذي يحكم بي فيها، فإنه يحكم على صاحب الدنيا ويقهر. وقد بقيت لي أشياء كثيرة أعلمكم بها، إلا أنكم لا تحملونها الآن. فإذا قدم الروح الصادق، فهو يعرفكم بالصواب، وليس يعلمكم من ذاته إلا بما يسمع. وسيعلمكم بما يكون، [156] وسيُعظمني لأنه يصيب مني ويعلمكم².

وفيه أيضاً أن المسيح قال للحواريين: "الذي يبغضني يبغض أبي. فلو لم أطلع عندهم من العجائب ما لم يطلع غيري، لم يكن قبلهم ذنب، ولكنهم الآن قد عابوا وكرهوني لِيَتَمَّ ما كُتِبَ في كتبهم، حيث قال إنهم كرهوني بلا ذنب. فإذا أقبل البرقليط الذي أبعث إليكم من عند الآب، الروح الصادق المنبثق من الآب. هو يؤدي الشهادة عني، وأنتم تستشهدون لأنكم كنتم معي من أول الأمر. وإنما أقول لكم هذا لئلا يواقعكم التشكيك"³.

فالبرقليط بالرومية هو المنحمن بالسريانية⁴، وهو محمد بالعربية.

فتأمل هذه البشائر التي لا ينكرها إلا معاند مجاهر، فقد أخبر به المسيح بالعين والاسم والأفعال، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: 32].

وفيه أيضاً أنه قال لليهود: "وتقولون لو كنا في أيام آبائنا، لم نساعدكم على قتل الأنبياء، فأتموا كيل آبائكم، يا ثعابين بني الأفاعي. كيف لكم والنجاة من عذاب النار؟ وسأبعث إليكم أنبياء وعلماء، وستقتلون منهم وتصلبون وتجلدونهم في جماعتكم، وتطلبونهم من مدينة إلى أخرى لتتكامل عليكم دماء المؤمنين المهراقة على الأرض من دم هابيل الصالح إلى دم زكرياء بن برحيا⁵ الذي قتلتموه عند المذبح⁶. آمين. آمين. أقول إنه سيأتي جميع ما وصفت على هذه الأمة. يرشالم. يرشالم التي تقتل الأنبياء، وترجم من بعث إليك⁷، قد أردت أن أجمع

1 لا يأتاكم، في ك: لم يأتكم.

2 نص مشابه لما ورد في إنجيل يوحنا 16: 7-15.

3 نص مشابه لما ورد في إنجيل يوحنا 15: 23-27 و 16: 1.

4 فالبرقليط بالرومية هو المنحمن بالسريانية، في ك: فالبرقليط بالرومية المنحمن بالسريانية.

5 زكرياء بن برحيا، في ك: زكرياء بن برخيا.

6 عند المذبح، في ك: بين المذبح والمهيكل.

7 إليك، في ك: إليها.

بنيك جمع الدجاجة فراريحها تحت جناحها¹، وكرهت أنت ذلك. سأقفر عليكم بيتكم، وأنا أقول لكم: لا تروني الآن حتى يأتي من تقولون له: مبارك على اسم الله^{2 3}.

تأمل بشارته بالنبي محمد عليه السلام، وتوعده لهم بالانتقام منهم على يديه. فإن تأملت⁴ هذا على جهة الإنصاف، لاح الحق لك. وإلا ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72].

وقوله: "سأبعث" في الموضعين تحريف، بدليل قوله فيما تقدم: "سأرغب إلى الآب في أن يبعث إليكم روح البرقليط"^{5 6} فقد صرح هنا بأن الباعث له هو الله لا هو، وهو الحق. إذ قد تبين أن المسيح لا يفعل شيئاً من ذاته، وإنما يفعل ما يريد الله تعالى. وقد تقدم قوله: "لست أنفذ إرادتي وإنما أنفذ إرادة الآب"^{7 8}.

وفيه أيضاً أن المسيح قال: "إن التوراة وكتب الأنبياء يتلو بعضها بعضاً بالنبوة والوحي حتى جاء يحيى. وأما الآن، فإن شئتم فاقبلوا. فإن إيل مزعم أن يأتي. [157] فمن كانت له أذنان سامعتان فليسمع"⁹.

إيل هو الله تعالى. ومجيئه هو مجيء رسوله بكتابه وأمره، كما قال في التوراة: "جاء الله من سيناء"¹⁰، وأقبل وما أشبه ذلك¹¹.

فإن قلت قوله: "فإن إيل مزعم أن يأتي"¹²، وقوله: "حتى يأتي من تقولون له: مبارك"^{13 14} إنما أراد من كان بعده من الأنبياء، مثل:

1 جناحها، في ك: جناحها.

2 مبارك على اسم الله، في ك: مبارك الآتي على اسم الله.

3 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 23: 39-30.

4 فإن تأملت، في ك: فإذا تأملت.

5 في أن يبعث إليكم روح البرقليط، في ك: في أن يبعث إليكم البرقليط.

6 نص مشابه لما ورد في إنجيل يوحنا 14: 16.

7 وإنما أنفذ إرادة الآب، في ك: وإنما أنفذ إرادة الرب.

8 نص مشابه لما ورد في إنجيل يوحنا 6: 38.

9 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 11: 13-15.

10 نص مشابه لما ورد في سفر التثنية، الاصحاح 33: 2.

11 جاء الله من سيناء، وأقبل وما شابه ذلك، في ك: جاء الله من سيناء، وما أشبه ذلك.

12 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 11: 14.

13 مبارك، في ك: مبارك الآتي.

14 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 23: 39.

بارنبا¹، وشمعون، ولوقيش²، وماثال³. هؤلاء أنبياء أنطاكية⁴. ومن بيت المقدس أغفانوش⁵، ومن فلسطين جرجيس.

فالجواب أنه لا يصح لكم أن تعترفوا بنبوة واحد من هؤلاء، بل ينبغي لكم أن تكفروا بهم لأنكم ترون أنه لا نبي بعد المسيح، وتُسندون ذلك إلى كتبكم. فإما أن تكذبوا بقولكم: لا نبي بعد المسيح، أو تنكروا نبوة من ذكرتم.

ثم لو سلمنا أنهم أنبياء، فليسوا المرادين بما ذكر، لأنهم لم يأتوا بكتب من الله ولا بأوامر آخر. وغايتهم أن يحكموا بكتب الأنبياء قبلهم، وإتيان الله فيما ذكر إنما هو عبارة عن إتيان نبي من أنبيائه بكلامه وكتابه، كما قال: "جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران"⁶، وهذا واضح للمنصف⁸.

وقد زعم بعض المعاندين الجاهلين⁹ ممن ينتمي إلى دينكم أن المبشر به في دينك الموضوعين، إنما المراد به رجوع بعض من مضى¹⁰ من الرسل وعودهم إلى الأرض وإلى الناس، وهو قول¹¹ باطل صدر عن معاند جاهل، إذ لم يثبت شيء من ذلك على لسان نبي فاضل، إلا ما صح على لسان نبينا من رجوع عيسى ابن مريم صلوات الله عليهم وسلامه، إذا خرج الدجال¹² وقتله له¹³. وفي إنجيلكم إشارة إلى هذا. وهذا عندنا مبني على أن الله تعالى رفع

1 بارنبا، في ك: بارنابا.

2 لوقيش، في ك: ليوقوش.

3 ماثال، في ك: مناين.

4 أنطاكية، في الأصل: أنطايتة، وفي ك: أنطاكية، وهذا هو الصواب.

5 أغفانوش، في ك: أغفانوس.

6 واستعلن من فاران، في ك: واستعلن من جبال فاران.

7 نص مشابه لما ورد في سفر التثنية، الاصحاح 33: 2.

8 للمنصف، في الأصل: للمصنف، وفي ك: للمنصف، وهذا هو الصواب.

9 الجاهلين، في الأصل: المجاهدين، وهذه الكلمة ليس لها معنى في سياق الجملة، وفي ك: الجاهلين.

10 من مضى، في ك: ما مضى.

11 وهو قول، في ك: وهذا قول.

12 إذا خرج الدجال، في ك: إذا أخرج الدجال.

13 انظر سنن الترمذي، كتاب الفتن، رقم الحديث 2170 وسنن أحمد بن حنبل، مسند المكين، رقم الحديث 14919

المسيح إليه ولم يُقتل ولا مات، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 158]، على ما يأتي عند ذكر الصلوية¹. وإنما يموت إذا قتل الدجال عند باب لد، وبعد أن يهلك الله يأجوج ومأجوج على يديه.

وفي الإنجيل أيضاً أنه ضرب مثلاً للدنيا، فقال: "مثل الدنيا كمثل رجل اغترس كرماً، وسيج² حوله، وجعل فيه معصرة، وشيد فيه قصراً، ووكل به أعواناً، وتغرب عنه. فلما دنا أو انقطع، بعث عبيده إلى أعوانه الموكلين بالكرم"³.

فضرب المسيح عليه السلام مثلاً للأنبياء، ثم لنفسه، ثم قال: "سيزاح عنكم مُلك الله وتُعطا⁴ الأمة المطيعة العاملة"^{5 6}.

ثم ضرب مثلاً بصخرة⁷، وقال: "من سقط على هذه الصخرة سينكسر، ومن سقطت عليه يتهشم"⁸. يريد بذلك محمداً ﷺ. من ناوأه وحاربه أظهره الله عليه. وكذلك قد أزاح الله [158] ملككم وأزاله عنكم، وأعطاه أمة محمد، حيث افتتحوا عليكم بلاد الشام وبلاد المغرب⁹، وردوكم في أكثر الأرض أهل ذلة وصغار، وأخذوا منكم الجزية بعد القتل الذريع، والاسترقاق الشديد، بعد أن كان مُلككم راسخاً، وجبله شامخاً. فهَدَّ الله بنبية قواعده، ولينفذن الله مواعده¹⁰. وأعظم شاهد على أن الله أزاح ملككم عنكم كما قال المسيح، إن الله أعطانا¹¹ بيت المقدس، وأظهرنا عليه وإن كرهتم. والحج إليه عندكم من أعظم شرائعكم، وشرائع اليهود. ثم الواحد منكم لا يصل إليه حتى يلحقه من الذلة والصغار ما لا يخفى عليكم ﴿وَاللَّهُ مَتِّمُ تَوْرِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8].

1 عند ذكر الصلوية، في ك: من ذكر الصلوية.

2 وسيج، في ك: هو وسيج.

3 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 21: 33-34 و إنجيل مرقس 12: 1-2.

4 تعطاء، في الأصل: تعاطا، وفي ك: تعطاء، وهذا هو الصواب.

5 الأمة المطيعة العاملة، في ك: الأمة المطيعة.

6 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 21: 43.

7 ثم ضرب مثلاً بصخرة، في ك: فتأمله، ثم ذكر في المثل صخرة.

8 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 21: 44.

9 بلاد المغرب، في ك: بلاد الغرب.

10 ولينفذن الله مواعده، في ك: ولينفذ به الله مواعده.

11 إن الله أعطانا، في ك: إن الله تعالى أعطانا.

وفي صحف إسماعيل النبي الذي بأيديكم قال: " ستمتلى البادية والمدائن من قصور آل قيدار¹ يسبحون، ومن رؤوس الجبال ينادون. هم الذين يجعلون لله الكرامة، ويبشون تسبيحه في البر والبحر²."

وفي صحف حزقيال النبي عن الله يقول: " إني مؤيد قيدار بالملائكة³ ". وقيدار ولد إسماعيل بلا شك.

فانظر أي بادية هذه البادية التي امتلأت⁴ من قصور آل قيدار، الذين⁵ ينادون بالأذان والتلبية من رؤوس الجبال، ويجعلون لله الكرامة بالصلاة والحج والصوم والزكاة⁶ وغير ذلك؟

وقد ثبت أن الملائكة قاتلت مع ﷺ في مواطن على ما يأتي إن شاء الله⁷.

وقال إسماعيل النبي عن الله: "عبدني الذي سرّرت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي، يوصي الأمم بالوصايا. لا يضحك، ولا يُسمع صوته في الأسواق. يفتح العيون العور⁸، ويسمع الآذان الصم، ويحيي القلوب الغلف. وما أعطيه لا أعطيه غيره. أحمد يحمد الله حمداً كثيراً. يأتي من أقصى الأرض. تفرح البرية، وسكانها يهللون الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية. لا يضعف، ولا يُغلب، ولا يميل إلى الهوى، ولا يُسمع في الأسواق صوته، ولا يذل الصالحين الذين هم كالعصبة الضعيفة، بل يقوّي الصديقين. وهو ركن للمتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفى ولا يخضم⁹، حتى يثبت¹⁰ في الأرض حجتي، وينقطع به العذر¹¹، وإلى تداركه¹² ينقاد الحق¹³."

1 ستمتلى البادية والمدائن من قصور آل قيدار، وفي ك: ستمتلى البادية والقصور التي سكنها قيدار.

2 نص مشابه لما ورد في سفر إسماعيل، الاصحاح 42: 11-12.

3 لم يتم العثور على هذا النص في سفر حزقيال.

4 امتلأت، في ك: انتقلت.

5 الذين، في ك: والذين.

6 الزكاة، في الأصل: الزكات، وفي ك: الزكاة.

7 إن شاء الله، في ك: إن شاء الله تعالى.

8 العور، في الأصل: العيور، وليس لها أي معنى هنا، وفي ك: العور.

9 يخضم، في ك: يخاصم.

10 يثبت، في ك: تثبت.

11 ينقطع به العذر، في ك: ينقطع العذر به.

12 وإلى تداركه، في ك: وإلى توراته.

13 "عبدني الذي سرّرت به نفسي.... لا أعطيه غيره" مشابه لما ورد في سفر إسماعيل، الاصحاح 42: 1-4 والباقي لم يتم العثور عليه.

فاعتبر هذا التصريح باسم محمد وصفاته، فإن هذه¹ العلامات المذكورات على لسان هذا النبي، لا يصح بحال أن توجد لغيره، ولم تكن إلا له².

فإن قلت هو المسيح، قيل لك: تفهم لفظ الكلام ومساقه، وحينئذ تحكم بأنه محمد قطعاً، وذلك أنه قال فيه: "يوصي الأمم"، وهذا [159] تصريح³ ببعثه للناس كافة. وعيسى إنما بعث إلى الأجناس⁴ من بني إسرائيل خاصة، بدليل قوله في الإنجيل: "إني لم أبعث إلى الأجناس، وإنما بعثت إلى الغنم الرابضة من نسل إسرائيل"⁵.

وكذلك قال للحواريين: "لا تسلكوا في سبيل الأجناس، ولكن اختصروا إلى الغنم الرابضة⁶ من بني إسرائيل"⁷.

ثم قال: "أحمد يحمد الله"، وهذا تصريح باسمه. فإن أسماء كثيرة منها: محمد، وأحمد. ثم قال: "يهللون الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية". وهذا إخبار بأذانهم وتبليتهم، وليس هذا لأحد غيره.

ثم قال: "لا يضعف ولا يُغلب"، وأنتم تزعمون أن المسيح غلب على نفسه، ومُجِّل على خشبة، وسُمِّرت يدها فيها، وقُتِل عليها بعد صفع وإهانة عظيمة⁸. ولا درجة في الغلبة والضعف والذلة تزيد على هذا.

وأما نبينا محمد ﷺ فقد فتح الله عليه فتحاً مبیناً، ونصره نصراً عزيزاً⁹، وأظهره على كل عدو معاند، حتى أعلى الله دينه، وأفشى توحيده، وعصمه من كل الشرور، ووقاه كل مخوف، وكل محذور.

1 فإن هذه، في ك: وإن هذه.

2 ولم تكن إلا له، في ك: ولم يكن إلا له.

3 وهذا تصريح، في ك: وهذا التصريح.

4 إنما بعث إلى الأجناس، في ك: إنما بعث للأجناس.

5 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 15: 24.

6 ولكن اختصروا إلى الغنم الرابضة، في ك: ولكن اختصروا بالضرورة إلى الغنم الرابضة.

7 نص مشابه لما ورد في إنجيل متى 10: 6-5.

8 إلى هذا يشير ما ورد في إنجيل متى 27: 31-27 و 27: 35-46 وإنجيل مرقس 15: 17-24.

9 نصره نصراً عزيزاً، في ك: نصره نصراً.

ومن أدل ما في كلامه أن نبينا محمداً هو المراد والمبشر به قوله: "لا يخلصكم¹، حتى يثبت² في الأرض حجتي"³، فإن هذا تصريح بالقرآن الذي جاء به، إذ قد عجز عن الإتيان بمثله أو بسورة من مثله جميع البشر، وإن كان فيهم اللد الفصحاء، والمهرة الحكماء، فثبتت في الأرض حجة الله، وعلم أنه من عند الله.

وسياتي بيان هذا المعنى إن شاء الله عز وجل.

وفي صحف حبقوق النبي التي بأيديكم، قال: "جاء الله من التين⁴، وتقديس من فاران⁵، وامتلاأت الأرض من تحميد أحمد وتقديسه، وملك الأرض⁶ بهيته"⁷. وقال أيضاً: "تضيء لنوره الأرض، وستنزع في قسيك إغراقاً، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء"⁸.

فيا معشر العاقلين! ⁹. انظروا عناد هؤلاء الجاحدين، وإنكار هؤلاء المباهتين، وتواقع هؤلاء الجاهلين، كيف خالفوا هذه النصوص القاطعة، والبشارات الصادقة محكمين في ذلك أهوائهم، وهم ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: 146].

وفي صحف إشعياء النبي قال: "قيل لي: قم ناظراً فانظر، فما ترى تخبر به. قلت: "أرى راكبين مقبلين، أحدهما على حمار، والآخر على جمل، يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابل وأصنامها النخرة"¹⁰.

فصاحب الجمل هو محمد ﷺ، وصاحب الحمار، باتفاق منا ومنكم، هو المسيح. وليس محمد بركوب الجمل أشهر من عيسى بركوب الحمار. وإنما سقطت [160] عبادة الأصنام

1 لا يخلصكم، في ك: لا يخلصكم.

2 يثبت، في ك: يثبت.

3 لم يتم العثور على هذا النص في التوراة.

4 التين، في ك: التيمن.

5 تقديس من فاران، في ك: والقدوس من جبل فاران.

6 ملك الأرض، في ك: ملأ الأرض.

7 نص مشابه لما ورد في سفر حبقوق، الاصحاح 3: 3.

8 لم يتم العثور على هذا النص في التوراة.

9 فيا معشر العاقلين، في ك: فيا معشر العقلاء.

10 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 21: 6-9.

ببابل من دون الله وهدت أوثانها بالنبي محمد ﷺ وأمته، لا بعيسى ولا بغيره، فما زالت ملوك بابل يعبدون الأوثان من كون إبراهيم إلى زمان النبي محمد ﷺ وأمته.

وفي صفحته أيضاً: "لتفرح أرض البادية العطشى، ولتبتهج² البراري والفلوات، لأنها ستعطى بأحمد محاسن لبنان، كمثّل حسن الدساكير والرياض³. هذا ينص على اسمه ووصفه وبلده، بحيث لا ينكره إلا وقاح مجاهر بالباطل الصراح.

وفي صفح إشعيا النبي: "أتت أيام الافتقاد، أتت أيام الكمال" ثم قال: "لتعلموا يا بني إسرائيل الجاهلين أن الذي تسمونه ضالاً هو صاحب النبوة، تفترون ذلك على كثرة ذنوبكم وعظم فجوركم"⁴.

وفي الصفح المنسوبة للأنبياء عشر نبياً⁵: "إن الله سيتجلى من القبلة، وتظهر كلمة القدس من جبال فاران ظهوراً أبدياً، ويحمد الله على ذلك في السموات والأرض، وكلمة أحمد تملأ الأرض"⁶.

وفي صفح حزقيال النبي التي بأيديكم، يقول عن الله بعدما ذكر معاصي بني إسرائيل، وشبههم بكرمة غذاها، وقال: "لم تلبث تلك الكرمة أن قُلعت بالسخطة، ورُمي بها على الأرض، وأحرقت السائم حرها. فعند ذلك غُرس غُرس في البدو، وفي الأرض المهملة العطشى، وخرجت من أغصانها الفاضلة نار أكلت تلك، حتى لم يوجد فيها غصن قوي ولا قضيب"⁷.

اعتبر أيها العاقل هذا المثل على جهة الإنصاف بجانبك الخطأ والزلل، فإن الكرمة مثل لدين المسيح ورسالته، وذلك أن مقامه كان في قومه زماناً يسيراً، ورفع الله عن أتباع يسيرة⁸، أحد عشر على ما زعموا، ثم أتباعهم على شرعهم المستقيم يسرون⁹.

1 زمان النبي محمد ﷺ، في ك: في زمان النبي ﷺ.

2 ولتبتهج، في الأصل: ولتبتج، وفي ك: ولتبتج، وهذا هو الصواب.

3 نص مشابه لما ورد في سفر إشعيا 35: 1-2.

4 لم يتم العثور على هذا النص في سفر إشعيا.

5 وقع سهو للمؤلف، فالنص موجود في سفر حقوق وليس في "أعمال الرسل" كما أشار إلى ذلك.

6 نص مشابه لما ورد في سفر حقوق، الاصحاح 3: 3.

7 نص مشابه لما ورد في سفر حزقيال، الاصحاح 19: 12-14.

8 عن أتباع يسيرة، في ك: عن أتباع يسيرين.

9 يسرون، في الأصل: يسير، وفي ك: يسرون.

ثم بعد ذلك بنحو الأربعين سنة، اعتراهم التبديل الكثير، والتغيير العظيم، حتى أحرقت رياح الكفر¹ تلك الكرمة.

فلما لم يبق منهم إلا بقايا، قليل عددهم، وخفي موضعهم، بعث الله نبيه في أرض البدو التي هي أرض إسماعيل ومنشأه. ووصفه لها بالعطشى تصریح بوصفها. فإنها صحراء، وكونها مهملة إنما هو من النبوة، فإنه لم يكن منها نبي² من عهد إسماعيل إلى عهد محمد ﷺ.

ثم إنه شبه ما نصر به النبي عليه السلام من الحرب والرعب، بالنار التي تأتي على كل شيء، فكذلك دين نبينا محمد ﷺ، أظهره الله بالحجة والسيف على الدين كله ولو كره المشركون.

وقد قدمت أن في صحف دانيال النبي [161] وقد نعت الكذابين وقال: "لا تمتد دعوتهم ولا يتم قربانهم. وأقسم الرب بساعده ألا يظهر الباطل، ولا تقوم لمدع كاذب دعوة³ أكثر من ثلاثين سنة"⁴.

وهذا دين الإسلام الذي جاء به محمد عليه السلام له ست مائة ونيف من الأعوام⁵، وهو باق إلى آخر الأيام، والحمد لله على ما أولى من الفضل والإنعام.

وقال دانيال النبي، وقد سأله الملك بخت نصر⁶ عن منامة رآها⁷، وطلب أن يخبر بها ثم بتفسيرها، فقال: "أيها الملك رأيت صنما بارع الجمال، أعلاه من ذهب، ووسطه من فضة، وأسفله من نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من فخار. فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك⁸ إذ دقك الله بحجر⁹ من السماء، فضرب رأس الصنم، فطحنه حتى اختلط ذهبه وفضته ونحاسه

1 حتى أحرقت رياح الكفر، في ك: حتى أحرقت ديار الكفر.

2 لم يكن منها نبي، في ك: لم يكن بها نبي.

3 ولا تقوم لمدع كاذب دعوة، في ك: ولا يقول لمدع كاذب دعوة.

4 لم يتم العثور على هذا النص في سفر دانيال.

5 ست مائة ونيف من الأعوام، في ك: ست مائة سنة ونيف من الأعوام.

6 بخت نصر، في ك: نبوخذناصر.

7 عن منامة رآها، في ك: عن رؤيا رآها.

8 فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك، في ك: فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك.

9 إذ قد دقك الله بحجر، في ك: إذ دقه الله بحجر.

وحديده وفخاره. قم إن الحجر ربا وعظم، حتى ملأ الأرض كلها". قال له بخت نصر¹: "صدقت، فأخبرني بتأويلها". فقال دانيال²: "أما الصنم فأُمم مختلفة في أول الزمان وفي وسطه وفي آخره. فالرأس من الذهب أنت، والفضة ابنك من بعدك، والنحاس الروم، والحديد الفرس، والفخار أمتان ضعيفتان تملكهما امرأتان باليمن والشام، والحجر هو دين نبي ومُلك أبدي في آخر الزمان، يغلب الأمم كلها، ثم يُعظَّم حتى يملأ الأرض كلها كما ملأها ذلك الحجر"³.

قلت: ولا يصح لك يا أيها المخدوع أن تدّعي أنه المسيح، فإنه لم يغلب الأمم كلها بل غلب⁴، فإنه استُضعِف فأهين وصُلب، ولم يُبعث إلى الأمم كلها عامة بل إلى قوم بأعيانهم خاصة. وإنما [محمد] الذي غلب كل الأمم⁵، العرب منها والعجم على اختلاف أصنافها وشتى ضروبها وأوصافها. فجعل الكل جنساً واحداً، وألزمهم ديناً واحداً، وصيرهم أمة واحدة، وجعلهم على اختلاف لغاتهم متكلمين بلغة واحدة⁶، أعني إذا قرؤوا القرآن.

فلا محالة أن العرب والفرس والنبط والقبط والأكراد والترك والديلم والبربر وأهل الهند والسند والسودان وغيرهم من أسلم منهم على كثرتهم ينطقون بلغة واحدة إذا قرؤوا القرآن⁷، إذ لا يمكن أن يُنقل⁸ عن لسان العرب إلى لسان غيرهم، فإن تُرجم بلسان آخر، فليس ذلك هو القرآن وإنما هو تفسير القرآن.

يا أيها الجاهل الناكف عن الحق⁹ العادل، قد كنت ذكرت في كلامك: أن المسلم إن أقام شاهداً من كتب الأنبياء أن فيها محمداً منتظراً [162] فدينه حق، ودين النصارى باطل، وقد أقمنا والحمد لله الشواهد من كتب الأنبياء الأوائل على الذي طلبت، على نحو ما رسمت، بل

1 بخت نصر، في ك: نبوخذ نصر.

2 فقال دانيال، في ك: قال دانيال.

3 نص مشابه لما ورد في سفر دانيال، الاصحاح 2: 31-45.

4 بل غلب، في ك: بل غلب بزعمكم.

5 وإنما محمد الذي غلب كل الأمم، في الأصل: وإنما الذي غلب كل الأمم، وفي ك: وإنما محمد الذي غلب كل الأمم.

6 متكلمين بلغة واحدة، في ك: يتكلمون بلغة واحدة.

7 فلا محالة أن العرب والفرس والنبط ينطقون بلغة واحدة إذا قرؤوا القرآن، أهملت في ك.

8 إذ لا يمكن أن ينتقل، في ك: إذ لا يمكن أن ينتقل.

9 الناكف عن الحق، في ك: الناكث عن الحق.

هذه الشواهد في دلالتها على نبوة محمد أوضح وأقص مما استدلت أنت بها على نبوة المسيح. وقد وكلت العاقل المنصف للنظر في أي الدلالات أبين وأوضح، أداللتنا أم دلالتكم. وعند الوصول إلى هذا القدر والوقوف على تلك الشواهد الغر، يتبين أن دين النصارى واليهود باطل، وأنهم إما معاند وإما جاهل.

ولقد جاء في كتاب إشعياء النبي من نعوته وأوصافه، وذكر مكة بلده، وحج الناس إليها ما لا يبقى معه ريب ولا إشكال، فمن ذلك¹ أنه قال: "ابشري واهتزي يا أيتها العاقر التي لم تلد²، وانظقي بالتسبيح، وافرحي إذ لم تحبلي³، فإن أهلك سيكونون أكثر من أهلي"⁴.

هذه من الله مخاطبة لمكة على ما يقتضيه مساق كلامه، ثم شبهها بالعاقر من النساء التي لم تلد، من حيث أن مكة لم يبعث منها نبي من بعد إسماعيل إلا محمداً ﷺ. ولا يجوز أن يكون العاقر بيت المقدس، لأنها كانت مقر الأنبياء.

وقوله: "فإن أهلك سيكونون أكثر من أهلي"⁵ يعني بأهله: أهل بيت المقدس⁶.

وفي صحفه أيضاً أنه قال حاكياً عن الله تعالى: "سأبعث قوماً فيأتون من المشرق أفواجاً، كالصعيد كثرة، ومثل الطيان الذي يدوس برجليه"⁷⁸.

وفيهما أيضاً أنه قال⁹ حاكياً عن الله: "قد أقسمت بنفسي كقسمي أيام الطوفان أن أغرق

1 "قال حاكياً عن الله تعالى: "سأبعث قوماً فيأتون من المشرق أفواجاً، كالصعيد كثرة، ومثل الطيان الذي يدوس برجليه". ومن ذلك". وردت في ك في هذا الموضع، أما في الأصل فقد وردت في مكان آخر. انظر الهامش الثامن من هذه الصفحة.

2 التي لم تلد، في الأصل: التي لم تلدي، وفي ك: التي لم تلد، وهذا هو الصواب.

3 وافرحي إذ لم تحبلي، في ك: وافرحي إن لم تحبلي.

4 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 54: 1.

5 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 54: 1.

6 يعني بأهله: أهل بيت المقدس، في ك: يعني بأهله: بيت المقدس.

7 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 41: 25.

8 "وفي صحفه أيضاً أنه قال حاكياً..... الذي يدوس برجليه"، وردت في ك في مكان آخر، انظر الهامش الأول من هذه الصفحة.

9 وفيها أيضاً أنه قال، في ك: وفي نفس النص أنه قال.

الأرض بالطوفان، كذلك أقسمت أن لا أسخط عليك¹ ولا أرفضك، وإن الجبال تزول² والقلاع تنحط، ورحمتي عليك لا تزول³. ثم قال⁴: "يا مسكينة! يا مضطهدة! ها أنذا بآن بالحص حجارتك، ومزينك بالجواهر، ومكلل باللؤلؤ سقفاً، وبالزبرجد أبوابك، وتبعدين من الظلم فلا تخافي، ومن الضعف فلا تضعفي. وكل سلاح يصنعه⁵ صانع لا يعمل فيك، وكل لسان ذلق يقوم معك بالخصومة تفلحين، ويسميك الله اسماً جديداً⁶. وكذلك كان اسمها الكعبة فسمها الله المسجد الحرام.

"فقومي فاشرفي⁷، فإنه قد وري زندك، ووقار الله عليك. انظري بنيك حولك فإنهم مجتمعون، يأتيك بنوك وبناتك عدواً⁸، فحينئذ تسرين⁹ وتزهرين، ويفزع عدوك، ويتسع قلبك¹⁰. وكل غنم قidar يجمع إليك¹¹ وسادات نباوث يخدمونك¹². وتفتح أبوابك الليل والنهار فلا تغلق، [163] ويتخذونك قبلة، وتدعين بعد ذلك مدينة الرب¹³.

فها هو عليه السلام¹⁴ قد وصف مكة بأوصافها التي لا تصح أن توجد في غيرها. ومن أبين ذلك وأدله، قوله: " وكل غنم قidar يُجمع إليك¹⁵ وسادات نباوث

1 أن لا أسخط عليك، في ك: ألا أسخط عليك.

2 وإن الجبال تزول، في ك: فإن الجبال تزول.

3 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 54: 9-10.

4 ثم قال، في ك: ثم قال في النص نفسه.

5 وكل سلاح يصنعه، في ك: وكل سلاح يعمل.

6 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 54: 11-17.

7 "فسماها الله المسجد الحرام. فقومي واشرفي، في ك: فسمهاها الله المسجد الحرام. وكذلك قوله: "بالخصومة تفلحين"،

إنما هو إشارة إلى كتاب الله الذي جاء به محمد رسول الله، الذي أفحم كل خصم وأسكت. وفي صحف إشعياء أيضاً: "فقومي واشرفي"، ورد هذا في الأصل في مكان آخر. انظر الهامش السادس في الصفحة الخمسين.

8 يأتيك بنوك وبناتك عدواً، في ك: يأتيك بنوك وبناتك على الأيدي.

9 فحينئذ تسرين، في ك: فحينئذ تنظرين.

10 وتزهرين، ويفزع عدوك، ويتسع قلبك، في ك: وتزهرين، ويخفق قلبك ويتسع.

11 وكل غنم قidar يجمع إليك، في ك: وكل غنم قidar تجتمع إليك.

12 وسادات نباوث يخدمونك، في ك: وسادات نباوث يخدمونك.

13 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 60: 1-5 و 60: 7 و 60: 11 و 60: 14.

14 المقصود هو نبي الله إشعياء عليه السلام.

15 وكل غنم قidar يجمع إليك، في ك: وكل غنم قidar تجتمع إليك.

يخدمونك¹،² وقيدار ونباوث³ ولدا إسماعيل، وأغنامهم هي التي تساق إلى مكة هدياً، وهم أهل مكة وخدام البيت، وليس بعد هذا بيان. وكذلك قوله: "ويتخذونك قبلة"⁴ وهذا بشارة بالنبي محمد عليه والسلام⁵، فإنها لم تتخذ قبلة إلا على عهده ﷺ. وكذلك قوله: "بالخصومة تفلجين"، إنما هو إشارة إلى كتاب الله الذي جاء به محمد رسول الله، الذي أفحم كل خصم وأسكت كل منطق⁶.

وكذلك قال إشعياء أيضاً في مواضع آخر من صحفه⁷: "ارفعي إلى ما حولك بصرك فستبتهجين، وتفرحين من أجل أن تميل إليك عساكر الأمم⁸، ويحج إليك عساكر الأمم⁹ حتى تعمرك قطار الإبل المؤبلة، تضيق أرضك عن القطارات التي تجمع إليك، وتساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ¹⁰، وتسير إليك أعلام قيدار، ويخدمك رجال نباوث¹¹"¹².

فاعتبر هذه الأوصاف البينة، والأعلام المتصلة الظاهرة التي لا توجد في بلد إلا في مكة، ولا يصح شيء منها أن يوجد في بيت المقدس ولا في غيرها.

وقال أيضاً عن الله: "أعطي البادية كرامة لبنان¹³، وبهاء جبل الكرمل"¹⁴. فالبادية مكة، ولبنان الشام وبيت المقدس.

1 وسادات نباوث يخدمونك، في ك: وسادات نبايوت يخدمونك.

2 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 60: 7.

3 قيدار ونباوث، في ك: قيدار ونبايوت.

4 لم يتم العثور على هذا النص في سفر إشعياء.

5 وهذا بشارة بالنبي محمد عليه والسلام، في ك: وهذا بشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام.

6 وكذلك قوله: "بالخصومة أفحم كل خصم وأسكت كل منطق، ورد هذا في مكان آخر في ك. غير أنه أهمل: كل منطق، انظر الهامش السابع في الصفحة التاسعة والأربعين.

7 وكذلك قال إشعياء أيضاً في مواضع آخر من صحفه، في ك: وقول إشعياء هذا في بعض التراجم هكذا.

8 وتفرحين من أجل أن تميل إليك عساكر الأمم، في ك: وتفرحين من أجل أنه تميل إليك ثروة البحر.

9 ويحج إليك عساكر الأمم، في ك: ويأتي إليك غنى الأمم.

10 ويأتيك أهل سبأ، في ك: ويسير إليك أهل سبأ.

11 ويخدمك رجال نباوث، في ك: ويخدمك رجال نبايوت.

12 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 60: 4-7.

13 أعطي البادية كرامة لبنان، في ك: أعطي البادية كرامات لبنان.

14 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 35: 2.

وقال على إثر ذلك: ".... وتشق في البادية مياض¹ وسواق في أرض الفلاة، وتكون الفيافي والأماكن العطاش ينابيع ومياه²، وتصير هناك محجة. وطريق الحرم لا تمر به أنجاس الأمم، والجاهل لا يضل هناك، ولا يكون به سباع ولا أسد، ويكون هناك من المخلصين³"⁴. وقال إشعياء أيضاً عن الله: "ها أنذا مؤسس بصهيون، وهو بيت الله حجراً مقره في زاوية مكرمة⁵، فمن كان مؤمناً فلا يستعجل⁶"⁷.

وهذا إخبار منه عن الحجر المقدس الأسود، الذي في الركن اليماني، وهو الحجر الذي أنزل الله من الجنة⁸، وكان أبيض فأسودَّ لأجل خطايا بني آدم. وصهيون: الجبل بلسانهم. فهذه دلائل واضحة، وشواهد راجحة، لا يعدل عنها إلا من حرم التوفيق. فاستدبر الطريق، ولا يتدبرها ويتفهم معانيها إلا من رافقه التوفيق، وساعده الفهم والتحقيق. فهذا ما رأينا أن نشته هنا من شواهد نبوته ﷺ من الكتب المتقدمة، وفيها [164] من الشواهد ما هو أكثر، يفهم في تلك الكتب⁹، قضى من عناد المخالفين العجب.

1 وتشق في البادية مياض، في ك: وتشق في البادية مياه.

2 والأماكن العطاش ينابيع ومياه، في ك: والأماكن العطاش ينابيع.

3 ويكون هناك من المخلصين، في ك: ويكون هناك ممر المخلصين.

4 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 35: 6-9.

5 مقره في زاوية مكرمة، في ك: مقره في زاوية مكة.

6 فمن كان مؤمناً فلا يستعجل، في ك: فمن كان مؤمناً فلا يتعجل.

7 نص مشابه لما ورد في سفر إشعياء، الاصحاح 28: 14.

8 وهو الحجر الذي أنزل الله من الجنة، في ك: وهو الحجر الذي أنزل الله من الجنة.

9 وفيها من الشواهد ما هو أكثر، يفهم في تلك الكتب، في الأصل: شطب على: من هذا، ومن وقف، على، في ك:

وفيها من الشواهد ما هو أكثر من هذا، ومن وقف بفهم على ما في تلك الكتب.

النوع الثاني

الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله ﷺ

فأول ذلك ما ظهر على أبيه عبدالله بن عبد المطلب، وذلك أنه لما أراد الله خلقه، وقرب وقته، ووحان خروج نطفته من صلب أبيه، جعل بين عيني أبيه نوراً¹، فكان يراه الرائي كغرة الفرس.

وقد ثبت في كتب نبوته² على ألسنة النقلة الثقات العدول الأثبات، الذين يدينون بتحريم الكذب، ويعتقدون وجوب الصدق، ولا تأخذهم في الله لومة لائم أن عبدالله بن عبد المطلب والد رسول الله ﷺ كانت له امرأتان، إحداهما آمنة³، أم رسول الله ﷺ، وامرأة أخرى. فعمل يوماً في طين لبناء بيته، فتعلقت به آثار من الطين. فمرَّ بتلك المرأة فدعاها لنفسه، فأبت لما كان عليه من الطين فخرج من عندها فاغتسل، وغسل ما به من أثر الطين. فدعته تلك المرأة إلى نفسها فأبى عليها، ثم خرج عامداً إلى آمنة، فدخل عليها فأصابها، فحملت بمحمد رسول الله ﷺ، ثم مر بامرأته تلك، فقال لها: "هل لك؟" قالت: "لا. إنك مررت بي وبين عينيك غرة مثل غرة الفرس، فدعوتك رجاء أن تكون لي⁴ فأبيت، ودخلت على آمنة، فذهبت بها".

ثم لما حملت به آمنة أمه، أتيت فقيل لها: "إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع على الأرض فقول: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً". ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام.

ولقد قالت أم عثمان الثقفية: "حضرت ولادة رسول الله ﷺ، فرأيت البيت حين وضع قد امتلأ نوراً، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها تستقع علي. ووُلِدَ ﷺ مختوناً".

1 جعل بين عيني أبيه نور، في ك: حمل بين عيني أبيه نور.

2 يعد كتاب السيرة النبوية لابن هشام أشهر الكتب التي تطرقت لسيرة رسول الله ﷺ، وهناك كتب أخرى لا تقل أهمية عنه ككتاب سيرة ابن إسحاق أو كتاب المبتدأ والخبر لابن إسحاق، كتاب الرسل والملوك للطبري، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض وغيرها.

3 هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف، من بني زهرة. هي والدة رسول الله محمد ﷺ، توفيت بالأبواء وهو ابن ست سنين. انظر ترجمتها في دائرة المعارف الإسلامية، ج I، ص 450.

4 رجاء أن تكون لي، في ك: رجاء أن يكون لي.

وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجد الحوامل من ثقل وألم ولا غير ذلك. ولما وضعت أمه، ووقع إلى الأرض¹ مقبوضة أصابع يده، مشيراً بالسبابة كالمسبح بها. وذكر ابن دريد أنه ألفت عليه جفنة لثلا يراه أحد قبل جده. فجاء جده والجفنة قد انفلقت عنه.

ثم لم يلبث عبدالله بن عبدالمطلب أبوه أن توفي، وأم رسول الله ﷺ حامل به. فكفله جده عبدالمطلب²، وقيل لجده: "لم سميت ابنك محمداً، وليس [165] هذا الاسم لأحد من آبائك وقومك؟" فقال: "إني لأرجو أن تحمده أهل الأرض كلهم"، وذلك أنه كان يرى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب. ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يعتلقون بها.

فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه³، يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء وأهل الأرض، فلذلك سماه محمداً ﷺ⁴.

قال حسان بن ثابت⁵ رضي الله عنه: "والله إني لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان سنين، أعقل كل ما سمعت⁶، إذ سمعت يهودياً على أطم يثرب، يصرخ بأعلى صوته، يقول: "يا معشر يهود" فلما اجتمعوا له، قالوا له: "ويلك! مالك!" قال: "طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به"⁷. ثم التمس له المراضع⁸، فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، اسمها: حليلة بنت أبي ذؤيب⁹.

1 ولما وضعت أمه ووقع إلى الأرض، في ك: ولما وضعت أمه، وقع على الأرض.

2 هو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، جد رسول الله محمد ﷺ وكافله بعد موت أمه آمنة. توفي سنة 45 قبل الهجرة، 579 م. انظر ترجمته في دائرة المعارف، ج I ص 82.

3 يكون من صلبه، في الأصل: يكون يصبه، ولا معنى لها هنا، وفي ك: يكون من صلبه، وهذا هو الصواب.

4 سماه محمداً ﷺ، في ك: سماه محمداً.

5 هو حسان بن ثابت بن المنذر من قبيلة الخزرج، كان شاعر الرسول ﷺ. توفي سنة 660/40 أو 670 / 50 أو 674 / 54. انظر ترجمته في دائرة المعارف، ج III ص 279 - 280.

6 أعقل كل ما سمعت، في ك: أعقل كل ما سمعته.

7 طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به، في ك: طلع الليلة نجم أحمد.

8 كان من عادة الناس بمكة البحث عن مرضعة خارجها تقوم بإرضاع صغيرهم حتى فطامه لأسباب عدة، منها رغبتهم في أن ينشأ نشأة سليمة وصحية لكون بيئة مكة ليست مناسبة لهم، وكذلك لرغبتهم في أن يتعلموا اللغة العربية من أهل البادية لكونهم أكثر فصاحة وبياناً.

9 هي حليلة السعدية بنت أبي ذؤيب، من قبيلة سعد بن بكر. كانت مرضعة الرسول ﷺ. توفيت بعد السنة الثامنة من الهجرة / 629. انظر ترجمتها في دائرة المعارف ج III ص 96-97.

قالت حليلة: "خرجت من بلدي مع زوجي¹، وابن لي² في نسوة من بني سعد نلتمس الرضعاء". قالت: "وفي سنة شهباء³ لم تُبق لنا شيئاً. قالت: فخرجت على أتان لي قمرء، معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة⁴، ولا ننام ليلنا⁵ مع صبينا من بكائه من الجوع، وما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا⁶ ما يغذيه، ولكننا نرجو الغيث والفرج. فلقد حبست الركب⁷ حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجباً حتى قدمنا مكة، نلتمس الرضعاء. فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد بن عبدالله، فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: "يتيم، فما عسى أن يصنع أمه وجده⁸"، فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري.

فلما أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبي: "والله إني لأكره⁹ أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذه". فقال: "افعلي! عسى الله أن يجعل الله لنا فيه بركة¹⁰". قالت: "فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره¹¹". قالت: "فلما أخذته رجعت به إلى رجلي، فلما وضعت في حجري أقبل على ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي. ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا أنها لحافل، فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا رياً وشبعاً. [166] فبتنا بخير ليلة".

1 هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي، زوج السيدة حليلة مرضعة الرسول ﷺ. كان يلقب بأبي كبشة، لهذا كان يلقب الرسول ﷺ بابن أبي كبشة. انظر ترجمته في: خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة 12، بيروت، دار العلم للملايين، 1997، ج II ص 156.

2 هو عبد الله بن الحارث.

3 سنة شهباء: سنة ذات قحط وجذب.

4 والله ما تبض بقطرة، في ك: والله ما تفيض بقطرة.

5 ولا ننام ليلنا، في ك: وما ننام ليلنا.

6 الشارف: الناقة.

7 فلقد حبست الركب، في ك: فلقد حبست الركب.

8 فما عسى أن يصنع أمه وجده، في ك: فما عسى أن تصنع أمه وجده.

9 والله إني لأكره، في ك: إني والله أكره.

10 عسى الله أن يجعل الله لنا فيه بركة، في ك: عسى الله أن يجعل فيه بركة.

11 إلا أنني لم أجد غيره، في ك: إلا أنني لم أجد غيره.

قالت: " يقول صاحبي حين أصبحنا: " تعلمي، والله يا حليلة، لقد أخذت نسمة مباركة". قالت¹: " والله إني لأرجو ذلك". قالت: " ثم خرجنا، فركبت أتانِي وحملته عليها معي. فوالله لقطعت بالركب ما يقدر علي شيء من همهم، حتى أن صواحي ليقلن لي: "يا ابنة أبي ذؤيب! ويحك، أربعي علينا. أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟"² فأقول لمن: "بلى، والله". فيقلن لي: "والله إن لها لشأناً".

قالت: " ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها. فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً³، فنحلب ونشرب. وما يحلب إنسان قطرة ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم: "ويلكم!⁴ اسرحوا حيث سرح⁵ راعي بنت أبي ذؤيب"، فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلته. وكان يشبُّ شاباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتين⁶ حتى كان غلاماً جفراً".

قالت: " فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: "لو تركت بني عندي حتى يغلط، فإني أخشى عليه وباء مكة". قالت: "فلم نزل بها حتى رده لنا".

قالت: " فرجعنا به. فوالله إنه بعد مقدمنا بشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: "ذاك أخي القرشي⁷، قد أخذه رجلان عليها ثياب بيض، فأضجعا فشقاً بطنه، فهما يسوطانه، يعني يخلطانه".

قالت: " فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه منتقعا وجهه⁸".

1 قالت، في ك: قلت.

2 أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها، في الأصل: أليست هذه أتانك التي خرجت، وفي ك: أليست هذه أتانك التي خرجت عليها. لقد أضفت "عليها" حتى يستقيم المعنى.

3 معنا شباعاً لبناً، في ك: شباعاً لبناً.

4 ويلكم، في ك: ويحكم.

5 اسرحوا حيث سرح، في ك: اسرحوا حيث يسرح.

6 فلم يبلغ سنتين، في ك: فلم يبلغ سنتيه.

7 ذاك أخي القرشي، في ك: ذلك أخي القرشي.

8 فوجدناه منتقعا وجهه، في ك: فوجدناه قائماً، منتقعا وجهه.

قالت: " فالتزمته، والتزمه أبوه"، فقلنا¹: " ما لك يا بني؟" قال: "جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني، فشقا بطني²، فالتمسا فيه شيئاً³ لا أدري ما هو". قالت: "فرجعنا به إلى خبائنا"⁴. فقال أبوه⁵: "يا حليلة! لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به".

[قالت] فاحتملناه⁶، فقدمنا به على أمه". فقالت: " ما أقدمكما به وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟"⁷. فقلت⁸: " قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين". قالت: " ما هذا شأنك؟ فاصدقيني خبرك". قالت: " فلم تدعني حتى أخبرتها". قالت: " أفتخوفت عليه الشيطان؟" قالت: " قلت: نعم". قالت: " كلا! والله ما للشيطان عليه سبيل⁹، وإن لبني لشأناً. أفلا [167] أخبرك خبره؟" قلت: " بلى"¹⁰. قالت: " رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم جبلت به¹¹، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف منه علي ولا أيسر منه¹². ووقع حين ولدته، وإنه لو اضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك، وانصرفي راشدة".

فكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه¹³، ينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته.

1 فقلنا، في ك: فقلنا له.

2 فشقا بطني، في ك: وشقا بطني.

3 فالتمسا فيه شيئاً، في ك: فالتمسا شيئاً.

4 الخباء: المنزل.

5 فرجعنا به إلى خبائنا. فقال أبوه، في ك: فرجعنا به إلى خبائنا. قالت: وقال لي أبوه.

6 [قالت]: فاحتملناه، في ك: أن يظهر ذلك به. قالت: فاحتملناه.

7 ما أقدمكما به، وقد كنت حريصة عليه، وعلى مكثه عندك؟، في ك: ما أقدمك به يا ظئر، وقد كنت حريصة عليه، وعلى مكثه عندك؟.

8 وعلى مكثه عندك. قلت، في ك: وعلى مكثه عندك. قالت: قلت.

9 ما للشيطان عليه سبيل، في ك: ما للشيطان عليه من سبيل.

10 قلت: بلى، في ك: قالت: قلت: بلى.

11 ثم جبلت به، في ك: ثم حملت به.

12 كان أخف منه علي ولا أيسر منه، في ك: كان أخف ولا أيسر منه.

13 في كلاءة الله وحفظه، في ك: في كلاءة الله تعالى وحفظه.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين، توفيت أمه آمنة¹. فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب. وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً². قال: "فكان رسول الله ﷺ يأتي، وهو غلام جفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه. فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: "دعوا ابني! فوالله إن له لشأناً". ثم يجلسه عليه معه³، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين، هلك عبد المطلب جده. فكان مع عمه أبي طالب⁴، فكان يحنو عليه ويحفظه.

فبينما هو عنده يوماً، إذ قدم مكة رجل عائف من أزد شنوءة⁵. وكان ذلك الرجل إذا قدم مكة، أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم، ويعتاف لهم ويتفرس. وكان ماهراً في ذلك، معروفاً به، مجرباً عليه الإصابة في ذلك. فأتاه أبو طالب به وهو غلام، قال: "فنظر العائف إلى رسول الله ﷺ، ثم شغله عنه شيء. فلما فرغ قال: "أين الغلام؟ علي به" فلما رأى أبو طالب حرصه عليه، غيبه عنه. فجعل يقول: "ويلكم! ردوا علي الغلام الذي رأيته آنفاً". فوالله ليكون له شأن".

ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام. فلما تهيأ للرحيل ضبث به رسول الله ﷺ، فرق له أبو طالب، وقال: "والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً". وكان يحبه حباً شديداً، فخرج به معه⁷.

1 توفيت آمنة بالأبواء، وهو مكان بين مكة والمدينة، بعد عودتها من زيارة قامت بها بصحبة الرسول ﷺ لإخوانها. انظر سيرة ابن إسحاق، تحقيق حميد الله، فاس، معهد الدراسات والأبحاث، 1976، ص 42.

2 من بنيه إجلالاً، في ك: من بنيه إجلالاً له.

3 ثم يجلسه عليه معه، في ك: ثم يجلسه معه على الفراش.

4 هو أبو طالب عم الرسول ﷺ ووالد علي رضي الله عنه، كفله بعد موت جده عبد المطلب، ووقاه شر الناس حين بدأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى دين الإسلام. انظر ترجمته في دائرة المعارف، ج I ص 157.

5 هي قبيلة من اليمن، يلقب أهلها هكذا لابتعادهم عن الخطايا. انظر أحمد بن عمر القرطبي: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق مجموعة من الأساتذة، الطبعة الأولى، دمشق وبيروت، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، 1996، ج I ص 397.

6 الذي رأيته آنفاً، في ك: الذي رأيت آنفاً.

7 كان الرسول محمد ﷺ ابن تسع سنين وقيل ابن اثني عشرة سنة. انظر أبا القاسم عبد الرحمن السهيلي: الروض الأثرف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، القاهرة، مكتبة الكلية الأزهرية، ج I ص 206.

فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له بحيرا¹ في صومعة له، وكان إليه علم النصرانية. ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب يصير إليه علم النصرانية لأجل كتاب فيها فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر. فلما نزلوا ذلك [168] العام ببخيرا، وكان كثيراً ما يَمُرُّون به قبل ذلك، فلا يعرض لهم ولا يكلمهم، حتى كان ذلك العام. فلما نزلوا قريباً من صومعته، صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك عن شيء رآه في صومعته. وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ من صومعته، وهو في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم. ثم أقبلوا، فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها. فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته²، وقد أمر بذلك الطعام فصنع. ثم أرسل إليهم فقال: "إني قد صنعت لكم طعاماً" فقال له رجل: "والله يا بحيرا! إن لك اليوم لشأناً. فما كنت تصنع هذا بنا، قد كنا نمر بك³ كثيراً، فما شأنك اليوم؟" فقال له بحيرا: "صدقت. قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً، فتأكلوا منه كلكم"⁴.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه⁵ في رحال القوم تحت الشجرة. فلما نظر بحيرا في القوم، ولم ير الصفة⁶ التي يعرف، ويجد عنده. قال: "يا معشر قريش! لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي". فقالوا له: "يا بحيرا! ما تخلف عنك أحد⁷ ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، هو أحدث القوم سنّاً⁸، فتخلف في رحالهم". قال: "لا تفعلوا! ادعوه، فليحضر هذا الطعام معكم"⁹.

فجاء وقد احتضنه رجل من القوم. فلما رآه بحيرا، جعل يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى

1 بحيرا، في الأصل: بحرياء، وفي ك: بحيرا، وهذا هو الصواب.

2 نزل من صومعته، في الأصل: نزل بصومعته، وفي ك: نزل من صومعته، وهذا هو الأرجح.

3 قد كنا نمر بك، في ك: وقد كنا نمر بك.

4 فتأكلوا منه كلكم، في ك: فتأكلون منه كلكم.

5 لحداثة سنه، في الأصل: بحدائة سنه، وفي ك: لحداثة سنه، وهذا هو الأرجح.

6 ولم ير الصفة، في ك: لم ير الصفة.

7 ما تخلف عنك أحد، في ك: ما تخلف عنكم أحد.

8 هو أحدث القوم سنّاً، في ك: وهو أحدث القوم سنّاً.

9 ادعوه، فليحضر هذا الطعام معكم، في ك: ادعوه، فليحضر هذا الطعام معكم.

أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته. حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرا، قال له ¹: "يا غلام! أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرني عما أسألك عنه"، وإنما قال له بحيرا ذلك، لأنه قد كان سمع قومه ² يحلفون بهما. فقال رسول الله ﷺ: "لا تسألني باللات والعزى ³، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما". فقال له بحيرا: "فبالله إلا ما أخبرني عما أسألك عنه" فقال له ⁴: "سل عما بدا لك".

فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره. فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة ⁵ بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده، وكان مثل أثر المحجم. ثم أقبل على عمه أبي طالب فقال: "ما هذا الغلام منك؟". قال: "ابني". قال: "ما هذا بابنك ⁶، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً". قال: "فإنه ابن [169] أخي". قال: "فما فعل أبوه؟" ⁷. قال: "مات، وأمه حبلى به". قال: "صدقت. فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود ⁸، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً. فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده".

فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته. ثم إن زريراً ⁹ وتماماً ودريساً، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رأى بحيرا

1 قال له، في ك: وقال له.

2 لأنه قد كان سمع قومه، في ك: لأنه كان يسمع قومه.

3 هما صنمان كان يعبدهما المشركون من دون الله وقد تم ذكرهما في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة النجم الآية 19: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾.

4 فقال له، في ك: قال له.

5 جاء في كتب الحديث أن خاتم النبوة يوجد بين كتفي رسول الله ﷺ وهو يشبه بيضة الحمام أو زر الحجلة. انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات خاتم النبوة وصفته ومحل من جسده، رقم الحديث 4327 وانظر سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في خاتم النبوة، رقم الحديث 3577.

6 ما هذا بابنك: في ك: ما هو بابنك.

7 فما فعل أبوه، في ك: ما فعل أبوه.

8 حين يذكر الإمام أحمد بن عمر القرطبي اليهود يكتب الكلمة من غير تعريف، "يهود" بدلاً من "اليهود"، ولعل السبب في ذلك هو تعود الأندلسيين على نطقها هكذا. انظر:

Federico Corriente: A Dictionary of Andalusí Arabic, Leiden, Brill, 1997, P:553.

9 ثم إن زريراً، في ك: فزعموا فيما يروي الناس أن زريراً.

في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب. فأرادوه، فردّهم عنه بحيرا وذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إنما أجمعوا¹ لما أرادوا به لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم² وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا.

فشبّ رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه من أقدار الجاهلية³ لما يريد به من كرامته ورسالته. حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تكراً وتنزهاً⁴، حتى ما اسمه في قومه إلاّ الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين⁵، وعُرفت أمانته، وصدق حديثه، وظهرت بركته، عرضت عليه خديجة بنت خويلد⁶ مالا ليخرجه به⁷ مسافراً إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة. فقَبِلَه رسول الله ﷺ منها، وخرج في ذلك المال، وخرج معه ميسرة⁸ حتى قدم الشام⁹. فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان. فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال¹⁰: "من هذا الرجل الذي تحت هذه الشجرة؟"¹¹. قال له ميسرة: "هذا رجل من قريش، من أهل الحرم". فقال له الراهب: "ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي".

1 وأنهم إنما أجمعوا، في ك: وأنهم إن أجمعوا.

2 لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم، في ك: لم يخلصوا إليه، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم.

3 يكلؤه الله ويحفظه من أقدار الجاهلية، في ك: والله تعالى يكلؤه ويحفظه، ويحوطه من أقدار الجاهلية.

4 تكراً وتنزهاً، في ك: تنزهاً وتكرماً.

5 فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين، في ك: فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة.

6 خديجة بنت خويلد أول امرأة تزوج بها الرسول محمد ﷺ، له منها سبعة أبناء هم زينب، أم كلثوم، فاطمة، رقية، القاسم، الطاهر، والطيب، توفيت في السنة الثالثة من الهجرة / 624. انظر دائرة المعارف، ج IV ص 930-931.

7 مالا ليخرجه به، في ك: مالا ليخرجه به.

8 هو ميسرة بن مسروق العبسي، صحابي جليل وواحد من التسعة الذين أتوا من بني عبس، شارك في معركة اليمامة وفي غزو الشام، توفي في 20 / 641. انظر ترجمته في الأعلام، ج VII ص 339.

9 حتى قدم الشام، في ك: حتى قدما الشام.

10 فقال، في ك: فقال له.

11 من هذا الرجل الذي تحت هذه الشجرة؟، في ك: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة. فكان ميسرة، إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو يسير على بعيره.

فلما قدم مكة على خديجة بالها، باعت ما جاء به بأضعف أو قريباً. وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعمّا كان يرى¹ من إضلال الملكين إياه. وكانت خديجة امرأة² حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامتها.

[170] فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها، بعثت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له: "يا ابن عم! إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسيطتك في قومك³، وحسن خلقك⁴، وصدق حديثك". ثم عرضت عليه نفسها.

وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً. كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه⁵. فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ، ذكر ذلك لأعمامه⁶، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب⁷ حتى دخل على خويلد بن أسد⁸، فخطبها إليه فتزوجها.

كانت خديجة بنت خويلد⁹ قد ذكرت لورقة بن نوفل¹⁰، وكان ابن عمها، وكان

1 وعمّا كان يرى، في ك: وعن ما كان يرى.

2 وكانت خديجة امرأة، في ك: وكانت خديجة رضي الله عنها امرأة.

3 وسطتك في قومك، في ك: ووسطك في قومك.

4 وحسن خلقك، في ك: وأمانتك وحسن خلقك.

5 لو يقدر عليه، في الأصل: لم يقدر، وفي ك: لو يقدر عليه، وهذا هو الصواب.

6 ذكر ذلك لأعمامه، في ك: ذكر لأعمامه.

7 هو حمزة بن عبد المطلب، أمه هي هالة بنت وهيب. عم الرسول ﷺ. كان من أشد المناصرين والمدافعين عنه بعد اعتناقه للإسلام. هاجر مع الرسول وشارك في معارك كثيرة منها معركة بدر. توفي في 3 / 624. انظر ترجمته في دائرة المعارف، ج III ص 156-157.

8 هو خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي، والد خديجة رضي الله عنها. انظر ترجمته في الأعلام، ج 2 ص 325.

9 كانت خديجة بنت خويلد، في ك: وقد كانت خديجة بنت خويلد.

10 هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة زوج الرسول ﷺ، اعتنق المسيحية بعد أن ترك عبادة الأصنام، واطلع على كثير من الكتب الدينية، توفي قبل إشراق الإسلام وكان ذلك حوالي 12 قبل الهجرة / 610. انظر ترجمته في الأعلام ج 8 / ص 114-115.

نصرانياً قد تتبع الكتب، وعَلِمَ من عِلْمِ الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرى منه إذا كان الملكان يظلاله¹. فقال ورقة: "لئن كان هذا حقاً يا خديجة، فإن محمداً لنبي هذه الأمة، قد عرفت² أنه كائن لهذه الأمة³ نبي ينتظر، هذا زمانه⁴.

فجعل ورقة يستبطن الأمر، ويقول: "حتى متى؟".

فلما تقارب زمان مبعثه، كثرت أحاديث الكهان عن نبوته والأخبار بذلك، فبشّر بقرب ظهوره جماعة من الكهان. وأما اليهود فكانت تكون بينها وبين العرب شرور وحروب أصابت العرب منهم⁵. فكانت اليهود تقول: "قد قرب زمان نبي يُبعث الآن⁶، نقتلكم معه قتل عاد وإرم". ثم لم يلبثوا حتى ظهر وعرفوه كما يعرفون أبناءهم. فلما بُعث، فمنهم من آمن به⁷، ومنهم من كفر به حسداً وعناداً كما فعلتم أنتم.

ولقد قدم المدينة نفر من اليهود يلتمسون هجرته إليها وكونه فيها. من ذلك ما يحكى عن ابن الهيثبان، خبر من أحبار اليهود، وممن كان ينتهي إليه علمهم، وكان فاضلاً في دينه، مجاب الدعوة ممن علم ذلك منه بكثرة تجربة ذلك. فقال لليهود يوماً: "ما ترون أخرجني من الشام⁸، أرض الخمر والخير⁹ إلى أرض البؤس والجوع؟". قالوا له: "أنت أعلم". قال: "فإني إنما قدمت¹⁰ هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجرة¹¹، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تسبقوا إليه يا معشر يهود¹²، فإنه يُبعث بسفك

1 وما كان يرى منه إذا كان الملكان يظلاله، في ك: وما كان يرى منه إذا كان الملكان يظلاله.

2 قد عرفت، في ك: وقد عرفت.

3 أنه كائن لهذه الأمة، في ك: أنه كان لهذه الأمة.

4 هذا زمانه، في ك: هذا زمانه، -أو كما قال-.

5 تكون بينها وبين العرب شرور وحروب أصابت العرب منهم، في ك: تكون بينها وبين العرب شرور وحروب، فربما أصابت العرب منهم.

6 قد قرب زمان نبي يبعث الآن، في ك: قد قرب زمان نبي سيبعث الآن.

7 فمنهم من آمن به، في ك: منهم من آمن به.

8 ما ترون أخرجني من الشام؟، في ك: ما ترونه أخرجني من الشام؟

9 أرض الخمر والخير، في ك: أرض الخمر والخمير.

10 فإني قدمت، في ك: فإني قدمت.

11 هذه البلدة مهاجرة، في ك: وهذه البلدة مهاجرة.

12 فلا تسبقوا إليه يا معشر يهود، في ك: فلا تسبقن إليه يا معشر يهود.

الدماء، وسبي الذراري والنساء. ممن خالفه¹، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بعث رسول الله ﷺ، وحاصر بني قريظة²، قال نفر من اليهود: "يا بني قريظة! والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن [171] الهيبان". قالوا: "ليس به". قالوا: "بلى. والله إنه لهو بصفته". فنزل نفر منهم وأسلموا³. ومثل هذا كثير.

ومن أوضح ذلك وأبينه، قصة سلمان الفارسي⁴. وذلك أنه كان قد تنصر⁵، وقرأ كتبكم، وبحث عن جماعة من أهل دينكم، أعني الذين كانوا متمسكين بدين المسيح. فلم يزل يبحث عنهم واحداً بعد واحد، ويخدمهم حتى تحضرهم الوفاة⁶. فكان الواحد منهم إذا حضرته الوفاة، وصّاه بأن يلحق بمن هو على مثل دينه وحاله، ويعينه له ويدله عليه، إلى أن وصل إلى عمورية إلى أرض الروم، إلى راهب نصراني كان هنالك.

قال سلمان: "فأقمت عند خير رجل، على هدي أصحابه⁷، يعني الذين كانوا دلوا عليه، إلى أن حضرته الوفاة. فقلت له: "يا فلان! إني كنت مع فلان، فأوصى بي إلى فلان⁸، ثم أوصى بي فلان إلى فلان⁹، ثم أوصى بي فلان إليك¹⁰. فإلى من توصي به أنت؟¹¹ وبما تأمرني؟¹² قال: "أي بني! والله ما أعلمه أصبح أحد على مثل ما كنا عليه¹³ من الناس أمرك

1 عن خالفه، في الأصل: فمن خالفه، وفي ك: ممن خالفه.

2 إحدى أهم القبائل اليهودية التي كانت تعيش بالمدينة، كان أهلها متشبهين بدينهم رغم زواج بعضهم من العرب واتباع تقاليدهم وعاداتهم. انظر تعريفاً مفصلاً عنها في دائرة المعارف، ج ٧ ص 438-439.

3 فنزل نفر منهم وأسلموا، في ك: فنزلوا وأسلموا.

4 سلمان الفارسي صحابي جليل، كان نصرانياً ثم اعتنق الإسلام لما أشرقت نوره. توفي سنة 36 / 656. انظر ترجمته في الأعلام ج 3 ص 111-112.

5 وذلك أنه كان قد تنصر، في ك: وذلك أنه كان تنصر. حسب ابن هشام وابن إسحاق، فسلمان الفارسي كان مجوسياً. انظر سيرة ابن هشام ج 2 ص 41 وسيرة ابن إسحاق ص 66.

6 حتى تحضرهم الوفاة، في ك: حتى يحضرهم الوفاة.

7 على هدي أصحابه، في ك: على هدي أصحابه وأمرهم.

8 فأوصى بي إلى فلان، في الأصل: فأوصا بي إلى فلان، وفي ك: فأوصاني إلى فلان.

9 ثم أوصى بي فلان إلى فلان، في ك: ثم أوصاني فلان إلى فلان.

10 ثم أوصى بي فلان إليك، في ك: ثم أوصاني فلان إليك.

11 فإلى من توصي به أنت، في ك: فإلى من توصي بي أنت.

12 وبما تأمرني؟، في ك: وبم تأمرني؟.

13 والله ما أعلمه أصبح أحد على مثل ما كنا عليه، في ك: والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه.

بأن تأتية¹، ولكنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب²، مهاجرة إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل³، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه ختم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل". قال: "ثم مات وغيب".

ولحق سلمان بالمدينة، الأرض التي عيّنت له⁴. فأقام هنالك حتى قدم عليه رسول الله ﷺ مهاجراً. فبحث عن تلك العلامات التي رسمت له، فوجدها كما رسمت له، فأمن به واتبعه وصدقه، وكان معه وعلى دينه إلى أن توفاه الله⁵، رضي الله عنه⁶.

ولو ذهبت إلى استقصاء مثل هذا لطال الكتاب.

فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً. فكان أول ما ابتدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب الله إليه الخلوة⁷، فكان ينقطع إلى الكهوف والغيران⁸، ويأوي إليها. فكان يخلو بغار حراء، وكان في ذلك لا يمر بحجر ولا شجرة إلا قال: "السلام عليك يا رسول الله"⁹، فالتفت رسول الله ﷺ حوله، عن يمينه وشماله وخلفه، فلا يرى إلا الشجر والحجارة تكلمه.

1 أمرك بأن تأتية، في ك: أمرك به أن تأتية.

2 إشارة إلى مكة.

3 إشارة إلى المدينة.

4 ولحق سلمان بالمدينة، الأرض التي عينت له، في ك: ولحق سلمان بالمدينة بالأرض التي عينت له.

5 إلى أن توفاه الله، في ك: إلى أن توفاه الله تعالى.

6 قصة إسلام سلمان الفارسي وردت في كتب السيرة النبوية بتفصيل. انظر في هذا سيرة ابن هشام ج 2 ص 41-49 وانظر أيضاً سيرة ابن إسحاق ص 66-71.

7 انظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن، باب قوله: "اقرأ وربك الأكرم"، رقم الحديث 4574 وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث 231.

8 فكان ينقطع إلى الكهوف والغيران، في ك: فكان ينقطع إلى الكهوف والجبال.

9 انظر سنن الترمذي كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله به، رقم الحديث 3559 وانظر

سنن الدارمي كتاب المقدمة، باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن، رقم الحديث 21.

فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل¹ عليه السلام [172] بها جاءه من كرامة الله وهو بحِجْرَاء في رمضان².

فمن ذلك الوقت³ ظهرت آياته، وعمت بركاته، وتنوَّلت رسالته معجزاته. وإذا ذلك جمع الله له كل خصال الكمال، وخصه بصفات الشرف والجلال. فلقد جمع الله له الكمال الظاهر والباطن بما جعل فيه من الفضائل والمحاسن.

وينبغي الآن أن يعرف الجاحد والجاهل بعض ما خص به من صفات الكمال والفضائل.

اعلم أن الكمال البشري ضربان: ظاهر وباطن، وكل واحد من هذين الضربين ضربان: ضرب يكون الإنسان مجبولاً عليه ولا اكتساب له فيه، وضرب يكون مكتسباً للإنسان، يحصل له بسعيه وتكسبه.

فقد انحصرت صفات الكمال في أربعة أقسام: كمال ظاهر ضروري، وكمال ظاهر مكتسب، وكمال باطن⁴ ضروري، وكمال باطن مكتسب.

وقد جمع الله هذه الأربعة الأصناف للنبي محمد ﷺ. ونحن نذكرها جملة، ثم نشرع بعد في التفصيل إن شاء الله⁵.

اعلم أننا نذكر من صفات كماله وجلاله المشهور، على شرط الاختصار⁶، خوفاً من التطويل والإكثار. ولو ذهبنا إلى الاستقصاء لعجزنا عن الإحصاء⁷، فمن ذلك: كمال خلقته، وجمال صورته، وفصاحة لسانه، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه، وقوة عقله، وصحة فهمه، ومتين علمه، وجميل صبره، وعظيم حلمه، وحسن تواضعه وعدله، وجزيل زهده وفضله، وعميم جوده وكرمه، ووثيق عهوده وذممه، ورائق سمته وأدبه، وطهارة ذاته ونسبه،

1 ثم جاءه جبريل، في ك: ثم جاء جبريل.

2 نزل الوحي على رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة. انظر سيرة ابن إسحاق ص 114.

3 فمن ذلك الوقت، في ك: ومن ذلك الوقت.

4 باطن، في الأصل: باطل، والصواب باطن، وفي ك: باطن.

5 إن شاء الله، في ك: إن شاء الله تعالى.

6 على شرط الاختصار، في ك: بشرط الاختصار.

7 لعجزنا عن الإحصاء، في ك: لعجزنا عن ذلك.

وعظيم شجاعته ونجدته، وكثير حياته ومروءته. وجملة أمره ﷺ أنه أكمل الناس خلافاً، وأفضلهم حالاً، وأعلمهم بحدود الله، وأخوفهم من الله.

فأما كمال خلقته وجمال صورته فشيء معلوم، لم يذهب أحد من أعدائه إلى خلاف ذلك، ولا استطاع أن ينسب إليه نقصاً ولا شيئاً في شيء من ذلك، لكن اعترف الكل بأنه كان أزهر اللون¹، أدعج²، يريد سواد العين³، أشكل⁴، أهدب الأشفار⁵، أفلج⁶، أزج⁷، أقنى⁸، مدور الوجه، واسع الجبين، كث اللحية تملأ صدره، موصول ما بين اللبة⁹ والسرّة¹⁰ بشعر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخّم العظام عبر العضدين¹¹ والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين¹²، سائل الأطراف¹³، أنور المتجرد¹⁴، دقيق المسربة¹⁵، مربوع القد¹⁶، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد¹⁷، ومع ذلك فلم يكن [173] بُيَاشيه أحد يُنسب إلى الطول إلا طاله. رجل الشعر، إذا افتر ضاحكا عن جُمان¹⁸ افتر عن مثل سنا

1 لكن اعترف الكل بأنه كان أزهر اللون، في ك: لقد اعترف الكل أنه كان أزهر اللون. انظر صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي ﷺ، ولين مسه والتبرك بمسحه، رقم الحديث 4299 وانظر مسند أحمد كتاب باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 12902.

2 يقال أدعج لمن سواد عينه أكثر سواداً وبياضها أكثر بياضاً، ويقال للمرأة دَعْجَاء.

3 أدعج، يريد سواد العين، في ك: أدعج العينين.

4 يقال أشكل وشكل لمن خالطت حمرة بياض عينه، ويقال عن المرأة شكلة وشكلاء.

5 أي طويل شعر أشفار العين.

6 يقال أفلج لمن يوجد تباعد ما بين أسنانه، ويقال عن المرأة فَلْجَاء. هذه الصفة وردت في سنن الدارمي كتاب المقدمة، باب في حسن النبي ﷺ، رقم الحديث 58.

7 يقال لمن حاجباه دقيقين وطويلين.

8 يقال لمن ارتفعت قصبه أنفه وضاق مَنْخَرَاهُ، ويقال عن المرأة قَنَوَاء.

9 موضع القلادة من العنق.

10 نقرة في وسط البطن.

11 ضخّم العظام عبر العضدين، في ك: ضخّم العظام والعضدين.

12 انظر صحيح البخاري كتاب اللباس، باب الجعد، رقم الحديث 5457.

13 ذو نظر ثاقب.

14 ذو جسد مضيء.

15 الشعر المستدق النابت وسط الصدر إلى البطن.

16 وسيط القامة.

17 انظر صحيح البخاري، كتاب الفضائل، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث 3283.

18 اللؤلؤ، مفردة جمانة. هنا إشارة إلى كون أسنان النبي ﷺ تشبه اللؤلؤ في جلالها.

البرق¹، وعن مثل حب الغمام². إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من ثناياه³، أحسن الناس عنقا، ليس بِمُطَهَّم⁴ ولا بِمُكَلَّم⁵، متماسك اللحم.

قال ناعته⁶: ما رأيت من ذي لِمَّة⁷ في حُلَّة⁸ حمراء⁹ أحسن منه¹⁰ ﷺ¹¹، كأن الشمس تجري في وجهه. وإذا ضحك يتلألأ في الجُدُر¹²، وأجمل الناس من بعيد، وأحسنهم من قريب¹³.

من رآه بديهة¹⁴ هابه، ومن خالطه معرفة أحبه¹⁵.

يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله¹⁶، طيب الرائحة والعَرَف¹⁷. ولقد كان ﷺ يعرف برائحته وإن لم يُرَ، ولقد كان يتطيب برائحته ويوضع في الطيب فيئُم أكثر منه. ولقد كان يضع

1 ضوء البرق.

2 حب الغمام: البرد.

3 انظر سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب في حسن النبي ﷺ، رقم الحديث 58.

4 المُطَهَّم: التام من كل شيء والمتناهي الحسن.

5 الممتلئ لحم الخدين والوجه.

6 هو البراء بن عازب. انظر القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق علي محمد، بيروت، دار الكتاب العربي، 1977 ص 84.

7 اللِّمَّة: ما وصل من شعر الرأس إلى شحمة الأذن.

8 يقصد بالحلَّة الثوب الجديد الجيد، غليظاً كان أو رقيقاً، كما يقصد بها البدلة، وكانت عند العرب تتكون من قميص وإزار ورداء.

9 ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء، في ك: ما رأيت أحداً في حلة حمراء.

10 في حلة حمراء أحسن منه، في ك: في حلة حمراء مرجلاً أحسن منه.

11 انظر صحيح البخاري كتاب اللباس، باب الجعد، رقم الحديث 5450 وانظر صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب في صفة النبي ﷺ وأنه كان أحسن الناس وجهاً، رقم الحديث 4308.

12 في الجُدُر، في ك: في الجِدَّة، ولا معنى لها هنا. والجدرج: جدار.

13 وأحسنهم من قريب، في الأصل: وأحسسته من قريب، وفي ك: وأحسنهم من قريب، وهذا هو الصواب. "أجل الناس من قريب وأحسنهم من بعيد" صفة وصفته ﷺ بها أم معبد. انظر الشفا للقاضي عياض، ص 84.

14 أول كل شيء، وتقال أيضاً لما يفجأ من الأمر.

15 هذه الصفة وصف بها علي كرم الله وجهه النبي ﷺ. انظر الشفا للقاضي عياض، ص 85.

16 انظر صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الجعد، رقم الحديث 5456.

17 طيب الرائحة والعَرَف، في الأصل: طيب الرائحة والعرق، وفي ك: طيب الرائحة والعَرَف، وهذا هو الصواب لورودها هنكذا في الحديث. انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث 3297، والعَرَف هو الرائحة مطلقاً، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها.

يده على رأس الطفل رحمة له، فكانت تنم عليه رائحة طيبة ﷺ.

ولقد اشتهر وصح أنه ﷺ بعد موته، طال مكثه في البيت قبل أن يدفن يومين وليلة في المشهور. وكان موته في شهر أيلول¹، ومع ذلك فلم يتغير له ريح²، ولا ظهر عليه شيء مما يظهر على الموتى، حتى كانت الصحابة تقول له³: "طبت حياً وميتاً"⁴.

ولقد روي أن أم سلمة⁵ قالت: "وضعت يدي على صدر رسول الله ﷺ وهو ميت، فمرت علي جُمع لا أكل ولا أتوضأ إلا وجدت ريح المسك من يدي".

فإن قيل: نسلم أنه كما وصفت. لكن، أي فضيلة لحسن الصورة الظاهرة؟ وأي مزية لها على غيرها؟ إذ رُبَّ قبيح المنظر حَسَن الفعل والمخير، ورب حَسَن الظاهر والمنظر قبيح الفعل والمخير.

فنقول: هذا الذي ذكرت ينذر ويقل، بل لا يبعد أن يقول قائل: لا يوجد كامل الصورة الظاهرة إلا وهو كامل الصورة الباطنة، إذ كلاهما إنما سببه، بحسب ما أجرى الله العادة، مزاج معتدل، فهما ثمرة مثمر واحد⁶. ولأجل هذا، والله أعلم، لم نسمع قط عن نبي من أنبياء الله تعالى أن الله خلقه⁷ ناقص الخلقة أو مشوهها، اللهم إلا قد طرأت على بعضهم آفات لأسباب شاءها الله تعالى مثل أيوب⁸ وغيره. وليس الكلام في الطارئ، وإنما الكلام في أصل الخلقة. ثم إن الحكماء والعلماء قد استدلوا بحسن الخلق على حسن الخلق، حتى أن

1 لا غرابة في أن يذكر الإمام أحمد بن عمر القرطبي أن وفاة النبي ﷺ كانت في شهر أيلول بدلاً من ذكر الشهر العربي، فكما أشرت في المقدمة فقد اطلع على كتاب الروض الأنف للسبهي، ولقد أشار هذا الأخير إلى هذا في الجزء 4 الصفحة 271 من كتابه.

2 فلم يتغير له ريح، في الأصل: فلم يتغير له ريح، والصواب هو الأول، لأن "ريح" مذكر، وفي ك: فلم يتغير له ريح.

3 حتى كانت الصحابة تقول له، في ك: حتى كانت الصحابة رضي الله عنهم تقول له.

4 هو علي بن أبي طالب من قال ذلك عن النبي ﷺ. انظر الشفا للقاضي عياض، ص 89.

5 هي هند بنت سهيل القرشي إحدى المهاجرات إلى الحبشة وإحدى زوجات النبي ﷺ، تزوج بها في السنة 4 / 625. توفيت في 12 / 634. انظر الأعلام ج 8 ص 97-98.

6 فيها ثمرة مثمر واحد، في ك: فيها ثمرتا مثمر واحد.

7 أن الله خلقه، في ك: أن الله تعالى خلقه.

8 توجد في القرآن الكريم إشارة إلى كون نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام مسه الضر، فدعا ربه فأزاله عنه. قال تعالى في سورة الأنبياء الآيات 83-84: ﴿وَأَتُوبُكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعِدْنَاهُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُنذَرِينَ ﴿٨٤﴾.

الحكماء قالوا: اقصدوا بحوائجكم¹ سماح الوجوه، فإنه أنجح لها، أو فإنه أحرى أن تقضى. وأيضا فإن الجمال والحسن محبوب بالطبع ومرغوب فيه، والقبح منفور عنه. ومقصود الله تعالى أن [174] يُحِبَّ الأنبياء وأن لا يُنْفَرَ منهم، والحسن موجب لذلك.

وأيضاً فإن صفة نبينا هذه هي صفة جده إبراهيم خليل الرحمن، حتى كأنه هو على ما ثبت من صفة إبراهيم في كتب الأنبياء عليهم السلام.

وأما فصاحة لسانه: فقد أطل من الفصاحة على كل نهاية، وبلغ من البلاغة كل غاية. فلقد أوتي ﷺ سلامة الطبع²، وبراعة المنزع، وعذوبة اللفظ، وحسن الإيراد، وجزالة القول، وصحة المعاني مع إيجاز اللفظ وقلة التكلف.

أوتي ﷺ جوامع الكلم³، وبدائع الحكم. فلقد كان يخاطب كل حي من أحياء العرب بلغتهم، ولم يكن يقتصر على لغة واحدة، مع أنه إنما نشأ على لغة بني سعد وقريش. وكان يعرف لغات غيرهم، حتى كانوا يتعجبون منه، ويقولون: ما رأينا بالذي هو أفصح منه. وهذا معلوم عند الفصحاء العرب العُرباء. ويقف على معرفة ذلك بالذوق والمشاهدة من كان عارفاً بلسان العرب ولغتهم، ووقف على شيء من كلامه معهم ومجاوبتهم.

وأما نسبه: فمعلوم لا يجهل، ومشهود لا ينكر. جده الأعلى إبراهيم، والأقرب عبدالمطلب، كابرأ عن كابر، وشريفاً عن شريف. فهم بين أنبياء فضلاء⁴، وبين شرفاء حكماء، وهذا كله مُسَلَّم لا يُمنَع، ومقبول لا يُدْفَع.

فهو ﷺ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً⁵، وذلك أن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل كما قد شهدت التوراة وغيرها بذلك⁶. واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاه ﷺ من بني هاشم⁷. فهو خيار من خيار من خيار. وكذلك الرسل صلى الله عليهم وسلم

1 اقصدوا بحوائجكم، في الأصل: اقصد بحوائجكم، وفي ك: اقصدوا بحوائجكم، وهذا هو الصواب.

2 فلقد أوتي ﷺ سلامة الطبع، في ك: فلقد أوتي ﷺ سلامة الطبع.

3 انظر صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث 812.

4 فهم بين أنبياء فضلاء، في ك: فهم بين أنبيائه فضلاء.

5 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث 3293.

6 وغيرها بذلك، في الأصل: وغيرها لذلك، وفي ك: وغيرها بذلك، وهذا هو الصواب.

7 انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه، رقم الحديث 4221.

تبعث في أشرف أنساب قومها صلى الله عليهم، ذلك ليكون أميل لقلوب الخلق إليهم والله أعلم.

وأما عزة قومه: فقد كانوا في جاهليتهم لم ينلهم سباء، ولا ظفرت بهم الأعداء¹، ولا دخلوا في أغلب أزمانهم تحت قهر غيرهم، بل كانوا قد حازوا الشرف الباهر، والمفاخر والمآثر. هم أوفر الناس عقولاً، وأقلهم فضولاً، وأفصح الناس مقالاً، وأكرمهم فعلاً. هم الشجعان الكرماء²، والحكماء الأدباء.

أما سفساف³ الأخلاق وذنيها⁴ فهم مبرءون عنها. وأما حُسْنُهَا وَعِلِّيُّهَا⁵ فهم أحرص الناس عليها والموصوفون بها. وكفى دليلاً على ذلك [175] ما عُلِمَ من حسن جوارهم⁶، وكريم عمودهم، وعميم بذلهم وجودهم. وكل هذا من أوصافهم معروف، والغالب منهم بذلك موصوف. وحق لقائلهم أن يقول:

لنا الشرف الذي يطأ الثريا مع الفخر الذي بهر العبادا

وأما أرضه: فناهيك من أرض⁷ أسس بنيتها إبراهيم الخليل⁸، وأمره بأن يدعو الناس⁹ إليها الملك الجليل. وتولى عمارتها والمقام بها النبي إسماعيل، وتوارثها الأشراف جيلاً بعد جيل.

وكفى بلدته شرفاً ما فعل الله بملك الحبشة الذي جاء لهدمها، فلما قرب منها وعزم على هدمها، ووجه فيه نحوها¹⁰، أرسل الله عليهم طيراً أشباه الخطاطيف، مع كل واحد منها ثلاثة أحجار: حجر في منقاره، وحجران في رجليه. فرمت الطير ذلك الجيش بتلك

1 ولا ظفرت بهم الأعداء، في ك: ولا ظفرت بهم أعداء.

2 هم الشجعان الكرماء، في ك: الشجعان الكرماء.

3 الرديء الحقير من كل شيء.

4 الدنيئة والدنيئة هي النقيصة.

5 العلي: الأعلى درجة.

6 ما علم من حسن جوارهم، في ك: ما علم من حسن جوارهم.

7 فناهيك من أرض، في الأصل: فناهيك بأرض، في ك: فناهيك من أرض، وهذا هو الصواب.

8 أسس بنيتها إبراهيم الخليل، في ك: أسس ببيتها إبراهيم الخليل.

9 إشارة إلى الحج لقوله تعالى في سورة الحج الآية 27: ﴿وَأَوِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

10 ووجه فيه نحوها، في ك: ووجه فيه عليها.

الحجارة¹، فكل من أصابه من تلك الحجارة شيء هلك مكانه. وأصاب ملكهم منها حجر فهلك بعد أن تنثر لحمه، وتساقط أنملة أنملة. ففرقوا في كل وجه، وأهلكهم الله كل هلاك، وبدد شملهم أي تبديد. وكل هذا معروف لا يُنكر، ومشهور لا يُجهل.

فهذه الأرض على محلّها² وجذبها³، وشطّف⁴ عيش أهلها خير البلاد عند ربها. دل على ذلك كلام الأنبياء والرسول، وما جاء من ذلك في متقدمي الكتب.

ولا يظن الجاهل أن خير بلاد الدنيا عند الله أكثرها خصباً، وأعظمها فاكهة وأباً⁵. فإن هذا ظن من ليس له نطق ولا فهم، وهمته ما يجعل في بطنه كالبهم⁶، بل خير البلاد عند الله ما كوّدت فيه المشقات التي توصل إلى ما عند الله من الدرجات، وكانت مع ذلك مما قدّس، وانتشرت منه الديانات. وكل ذلك في حق أرضه معلوم من جهة النبوات.

وسياي ما ذكر الله في مكة⁷ بلده عليه السلام على لسان أشعياء عليه السلام⁸.

وأما قوة عقله وعلمه: فلقد أوتي منها ما لم يؤته أحد، وأعطي منها⁹ ما لم يعطه والد ولا ولد. وكفى دليلاً على ذلك ما ظهر عليه من حسن السياسة، وأحكام أمور الرئاسة، والأخذ في العلوم العقلية من غير اكتساب شيء مما يحتاج إليه من المقدمات، حتى اتخذ أرباب كل علم كلامه في ذلك العلم أصلاً، يرجع إليه ويعول في صناعته عليه. فتارة يكون كلامه في بعض العلوم مُشِئاً مُمَهِّداً، وأخرى متمماً ومؤيداً.

وإن أردت أن تعلم ذلك علم اليقين، فتأمل تأمل اليقظين ما تضمنه من ذلك الكتاب

1 فرمت الطير ذلك الجيش بتلك الحجارة، في ك: فرمت الطير ذلك الجيش بتلك الجهات.

2 المَحَل: انقطاع المطر وبيس الأرض من الكلاء.

3 الجَدْب: بيس الأرض من الكلاء لانقطاع المطر.

4 الشَّطَف: الضيق والشدّة.

5 الأب: العشب الرطب واليابس.

6 البهم: م. البهمة وهو الصغير من الضأن.

7 وسياي ما ذكر الله في مكة، في ك: وسياي ما ذكر الله تعالى في مكة.

8 يشير علماء الأديان المسلمون إلى كون سفر إشعياء يحتوي على أدلة تدل على إثبات نبوة محمد ﷺ، ومن بينها ما ورد في الاصحاح 35: 1: "تفرح البرية والأرض اليابسة ويتهيج القفر"، فالأرض اليابسة هي مكة، والمقصود بها أنه لم يبعث منها نبي منذ إسماعيل عليه الصلاة والسلام. وفي الاصحاح 41: 25: "قد أنهضته من الشمال فأتى من مشرق الشمس يدعو باسمي".

9 وأعطي منها، في ك: وأعطي منها.

والسنة، فبها كثرت الخيرات¹ وعظمت الجِنة². فإنك تجدهما قد جمع له منها علوم الأولين [176] والآخرين، على اختلاف علوم العالمين من الرياضيات³ على اختلاف أوصافها، والإلهيات مع تعذرها على أكثر الأفهام واعتياصها، والسياسات على تشتت أوصافها.

أما الأمور المصلحية التي يعبر عنها بالقوانين الشرعية فيقضي العقلاء منها العجب. فإنه أطل منها على أعلى المراتب والرتب. وذلك أن أعمال شريعته ﷺ انقسمت إلى أمور تعبدية مثل الصوم والصلاة والحج وغير ذلك مما لا يدرك معانيها وحكمها إلا من أمده الله بتوفيق خاص، فنور بالمعارف باطنه، وزين بالأعمال ظاهره. وإلى أمور مصلحية يدرك معانيها الجفلى⁴ والجمهور من أهل الديانة الحنفية⁵.

ثم إنه اعتبر أصول مصالح العالم فأوجبها، واعتبر أصول مفاسد العالم وحرمها. وأصول المصالح إنما هي خمسة⁶: المحافظة على صيانة الدماء في أهبها، والأموال على ملاكها، والأنساب على أهلها، والعقول على المتصفين بها، والأديان التي بها عيش النفوس وزكاتها.

فأصول الشريعة، وإن تعددت صورها فهي راجعة إلى هذه الخمسة، إما بمرتبة واحدة أو بمراتب على ما يعرف في موضعه.

وأما الدماء، فحقنها بأن شرع أن من قَتَلَ يُقْتَل⁷، ومن جَرَحَ جُرِحَ⁸، ومن فقأ عين إنسان فُتِيت عينه⁹، وهكذا.

فإذا علم القاتل أنه يفعل به¹⁰ مثل ما يفعل انكف عن القتل، فحصلت حياة النفوس، وصيانة الدماء. ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179].

1 فيها كثرت الخيرات، في الأصل: فيها كثرت الخيرات، في ك: فيها كثرت الخيرات، ولعل الصواب هو هذا..

2 الجنة: الإحسان والإنعام.

3 من الرياضيات، في ك: من الرياضات.

4 الجفلى: الكثير من كل شيء، ومعناه هنا كثير من الناس.

5 من أهل الديانة الحنفية، في ك: من أهل الديانة الحنفية.

6 إنما هي خمسة، في الأصل: إنما هي خمس، في ك: إنما هي خمسة.

7 أن من قتل يقتل، في الأصل: أن من قتل قتل، في ك: أن من قتل يقتل.

8 ومن جرح جرح، في ك: ومن جرح يجرح.

9 هذا ما يسمى بالقصاص، ولقد تم ذكره في القرآن الكريم في سورة المائدة الآية 45 ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ أَنْفُسُ يَنْفُسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالْيَدُ بِالْيَدِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾.

10 فإذا علم القاتل أنه يفعل به، في ك: فإذا علم القاتل أن يفعل به.

ثم سَوَّى في القصاص بين الكبير والصغير، والشريف والمشروف، إشعاراً بأن مزايا الدنيا وفصائلها لا مبالاة بها عند الله، وأن الشرف إنما هو بالدين والتقوى. ولأجل هذا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: 13]. وقال عليه السلام: "الناس كأسنان المشط"، يريد بذلك أن الأحكام متساوية بينهم، وأنهم فيما شرع سواء.

وأما الأموال، فصانها على ملاكها بأن شرع قطع يد السارق للنصاب، وقتل المحارب، وغرم مثل المتلف أو المغصوب إن كان مما له مثل. فإذا علم السارق والمحارب¹ أنها يعاقبان بما يناسب جنائتهما، ارتدعا وانكفا، فانهفظت الأموال.

وأما العقول، فحرم استعمال ما يؤدي إلى تلفها وذهابها كالخمر. وذلك أن مناط التكليف العقل، وهو الذي به يُعرف الله تعالى، وهو الذي به تنتظم مصالح الدنيا والدين²، فإذا أذهبه الإنسان بالخمر وما في معناه، فقد تعرض لإسقاط التكليف وللکفر بالله [177] تعالى، بل لكل المفسد. ولأجل هذا، قال عليه السلام: "الخمر جماع الإثم، وأم الخبائث والكبائر"³. ولأجل هذا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٩٠] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]. ثم أكد الكف عن الخمر بأن شرع على شربه حدًّا⁴، هو ضرب بالسوط ليكون ذلك أبلغ في الردع والرجع.

وأما حفظ الأنساب وصيانة اختلاط المياه في الأرحام، فشرع النكاح، وحرّم السّفاح⁵، ليتسبب كل ولد لوالده، ويتميز الولي عن مضاده، ولينضاف كل إلى شيعته، وتحقق نسبته بقييلته⁶.

1 السارق والمحارب، في الأصل: السارق أو المحارب، في ك: السارق والمحارب، وهذا هو الصواب.

2 وهو الذي به تنتظم مصالح الدنيا والدين، في ك: وهو الذي ينتظم مصالح الدنيا والدين.

3 انظر سنن النسائي، كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر، رقم الحديث 5572.

4 حدّ شارب الخمر حسب بعض الأحاديث هو أربعون جلدة كما ورد في صحيح البخاري كتاب الحدود، باب ما جاء في ضرب شارب الخمر، رقم الحديث 6275 وانظر سنن الترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حدّ السكران، رقم الحديث 1362. وفي أحاديث أخرى هو ثمانون جلدة، انظر سنن الترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حدّ السكران، رقم الحديث 1363.

5 السّفاح هو معاشرّة المرأة من غير زواج، وهو الزنى.

6 وتحقق نسبته بقييلته، في ك: ويتحقق نسبته بقييلته.

ولأجل هذا، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]. ولو لم يكن ذلك لارتفع التعارف ولم يسمع، ولا تسع فتق¹ لا يرقع².

وأما المحافظة على الأديان وصيانتها، فهو المقصود الأعظم والمستند الأعصم، فحرّم الكفر والفسوق والعصيان، وأوجب الطاعات والإيمان، وأوجب قتل الكافر، وتوعده بالعذاب الدائم والهوان، ولا يخفى على من معه أدنى مُسَكَّة³ إذا تأمل بأدنى فكرة أن الإيمان بالله رأس المصالح والخيرات، والكفر رأس المقابح والهلكات.

ولأجل وجوب الإيمان وتحريم الكفران، أرسل الله الرسل وأنزل الكتب. ولأجل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: 56-58].

فهذه الأصول الخمسة بها يتم نظام العالم، وبأضدادها يخرب العالم، وبنظام العالم يتم نظام الأديان، وبنظام الأديان تحصل النجاة من عذاب النيران⁴ والفوز بنعيم الجنان مع رضى الرحمن.

فهذا بيان أنموذج من أصول السياسات الشرعية.

وأما الرياضيات⁵، فيكفيك منها مثال واحد من الطيبات، وذلك أنه عليه السلام قال: "المعدة بيت الداء، والحمية أصل الدواء، وأصل كل داء البردة"⁶. ولقد سمع بعض أطباء الهند هذا الكلام، فقال: "لم يترك نبيكم من الطب لأحد شيئاً" أو كلاماً هذا معناه.

وتتبع ما استفيد من جهته من العلوم بحر لا ساحل له، وليس هذا موضع استيفائه. ومقصود هذا الكلام، أن هذا النبي الرفيع⁷ عند الله، العظيم القدر لديه، كان أمياً منسوباً إلى ولادة [178] الأم. ومعنى هذه النسبة أنه بقي على ما كان عليه حين ولدته أمه⁸ أي لم يتعلم

1 الفَتَق: الشَّق والخلاف بين الجماعة وتصعد الكلمة.

2 ولا تسع فتق لا يرقع، في ك: ولا تسع خرق لا يرقع، والرقع معناه الإصلاح.

3 المُسَكَّة: العقل الوافر والرأي.

4 تحصل النجاة من عذاب النيران، في ك: يحصل النجاة من عذاب النيران.

5 وأما الرياضيات، في ك: وأما الرياضات.

6 وأصل كل داء البردة، وفي ك: وأصل كل داء البرد، والبردة هي التخمّة.

7 أن هذا النبي الرفيع، في ك: أن النبي الرفيع.

8 حين ولدته أمه، أغفلت في ك.

علماً من أحد ولا اكتسبه، ولا خط كتاباً يمينه. وهذا معروف من حاله عند المؤلف والمخالف¹، وربما كان إذا أراد أن يحسب شيئاً، عدّده بأصابعه، فكان يقول: "إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ. الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا"² يشير بيديه ثلاثاً³. "والشهر هكذا وهكذا وهكذا"⁴ ويخمس بإحدى أصابعه، يعني في الثالثة⁵.

ومع ذلك، فقد أوتي جوامع الكلم⁶، وبدائع الحكم، وعلوم الأولين. فأخبر عن القرون الماضية والأمم السالفة بأخبار هي حق عند أرباب العلوم، ولا ينازعه أحد منهم فيها. بل إذا سمعوها أذعنوا للتصديق بها ولم يكذبوه في شيء منها.

وكذلك أخبر عن الأمم الآتية، والوقائع المنتظرة أخباراً لا يُتَوَصَّلُ إليها باكتساب، وإنما ذلك بإعلام العليم الوهاب، فجاءت على نحو ما أخبر، وما به بشر وأنذر. وسيأتي من ذلك مواضع يتبين فيها ذلك إن شاء الله⁷. وهذا دليل من أدلة نبوته، لا يخفى على متأمل. وبالله التوفيق.

بل نقول: إنه ليس في القوة البشرية والحِجَلَة⁸ الإنسانية الوصول من العلوم والمعقولات إلى مثل ما وصل هو إليه، إذ قد علم أموراً لا يستقل العاقل بدركها⁹ وأخبر بها. وعند هذا يعلم أن ذلك بتوفيق إلهي ونور رباني.

ولأجل هذا، قال الله له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]. وأما صبره وحلمه، فيكفيك من ذلك أنه كُسرَت رِبَاعِيَّتُهُ¹⁰ يوم أحد، وشُجَّ¹¹

1 عند المؤلف والمخالف، في ك: عند الموافق والمخالف.

2 الشهر هكذا وهكذا وهكذا، في ك: الشهر هكذا وهكذا.

3 أي ثلاثين يوماً.

4 نفس الإشارة السابقة.

5 بمعنى تسعة وعشرون يوماً. انظر هذا الحديث في صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب، رقم الحديث 1780 وانظر أيضاً صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، رقم الحديث 1801 و 1803.

6 انظر صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث 812.

7 إن شاء الله، في ك: إن شاء الله تعالى.

8 الحِجَلَة: الأمة والخلفة.

9 لا يستقل العاقل بدركها، في ك: لا يستقل العقل بدركها.

10 الرِّبَاعِيَّة: السن بين الثَّنيَّة والنَّاب، وهي أربع رباعيَّات في الفك الأعلى ورباعيَّات في الفك الأسفل.

11 أي جُرِحَ في وجهه.

في وجهه¹. فشق ذلك على أصحابه، فقالوا له: "لو دعوت الله عليهم". فقال: "إني لم أبعث لَعَنًا، وإنما بعثت رحمة" ثم قال: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"².

فانظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقصر على السكوت عنهم حتى عفا، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم. ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: "لقومي"، ثم اعتذر عنهم لجهلهم، فقال: "فإنهم لا يعلمون"³.

وكذلك جاء أعراي⁴ جَلِيف⁵ جاف، وكان على النبي ﷺ بُرْدٌ⁶ غليظ الحاشية. فجذبته الأعراي بردائه جذباً شديداً، حتى أثرت⁷ حاشية البرد في صفحة عنقه. ثم قال: "يا محمد! احملني على بعيرين من مال الله⁸ الذي بيدك، فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك". فسكت النبي صلى الله عليه عليه [179] وسلم، وقال: "المال مال الله، وأنا عبده"، ثم قال له: "لم فعلت بي ما فعلت؟". قال: "لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة"⁹. فضحك رسول الله ﷺ، ثم أمر أن يُحمَل له على بعير شعير، وعلى آخر تمر¹⁰.

وكذلك قال له آخر¹¹: "اعدل يا محمد، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله". فقال له النبي ﷺ: "ويلك! إن لم أعدل أنا، فمن يعدل؟ أيا مني الله على خزائنه ولا تأمنوني؟"¹².

1 انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب المَجَن، رقم الحديث 2866.

2 انظر صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، رقم الحديث 3218.

3 فإنهم لا يعلمون، في الأصل، إنهم لا يعلمون، وفي ك: فإنهم لا يعلمون، وهذا هو الصواب لوروده هكذا في الحديث.

4 وكذلك جاء أعراي، في ك: وكذلك جاء أعراي.

5 الجَلِيف يقال عن الغليظ الجافي كما يقال عن الأحمق.

6 البُرْد: كساء مخطط يلتحف به.

7 أثرت، في الأصل: أثر.

8 احملني على بعيرين من مال الله، في ك: احملني على بعير من مال الله.

9 قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، في ك: قال: كأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة.

10 انظر هذا الحديث في صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، رقم الحديث 2916، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من أمر بفحش وغِلظة، رقم الحديث 1749.

11 هو حَرْقوص بن زهير، المعروف بذي الحَوَيْصرة التميمي. انظر الروض الأنف، ج 4 ص 169.

12 فقال له النبي ﷺ، في ك: فقال النبي ﷺ.

13 انظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم الحديث 4004.

وكذلك سحره لبيد بن الأعصم اليهودي¹، فأعلمه الله بسحره وحيث هو. فاستخرجه فبرئ². فقيل له: "ألا تقتله؟" فقال: "أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً"³. وكذلك قدمت إليه يهودية ذراع شاة مسمومة، فأكل منه النبي عليه السلام، فعافاه الله في ذلك الوقت من ضرر ذلك السم، فاستحضر المرأة وقال لها: "ما الذي حملك على ذلك؟". قالت: "أردت إن كنت كاذباً أرحت منك، وإن كنت صادقاً فلا يضرك"⁴ فعفا عنها⁵. وقد قال بعض أصحابه⁶: "ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط، ما لم تكن حرمة من محارم الله⁷، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادماً ولا امرأة"⁸.

وجيء إليه برجل، فقيل: "هذا أراد أن يقتلك". فقال له ﷺ: "لن ترع، لن ترع، ولو أردت ذلك لم تَسَلِّط علي".

وجاءه زيد بن سَعِيَّة⁹ يتقاضاه ديناً له عليه، فجذب ثوبه عن منكبيه، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له. فانتهره عمر وشدد له في القول، والنبي ﷺ يبتسم. فقال رسول الله ﷺ: "أنا

1 هو لبيد بن الأعصم أحد يهود بني زُرَيْق، سحر لرسول الله ﷺ في مُشْط ورمى ذلك في بئر ذي أُرْوان. انظر هذه الواقعة في صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السحر، رقم الحديث 4059.

2 فاستخرجه فبرئ، في ك: فاستخرجه الله فبرئ.

3 انظر صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السحر، رقم الحديث 4059 وانظر سنن ابن ماجه، كتاب الطب، باب السحر، رقم الحديث 3535.

4 وإن كنت صادقاً فلا يضرك، في ك: وإن كنت صادقاً لا يضرك.

5 انظر صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم الحديث 2424 وانظر صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السم، رقم الحديث 4060.

6 السيدة عائشة رضي الله عنها هي التي قالت هذا الكلام. انظر الشفا للقاضي عياض، ص 137.

7 ما لم تكن حرمة من محارم الله، في ك: ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى، انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث 3296 وانظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباحده ﷺ للأثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرمة، رقم الحديث 4296.

8 انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباحده ﷺ للأثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرمة، رقم الحديث 4296، وانظر سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في التجاوز في الأمر، رقم الحديث 4154.

9 زيد بن سَعِيَّة كان من أحجار اليهود قبل اعتناقه الإسلام، شارك في غزوات عدة مع الرسول ﷺ وتوفي في معركة تبوك. انظر ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق إبراهيم العجوز، بيروت، دار الفكر، 1978، ج 1 ص 548.

وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج: تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي"، ثم قال: "لقد بقي من أجله ثلاث". وأمر عمر يقضيه ما له، ويزيده عشرين صاعاً. فكان سبب إسلامه.

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن يأتي على حصرها هذا الكتاب. وعلى الجملة، فقد تواتر صبره على أذى قريش وسبه، وإخراجه من بلده، ونيل الأذى، حتى بلغوا منه مبلغاً لا يصبر عليه إلا من هو مثله. فلما أظفره الله بهم قال لهم: "ما تقولون أي فاعل بكم؟". قالوا: "خيراً. أخ كريم وابن كريم" فقال: "أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾" [يوسف: 92].

ولقد ثبت عنه أنه لما كذبه قومه، جاءه جبريل عليهما السلام، فقال: "إن الله قد [180] سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم". فناداه ملك الجبال، وسلم عليه، وقال: "مرني بما شئت. إن شئت أن أطبق عليهم¹ الأخشبين"². فقال ﷺ³: "أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً"⁴.

ولقد هبط ثمانون رجلاً من التنعيم⁵ صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ، فأخذوا⁶ فأعتقهم⁷. ومثل هذا كثير.

وعند هذا يتبين أنه ﷺ أحلم الناس عند المقدرة⁸، وأصبرهم على المكرهة⁹، وأنه امتثل أمر الله حيث قال له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، وحيث قال له تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13].

1 إن شئت أن أطبق عليهم، في ك: إن شئت أطبق عليهم.

2 الأخشبين: جبلين بمكة.

3 فقال ﷺ، في ك: فقال رسول الله ﷺ.

4 انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، رقم الحديث 2992، وانظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم الحديث 3352.

5 منطقة بين مير وسرف في اتجاه مكة. انظر الجُمَيْرِي: الروض المِغَطَّار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975، ص 138-139.

6 أي فتم القبض عليهم.

7 انظر سيرة ابن هشام، ج 4 ص 282.

8 أحلم الناس عند المقدرة، في الأصل: أحلم الناس عند مقدرة، وفي ك: أحلم الناس عند مقدرة.

9 وأصبرهم على المكرهة، في الأصل: وأصبرهم على مكرهة، وفي ك: وأصبرهم على مكرهته.

وأما تواضعه ﷺ على علو منصبه، ورفعة رتبته، فكان أشد الناس تواضعاً وأبعدهم عن كبر. وحسبك أن الله خيرّه بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً. فاختار أن يكون نبياً عبداً. فقال له إسماعيل عليه السلام عند ذلك: "فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له: أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق الأرض عنه، وأول شافع".

وقال أبو أمامة¹: "خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا، فقمنا له، فقال: "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يُعظم بعضها بعضاً"، وقال: "إنما أنا عبد، أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد".

وكان يركب الحمار ويردف خلفه²، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويحيب دعوة العبد³، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس.

وقال عليه السلام: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد. فقولوا: عبد الله ورسوله"⁴.

وجاءته امرأة فقالت: "إن لي إليك حاجة". قال لها: "اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت، أجلس إليك حتى أقضي حاجتك". فجلس إليها حتى فرغت من حاجتها⁵. وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل⁶ من ليف⁷، عليه إكاف⁸. وكان يدعى إلى خبز

1 هو القاسم بن الربيع بن عبد العزى أبو العاص. صحابي جليل تزوج زينب ابنة الرسول ﷺ. توفي سنة 54 / 674. انظر الأعلام، ج 5 ص 176.

2 انظر صحيح البخاري، كتاب الألبسة، باب الارتداف على الدابة، رقم الحديث 5507 وانظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ إلى الله وصبره على أذى المنافقين، رقم الحديث 3356.

3 ويحيب دعوة العبد، في ك: ويحيب دعوة العبيد.

4 انظر صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبل من الزنا إذا أحصنت، رقم الحديث 6328، وانظر مسند أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، رقم الحديث 313.

5 انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب قرب النبي عليه السلام من الناس وتبركهم به، رقم الحديث 4293، وانظر مسند أحمد، مسند المكثرين، رقم الحديث 11752.

6 على حمار مخطوم بحبل، في ك: على حمار ومخطوم بحبل.

7 اللِّيف: قشر النخل الذي يجاور السَّعَف، والمعنى هنا أن النبي ﷺ كان يقود حماره الذي كان يركب عليه بحبل من الليف.

8 الإكاف: البرذعة التي توضع على ظهر الحمار. انظر هذا الحديث في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الردف على الحمار، رقم الحديث 2765 وانظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ إلى الله وصبره على أذى المنافقين، رقم الحديث 3356.

الشعير والإهالة السنخة¹ فيجيب. وقد حجج، وكان عليه قَطِيفة² ما تساوي أربعة دراهم، هذا كله. وقد أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها³، وألقت إليه أفلاذ كبدها فلم يلتفت إليها ولا عَباً⁴ بها.

وكان ﷺ في بيته في مهنة أهله⁵: يفلي ثوبه⁶، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخْصِف نعله⁷، ويخدم نفسه، ويعلف ناضحه⁸، وَيَقْمُ البيت⁹، وَيَعْقِل البعير¹⁰، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، [181] ويطحن معها، ويحمل بضاعته من السوق. وكانت الأمة من إماء أهل المدينة تأخذ بيده فتنتقل به حيث شاءت من المدينة حتى تقضي¹¹ حاجتها¹².

ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة، فقال له: "هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد"¹³.

وقال أبو هريرة: "دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوازن: "زن وارجح" وذكر قصته¹⁴. قال¹⁵: فوثب إلى يد النبي ﷺ يقبلها، فجذب يده، وقال: "هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم".

ثم أخذ السراويل، فذهبت لأحمله، فقال: "صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله".

1 كل ما ائْتِدِم به كالشحم والزيت وغيرهما.

2 القطيفة: كساء غليظ له خَمْل. هذا الحديث تم ذكره في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الردف على الحمار، رقم الحديث 2765 وانظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ إلى الله وصبره على أذى المنافقين، رقم الحديث 3356.

3 الحذافير: ج. الحَذْفَار والحَذْفُور، أي الناحية والجانب.

4 عَباً: اهتم.

5 انظر صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، رقم الحديث 635.

6 قَلَى الثوب: بحث عما قد يكون فيه من قمل ونحوه.

7 خَصَف النعل: خرزه وأصلحه.

8 النَّاضِح: البعير.

9 قَمَّ البيت: كَنَسَه.

10 عقل البعير: ربطه.

11 حتى تقضي حاجتها، في ك: حتى يقضي حاجتها.

12 انظر سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، رقم الحديث 4167.

13 ابن امرأة من قريش تأكل القديد، في ك: ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.

14 وذكر قصته، في الأصل: وذكر قصة، في ك: وذكر قصته.

15 قال، في ك: فقال.

وأما عدله وصدقه ﷺ، وأمانته وصدق لهجته، فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان. اعترف بذلك محادوه وعُداته¹. وكان يسمى قبل النبوة الأمين، وذلك لما جعل فيه الله² من الأخلاق الصالحة.

ومما يدل على ذلك، أن قريشاً لما بنت الكعبة³، اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود موضعه، فحكموا بينهم أول داخل عليهم، فإذا بالنبي محمد ﷺ داخلا، فقالوا: "هذا محمد! هذا الأمين! قد رضىنا به"⁴، وذلك قبل أن يبعث.

ولقد اجتمع الأخنس بن شريق⁵ مع أبي جهل⁶ يوم بدر⁷، وكلاهما مخالف له وعدو له، قد أجمع على قتله وقتاله. فقال الأخنس لأبي جهل: "يا أبا الحكم! ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، فأخبرني عن محمد، أصادق أم كاذب؟". فقال أبو جهل: "والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط".

ولقد سأل هرقل أبا سفيان⁸، وهو على شركه ومخالفته. فقال له: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟". قال: "لا". فقال هرقل⁹: "قد أعلم أنه لم يكن يدع الكذب

1 العُدّة: ج. عُدُو.

2 لما جعل فيه الله، في ك: لما جعل الله فيه.

3 لما بنت الكعبة، في ك: لما بنت الكعبة.

4 انظر سيرة ابن إسحاق، ص 88.

5 هو أُبَيُّ بن شريق بن عمرو أبو ثعلبة. صحابي جليل اعتنق الإسلام يوم فتح مكة، شارك في غزوة حنين، توفي في 13 / 635. انظر صالح السيد: معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي، دار العلم للملايين، 1990، ص 23-24.

6 هو عمرو بن هشام بن المغيرة، أحد أشد أعداء رسول الله ﷺ، قتل في غزوة بدر. انظر دائرة المعارف، ج I ص 118-119.

7 غزوة بدر كانت في السنة الثانية من الهجرة / 624، وهي أول غزوة ينتصر فيها المسلمون على أعدائهم رغم قلة عددهم. هذا الانتصار كان بفضل مشاركة الملائكة إلى جانب المسلمين، وهذه معجزة في حق الرسول ﷺ. انظر:

Sourdél, Dominique et Jannie: Dictionnaire historique de l'Islam, 1^{ère} ed, Paris, Presse Universitaires de France, 1996, P.132.

8 هو أبو سفيان بن حرب بن أمية، من كبار تجار مكة وواحد من أشرافها، وكان كبير قبيلة عبد شمس ومن أعداء محمد ﷺ قبل الهجرة. اعتنق الإسلام وعُيِّنَ والياً على نجران. توفي في 32 / 653. انظر دائرة المعارف، ج I ص 155-156.

9 فقال هرقل، في ك: قال هرقل.

على الناس¹ ويكذب على الله".

وقال النضر بن الحارث² لقريش، وهو عدوه ومخالفه: "قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً³، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدْغِهِ⁴ الشيب، وجاءكم بها جاء به، قلتم: إنه كذاب وإنه ساحر. لا! والله ما هو بساحر ولا بكذاب".

فهذا كان حاله، يعترف أعداؤه⁵ بمناقبه، ولا يقدرّون على إنكار شيء من فضائله.

من أدل دليل على عدله، وعظيم تواضعه وفضله، أنه كان قد انتهى به الأمر إلى أن تهايه الملوك، وتفرق منه الجبابرة. ومع ذلك، فإنه كان يوفي كل ذي حق حقه، ويعرف لذي الفضل فضله، حتى كان يقول: "إني أريد أن ألقى الله تعالى⁶ وليس أحد منكم⁷ [182] يطالبني بمظلمة في أهل ولا مال".

ولأجل ذلك، أقاد عكاشة بن محصن⁸ من نفسه، وذلك أنه ﷺ ضربه بقضيب في ظهره غير قاصد لضربه. فقال له عكاشة: "إنك قد أوجعتني، فأقدي، معناه مكّني منك حتى أضربك كما ضربتني"⁹. فكشف له ظهره¹⁰ وناولوه القضيب، وقال: "اضرب". فأكب¹¹ عكاشة على ظهره يُقبّله، وقال: "إنما أردت أن يمَسَ جلدي جلدك".

والأخبار في هذا أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب.

وأما زهده ﷺ، فلقد كان أزهد الناس وأورعهم. وحسبك شاهداً على ذلك ما عُلم من حاله ﷺ، وذلك أنه أعرض عن الدنيا وزهرتها، ولم يلتفت إلى شيء منها مع إقبالها عليه

1 يدع الكذب على الناس، في الأصل: يدع الكذب الناس، وفي ك: يدع الكذب على الناس وهذا هو الصواب.

2 هو النضر بن الحارث بن علقمة، كان واحداً من بين أغنياء قريش قبل الإسلام، كان شديد العداوة للرسول ﷺ لدرجة أنه اتهمه بكون ما أتى به الرسول ﷺ ما هو إلا أساطير الأولين. انظر دائرة المعارف، ج VII ص 874.

3 الحدث: الصغير السن.

4 الصُدْغ: جانب الوجه من العين إلى الأذن.

5 يعترف أعداؤه، في ك: فاعترف أعداؤه.

6 إني أريد أن ألقى الله تعالى، في ك: إني أريد أن ألقى الله.

7 وليس أحد منكم، في ك: وليس لأحد منكم.

8 صحابي جليل شارك في كل الغزوات إلى جانب الرسول ﷺ. توفي في 12 / 633. انظر الأعلام، ج 4 ص 244.

9 أضربك كما ضربتني، في ك: أضربك مثلما ضربتني.

10 فكشف له ظهره، في ك: فكشف له عن ظهره.

11 أكب: أقبل.

وسياقتها إليه. وذلك أن الدنيا سيقت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها. وهو مع ذلك، لا يعرج عليها، ولا يلتفت إليها إلى أن مات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله¹. وهو يدعو ويقول: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا"²، ويقول: "اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في جملة المساكين"³.

ولقد صحت الأخبار عنه أنه ما شبع ثلاثاً تباعاً حتى مضى لسبيله⁴. ولقد رُوي أنه ما شبع من خبز الشعير يومين متواليين⁵، وما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً. وما ترك إلا بغلته وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة⁶. وكان يقول: "ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً، تمضي ثالثة⁷ وعندي منه ديناراً إلا شيئاً أرصده⁸ لدين"⁹.

ولقد قال ﷺ: "عرض علي ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً. قلت: لا يا رب، بل أجوع يوماً، وأشبع يوماً. فإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك، وإذا شبعت شكرتك ومحمدتك". ولقد حكى عنه جماعة من أصحابه¹⁰ أنه كان يبيت هو وعياله الليالي المتتابعة طاوياً¹¹، لا يجدون عشاء.

-
- 1 انظر صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة، رقم الحديث 1926 وانظر صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب الرهن وجوازه في الحضرة كالسفر، رقم الحديث 3007.
 - 2 انظر صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، رقم الحديث 1747 وانظر سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله، رقم الحديث 2284.
 - 3 انظر سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء، رقم الحديث 4116.
 - 4 انظر صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب قول الله تعالى: "كلوا من رزقناكم"، رقم الحديث 4955 وانظر صحيح مسلم، كتاب الزهد، رقم الحديث 5286.
 - 5 انظر صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، رقم الحديث 4994.
 - 6 انظر صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا، رقم الحديث 2534، وانظر سنن النسائي، كتاب الأقباس، رقم الحديث 3538.
 - 7 تمضي ثالته، في ك: يمضي ثالته، بمعنى تمضي ثلاث ليال.
 - 8 أي أعده.
 - 9 انظر صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب ما أدَّى زكاته فليس بكنز، رقم الحديث 1319 وانظر صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكنازين للأموال والتغليظ عليهم، رقم الحديث 1656.
 - 10 هو عبد الله بن عباس الذي روى هذا الحديث، انظر الشفا للقاضي عياض، ص 182.
 - 11 طاوياً أي جائعاً.

وقال أنس¹ خادمه: "ما أكل رسول الله ﷺ على إخوان² ولا في سُكْرَجَة³، ولا خُبْز له مُرَقَّق⁴، ولا رأى شاة سَمِيطاً⁵ قط⁶".

ودخل عليه عمر بن الخطاب، فوجده مضطجعاً على رمل حصير قد أثر في جنبه، قال عمر: "فنظرت في بيته فلم أر فيه شيئاً. فبكيت لما رأيت برسول الله ﷺ من الحاجة والفاقة. فقال: "ما شأنك يا ابن الخطاب؟". فقلت: "يا رسول الله! ذكرت كسرى وقيصر وما أعطاهما الله"⁸. فقال: "أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أما ترضى أن تكون لهم⁹ [183] الدنيا ولنا الآخرة؟"¹⁰.

وقالت عائشة: "لم يمتلئ جوف نبي الله شعباً قط، ولم يبت شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى"¹¹، وإن كان ليظل جائعاً يلتوي طول ليله من الجوع، فلا يمنعه صيام يومه. ولو شاء سأل ربه كنوز جميع الأرض وثارها ورغد عيشها.

ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك". فيقول: "يا عائشة! مالي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على

1 هو أنس بن مالك، صحابي جليل وخادم الرسول ﷺ. يعد من بين الرواة الذين رووا أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ. توفي في 91 أو 93 / 709 أو 711. انظر دائرة المعارف، ج I ص 496.

2 الإخوان: ما يؤكل عليه كالمائدة.

3 سُكْرَجَة: إناء صغير. هذا الحديث وُرد في صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الخبز المرقق والأكل على الإخوان والسفرة، رقم الحديث 4966-4967، وانظر سنن ابن ماجة، كتاب الأطعمة، باب الأكل على الإخوان والسفرة، رقم الحديث 3283.

4 المُرَقَّق: الخبز الواسع الرقيق.

5 السَمِيط: المشوي.

6 شاة سَمِيطاً قط، في ك: شاة عبيطاً قط.

7 انظر صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الخبز المرقق والأكل على الإخوان والسفرة، رقم الحديث 4966-4967، وانظر مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 11848.

8 وما أعطاهما الله، في ك: وما أعطاهما الله تعالى.

9 أما ترضى أن تكون لهم، في ك: أما ترضى أن تكون لهما.

10 انظر صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال الناس وتخيرهن، رقم الحديث 2704، وانظر سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التحريم، رقم الحديث 3240.

11 أحب إليه من الغنى، في الأصل: أحب إليه من الغناء، وفي ك: أحب إليه من الغناء، والصواب هو الأول، لكون الفاقة ضد الغنى، أما الغناء فشيء آخر لا علاقة له بموضوعنا.

رهبهم فأكرم مآبهم¹ وأجزل ثوابهم، فأجذني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصرني غداً دونهم، وما من شيء² هو أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي". قالت: "فما أقام بعد ذلك إلا شهراً حتى توفي صلوات الله عليه".

ولقد شكّا إليه بعض أصحابه الجوع، وكشف له عن بطنه عن حَجَرٍ³، فكشف له رسول الله ﷺ عن بطنه عن حَجَرَيْنِ ﷺ تسليماً.

وهذا معلوم قطعاً من أحواله، لا يقدر على جحده أحد من أعدائه ولا أوليائه.

وأما كثرة جوده وكرمه، فشيء معروف من شيمه. فلقد تواتر أنه كان أكرم الناس وأجودهم، حتى أنه ما سُئِلَ قط شيئاً فمنعه إذا كان ذلك الشيء⁴ المسؤول مما لا يُمنَعُ شرعاً.

قال ابن عباس⁵: "كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان⁶، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة⁷".

ولقد سأله رجل⁸، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع ذلك الرجل إلى قومه، فقال: "أسلموا. فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة"¹⁰.

وأعطى أناساً كثيرين مائة مائة من الإبل¹¹، وأعطى صفوان¹² مائة ثم مائة. وأعطى

1 فأكرم مآبهم، في ك: فأكرمهم مآبهم.

2 وما من شيء، في ك: وما شيء

3 كان من بين المسائل التي يقوم بها الجائع للتخفيف من شدة الجوع ربط حجر حول بطنه.

4 إذا كان ذلك الشيء، في ك: إذا كان الشيء.

5 قال ابن عباس، في ك: قال ابن عباس رضي الله عنه. هو عبد الله بن عباس أبو العباس، صحابي جليل شارك في غزوات عديدة

وروى أحاديث عديدة عن الرسول ﷺ. توفي في 68 / 686. انظر دائرة المعارف، ج I ص 41-42.

6 وأجود ما يكون في شهر رمضان، في ك: وأجود ما يكون في رمضان.

7 الريح المرسلة: الريح السريعة التي يعم نفعها.

8 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث 3290، وانظر صحيح مسلم، كتاب

الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة، رقم الحديث 4268.

9 هو صفوان ابن أمية، انظر الشفا للقاضي عياض، ص 145.

10 انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا، رقم الحديث 4275، وانظر

مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 12328.

11 انظر سيرة ابن هشام، ج 5 ص 169.

12 هو صفوان بن أمية بن خلف القرشي، صحابي جليل وأحد أشراف قريش قبل وبعد الإسلام. اعتنق الإسلام بعد

فتح مكة وشارك في معركة اليرموك، وتوفي في 41 / 661. انظر الأعلام، ج 3 ص 205.

العباس¹ من الذهب ما لم يُطَق حمله. وسيق له ﷺ تسعون ألفاً، فوُضِعَتْ على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منه.

وكان ﷺ لا يرد سائلاً جاءه²، وربما كان السائل لا يجد عنده شيئاً فيأخذ له بالدين، ويعطيه السائل حتى يقضيه النبي ﷺ.

ولقد جاءه رجل فسأله، فقال: "ما عندي شيء، ولكن ابتع علي بدين، فإذا جاءنا شيء قضيناه". فقال له عمر: "ما كلفك الله ما لا تقدر عليه". فكره رسول الله ﷺ ما قال له عمر³. فقال له رجل من الأنصار⁴: "يا رسول الله! أنفق ولا تخف [184] من ذي العرش إقللاً". فتبسم وعرف بشر ذلك القول في وجهه، وقال: "بهذا أمرت".

ولقد كان ﷺ يقبل الهدية وإن لم يحتج إليها، ويثيب عليها بأضعافها. روي أن معاذ بن عَفْرَاء⁵ أهدى للنبي ﷺ طبقاً فيه رُطْب⁶ وقِسَاء⁷، فأعطاه النبي ﷺ ملء كفه حلياً وذهباً⁸.

وكان ﷺ لا يدخر ثميناً آخره لنفسه⁹. وقد ثبت عنه أنه كان يقول: "ما يسرني أن عندي مثل أحد¹⁰ ذهباً، تمضي علي¹¹ ثلاثة، وعندي منه دينار إلا شيئاً أرصده لدين"¹². وما سيق له

1 هو العباس بن عبد المطلب أبو الفضل، عم الرسول ﷺ. اعتنق الإسلام قبل الهجرة إلى المدينة، وكان من بين الذين شاركوا في غزوة حنين وفي فتح مكة. توفي في 32 / 653. انظر دائرة المعارف، ج I ص 9.

2 انظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، رقم الحديث 5574، وانظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا، رقم الحديث 4275.

3 ما قال له عمر، في ك: ما قاله عمر.

4 فقال له رجل من الأنصار، في ك: فقال رجل من الأنصار.

5 هو معاذ بن الحرث بن سواد الأنصاري، المشهور بابن عَفْرَاء، شارك في غزوة بدر وكان من بين الذين قتلوا أبا جهل. توفي في نفس الغزوة متأثراً بجراح أصيب بها. انظر الإصابة، ج 3 ص 408.

6 الرُطْب: ثمر النخل قبل أن يصبح تمراً.

7 القِسَاء: الحيار.

8 حلياً وذهباً، في ك: ذهباً وحلياً.

9 لا يدخر ثميناً آخره لنفسه، في ك: لا يدخر شيئاً لغده لنفسه.

10 ما يسرني أن عندي مثل أحد، في الأصل: ما يسرني أن عند مثل أحد، وفي ك: ما يسرني أن عندي مثل أحد، وهذا هو الصواب، لأنه هكذا ورد في الحديث.

11 تمضي علي ثلاثة، في ك: يمضي علي ثلاثة.

12 انظر صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب ما أدَّى زكاته فليس بكنز، رقم الحديث 1319 وانظر صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكنازين للأموال والتغليظ عليهم، رقم الحديث 1656.

قط شيء يُقسَم، ذهباً كان أو غيره إلا أمر بقسمه، ولم يبت عنده.

وهذا كان المعروف¹ من خُلُقِه قبل مبعثه، وكان هذا معروفاً عند قومه الذين نشأ فيهم، حتى لقد قال له ورقة بن نوفل، وكان امرئاً تنصر، وقرأ الكتب العبرانية. وكان قد تظن واستشعر بنبوته عليه السلام، لما رأى من العلامات التي علمها من الكتب المتقدمة. فقال له: "إنك لتحمل الكل²، وتُقرّي الضيف³، وتُكسب المعدم⁴، وتعين على نوائب الحق⁵".

وهذا كله من أخلاقه معروف حاصل، لا يتارى فيه⁷ منصف عاقل.

وأما وفاؤه بالعهد، فلا يتارى فيه إلا خسيس⁸ وغد⁹. فقد كان ﷺ أحفظ الناس بعهد، وأوفاهم بميثاق ووعد، وأحسنهم جواراً، وأصدقهم قولاً وأخباراً.

روي عن عبد الله بن أبي الحَمَساء¹⁰ أنه قال: "بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيت له بقية، فوعده أن آتبه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه. فقال: "يا فتى! لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك" وذلك للميعاد الذي كان بينهما.

وكان المعلوم من سيرته ﷺ أنه كان يعقد العهود والمواثيق بينه وبين عُدائه¹¹ وغيرهم، فيفي بها ويؤذهم بانقضائها عند تمامها، ولم يغدر قط في شيء منها. ولقد كان هذا معروفاً عند أعدائه كما هو معروف عند أوليائه.

1 وهذا كان المعروف، في ك: وهكذا كان المعروف.

2 الكل: العاجز الفقير الذي يحتاج لمن يعوله.

3 تُقرّي الضيف: تحسن ضيافته.

4 وتكسب المعدم، في ك: وتكسب المعدوم، والمُعْدِم هو المفلس والفقير جداً.

5 النوائب: المصائب.

6 انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث 3، وانظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث 231.

7 لا يتارى فيه: لا يشك فيه.

8 الخسيس: التافه.

9 الوغد: الدنيء.

10 عبد الله بن الحَمَساء صحابي جليل، يقال عنه أنه من بين الأوائل الذين صدّقوا نبوة محمد ﷺ وآمنوا به. انظر الإصابة، ج 2 ص 290.

11 عُدائه: أعدائه.

ولقد روي أن هرقل ملك النصارى لما سأل كفار قريش عن صفات النبي ﷺ قال: "فهل يغدر؟" قالوا له: "لا". فقال لهم: "كذلك الرسل لا تغدر"¹. وكيف يغدر ﷺ، وهو قال: "يُنْصَب لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به. يقال: هذه غدره فلان"².

ولقد [185] جاءه المُغيرة بن سُعبة³ مسلماً، وجاء معه بهال قوم من الجاهلية كان قد صحبهم، ثم قتلهم وأخذ أموالهم. فقال له النبي ﷺ: "أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلستُ منه في شيء"⁴، ولم يقبله⁵.

وقال ﷺ، وقد عرض له بعض أصحابه بغدر المشركين: "لنستعد لهم"⁶، ونستعين الله عليهم".

وفي خبر الجُلندي ملك عمان، لما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام، قال الجُلندي⁷: "والله لقد دلني على أن هذا نبي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يَظْطِرُّ⁸، ويُغلب فلا يضجر، وفيه باليهود، وينجز الموعد. أشهد أنه نبي"⁹.

يا هذا! تأمل بعقلك. أين هذا مما يحكي اليهود والنصارى عن موسى عليه السلام في كتبهم، من أن موسى عليه السلام لما أراد الخروج من مصر استعار حَلِيَّ¹⁰ بني إسرائيل، ثم فر به ليلاً¹¹.

1 انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث 6 وانظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعو إلى الإسلام، رقم الحديث 3322.

2 انظر صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم الحديث 2949 وانظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم الحديث 3268.

3 هو المغيرة بن سُعبة صحابي جليل، توفي ما بين 48-51 / 668-671. انظر دائرة المعارف، ج VII ص 349.

4 انظر صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم الحديث 2529، وانظر سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في صلح العدو، رقم الحديث 2384.

5 ولم يقبله، لم تذكر في ك.

6 لنستعد لهم، في الأصل: (فراغ) لهم، وفي ك: دعني لهم، ولعل ما كتبه هو الصواب لأنه يفيد المعنى.

7 قال الجُلندي، في ك: فقال الجُلندي.

8 بطر: غلا في الزهو والفرح.

9 انظر الروض الأنف، ج 4 ص 250.

10 الحَلِي: ما يترين به.

11 انظر سفر الخروج، الاصحاح 11: 2 و 12: 35-36.

وعند الانتهاء إلى هذا المقام، يعلم العاقل ما في كتب القوم من الأباطيل والأوهام، وموسى عليه السلام مبرأ عن النقائص والآثام.

ومن وفائه بالعهد وقيامه في حفظه بالجد¹، أنه قدم عليه وفد النجاشي، فقام ﷺ يخدمهم بنفسه. فقال له أصحابه: "نحن نكفيك". فقال: "إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين²، وإنني أحب أن أكافئهم". وقال ﷺ: "حسن العهد من الإيمان".

وحقيقة الوفاء بالعهد تتميم ما ربط من العقد³، ومراعاة ما تقدم من الود، ومكافأة من له يد. وقد كانت هذه الخصال اجتمعت فيه، لا ينزع في ذلك أحد وإن كان يناوئه⁴.

وأما حسن سمته وتودُّده⁵ وكثير حيائه ومروءته، فشيء لا يُجْحَد ولا يُجْهَل، ولا يلحقه في شيء من ذلك أحد، وإن بذل غاية جده ولم يكسل.

فهو بالحقيقة كما قال الشاعر الأول⁶:

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم⁷ فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا

كان ﷺ كثير الصمت والوقار، طويل الإطراق⁸ والاعتبار، تكسو هيئة وقاره⁹ جلساءه، حتى إذا جلسوا بين يديه كأن على رؤوسهم الطير إعظاماً له وهيبة منه¹⁰. فمجلسه أوفر المجالس¹¹، لا يُسمَع فيه صخب الأصوات¹² ولا اختلاط اللغات. ليس فيه وراء¹³ ولا

1 وقيامه في حفظه بالجد، في ك: وقيامه في حفظه بالجد.

2 إشارة إلى أولئك الذين هاجروا إلى الحبشة.

3 تتميم ما ربط من العقد، في الأصل: تميم ما ربط من العقد، وفي ك: تتميم ما ربط من العقد، وهذا هو الصواب.

4 يناوئه: يعاديه.

5 وتودده، في ك: وتودته، تودد: تحب.

6 هو زهير بن أبي سلمى في قصيدته التي مطلعها: صحا القلب عن سلمى وقد كان لا يسلو...

7 سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم، في ك: سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم.

8 أطرق: أمال رأسه إلى صدره وسكت فلم يتكلم.

9 تكسو هيئة وقاره، في ك: تكسو هيئة وقاره.

10 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 177.

11 فمجلسه أوفر المجالس، في ك: مجلسه أوفر المجالس.

12 صخب الأصوات، في ك: ضحت الأصوات، وصخب الأصوات: اختلاطها وارتفاعها.

13 وراء: الجدال.

جدال، ولا للهجو والفحش فيه مجال¹، لا تُؤَبَّن في مجلسه الحُرْم²، ولا يُعْصُ فيه من الأقدار [186] والقيم، بل كان مجلس علم وحلم وحكم وفهم⁴.

أصحابه يُعْظَمُونَ⁵ في مجلسهم معه حرمان الله ويتعلمون منه أحكام الله، فتارة يُعَلِّمُهُمْ بأمور الآخرة حتى كأنهم ينظرون إليها⁶، وأخرى يُعَلِّمُهُمْ أحكام شريعته كي يعملوا بها.

كان ﷺ يكثر السكوت ليعتبر ويسلم، ويتكلم ليلبغ عن الله فيعلم ويغنم⁷. قال ابن أبي هالة: "كان سكوته على أربع: على الحلم والحذر والتقدير والتفكير"⁸، يعلم الجاهل المسترشد ويدينه، ويطرد المعاند المتكبر ويقصيه¹⁰. يتواضع للفقراء، ويتواضع لديه الأمراء.

كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها¹¹، الرفيعة الشريفة في قومها، كان إذا سمع ما يستحي منه ظهر نور الحَقَر¹² على وجهه.

ولذلك مر ﷺ على رجل وهو يعتب أخاه على الحياء، فقال ﷺ: "دعه، فإن الحياء من الإيثار"¹³.

وقال: "الحياء خير كله، والحياء لا يأتي إلا بخير"¹⁴، وقال: "استحيوا من الله حق الحياء".

1 ولا للهجو والفحش فيه مجال، في ك: ولا للهجر والفحش فيه مجال.

2 لا تُؤَبَّن في مجلسه الحرم: أي لا تذكر النساء بقبیح في مجلسه.

3 عَصَ: نَقَص وَحَطَّ من قدر إنسان أي شيء آخر.

4 بل كان مجلس علم وحلم وحكم وفهم، في ك: بل كان مجلس علم.

5 أصحابه يعظمون، في ك: وأصحابه يعظمون.

6 بأمور الآخرة حتى كأنهم ينظرون إليها، في ك: بأمور الآخرة كأنهم ينظرون إليها.

7 كان ﷺ يكثر السكوت ليعتبر ويسلم، ويتكلم ليلبغ عن الله فيعلم ويغنم، أهملت هذه الجملة في ك.

8 كان سكوته على أربع: على الحلم والحذر والتقدير والتفكير، في ك: كان سكوته على أربع: على الحكم والحذر والتقوى والتفكير.

9 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 178.

10 يقصيه، في الأصل: يغميه، وفي ك: يقصيه.

11 الحذر: سِرٌّ يُمَدُّ للبكر في ناحية البيت. انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث 3298.

12 الحَقَر: شدة الحياء.

13 انظر صحيح البخاري، كتاب الإيثار، باب الحياء من الإيثار، رقم الحديث 23، وانظر صحيح مسلم، كتاب الإيثار، باب عدد شعب الإيثار وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيثار، رقم الحديث 52.

14 والحياء لا يأتي إلا بخير، في ك: ولا يأتي إلا بخير. انظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، رقم =

وكان ﷺ ضحكه تبسماً، ولم يُر قط في ضحكه مُقَهِّهاً ولا مُرَّناً¹. كان كلامه فصلاً، يفهمه كل من سمعه، وربما تكلم بالكلمة ثلاثاً حتى تفهم عنه². وكان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه³، وكان إذا مر يقوم يسلم عليهم ثلاثاً⁴. وكان ﷺ يحافظ على مروءته وعلى استقامة حالته، وتحسين هيئته. يمشي هَوْنًا⁵ كأنها ينحط من صَبَب⁶، إذا مشى مشى مجتمعاً، وإذا جلس جلس مُتَّحِيًا⁷. وقرب إليه طعام ومتكأ، فقال: " لا أتكئ⁸، إنما أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد"⁹.

كان ﷺ يحب الطَّيِّب والرائحة الحسنة، ويستعملهما ويحضر عليهما، ويقول: "إن الله جميل¹⁰ يحب الجمال"¹¹. ويأمر بالسواك¹²، وغسل البراجم¹³ والرواجب¹⁴، واستعمال

= الحديث 5652، وانظر صحيح مسلم، كتاب الإيَّان، باب عدد شعب الإيَّان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياة وكونه من الإيَّان، رقم الحديث 53.

1 ولا مرناً، في ك: ولا مترناً.

2 انظر صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم الحديث 92، وانظر سنن الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئاً، رقم الحديث 2647.

3 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث 3303، وانظر صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، رقم الحديث 5325.

4 انظر صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم الحديث 92، وانظر سنن الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئاً، رقم الحديث 2647.

5 الهَوْنُ: الرفق والتؤدة.

6 الصَّبَب: المنحدر.

7 انظر صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب الاحتباء باليد وهو القُرْفُصَاء، رقم الحديث 5801.

8 انظر صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الأكل متكئاً، رقم الحديث 4979، وانظر مسند أحمد، مسند الكوفيين، رقم الحديث 18015.

9 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 113.

10 إن الله جميل، في ك: إن الله تعالى جميل.

11 انظر صحيح مسلم، كتاب الإيَّان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم الحديث 131، وانظر مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث 3600.

12 انظر سنن الدارمي، كتاب الطهارة، باب في السواك، رقم الحديث 680، وانظر سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب السواك، رقم الحديث 285.

13 البراجم: عقد الأصابع ومفاصلها. انظر مسند أحمد، مسند الكوفيين، رقم الحديث 17606، وانظر سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب السواك من الفطرة، رقم الحديث 49.

14 الرواجب، في ك: الدواجب.

خصال الفطرة¹، ويأخذ بذلك ويعمل به.

وكان ﷺ لكثرة محافظته على جلال مروءته² إذا عطس غطى وجهه، وخفض بها صوته.

وما عسى أن يقول القاصر³ فيمن جُمِعَتْ فيه كل الفضائل والمآثر، بل غاية الفصيح الأثر أن ينتهي إلى ما قاله الشاعر:

ماذا أقول؟ وقولي فيك ذو حَصَر⁴ وقد كفيتني التفصيل والجمال⁵

إن قلت: لا زلت مرفوعاً⁶ فأنت كذا أو قلت: زانك⁷ ربي⁸ فهو قد فعلا

وأما شجاعته ونجدته، فكان منها ﷺ [187] بالمكان الذي لا يُجْهَل⁹، وحظه منها الحظ الأوفى الأفضل.

قد كان مارس الضراب ووقف المواقف الصعاب¹⁰، لا يبالي بكثرة العدد، ولم يفر قط أمام أحد. وما من شجاع إلا وقد أحصيت له قرّة¹¹ وإن كان له بعدها كَرّة¹²، إلا هو ﷺ، فلا يدبر قط منهزماً¹³، ولا فارق مكرهاً ملتزماً.

وكان علي بن أبي طالب يقول: "كنا إذا اشتد البأس وحيت الحرب، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو".

1 من بين خصال الفطرة نجد الختان، الاستحداد، تنف الإبط، تقليم الأظافر، قص الشارب، حلق العانة. انظر صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب قص الشارب، رقم الحديث 5439 و 5440، وانظر صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم الحديث 377.

2 على جلال مروءته، في الأصل: على خلال مروءته، في ك: على جلال مروءته.

3 وما عسى أن يقول القاصر، في ك: وما عسى أن يقول القاص.

4 بمعنى عاجز عن الكلام

5 جملة وتفصيلاً.

6 لا زلت مرفوعاً، في ك: ما زلت مرفوعاً.

7 زان: زين وجمل.

8 زانك ربي، في ك: زانك دي.

9 فكان منها ﷺ بالمكان الذي لا يجهل، في ك: فكان منها ﷺ بالمكارة الذي لا يجهل.

10 ووقف المواقف الصعاب، في ك: ووقف مواقف الصعاب.

11 قرّة: هروب.

12 الكَرّة: الرجعة، وتقال أيضاً للحملة في الحرب.

13 فلا يدبر قط منهزماً، في ك: فلم يدبر قط منهزماً.

ولقد كانت الصحابة تقول: "إن الشجاع منا للذي يقوم بجانبه يستتر به"¹.

وقيل لأنس: "أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟" فقال: "لكن رسول الله لم يفر"².
ثم قال: "لقد رأيته على بغلته البيضاء، وأبو سفيان³ أخذ بلجامها، والنبى ﷺ يقول: أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب"⁴.

قيل: "فما رأيي يومئذ أحد كان أجراً منه ولا أشد". وقد روي عنه أنه نزل عن بغلته متوجهاً نحو العدو.

وقال العباس بن عبد المطلب: "لما التقى المسلمون والكفار يوم حنين، ولّى المسلمون مدبرين، فطَفِقَ⁵ النبى ﷺ يَرْكُضُ بغلته نحو الكفار".

قال العباس: "وأنا أخذ بلجامها، أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان أخذ بركابه⁶، ثم نادى بالمسلمين"⁷، وذكر الحديث.

وقال أنس: "كان النبى ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس. ولقد فزع أهل المدينة ليلة، انطلق أناس قَبْلَ الصوت⁸، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت، ولقد استبرأ الخبر⁹ على فرس عُزَيٍّ لأبي طلحة¹⁰، وفي عنقه السيف، وهو يقول:

1 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 148-150.

2 لكن رسول الله لم يفر، في ك: لكن رسول الله ﷺ لم يفر.

3 أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

4 انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم الحديث 2652، وانظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم الحديث 3325.

5 طَفِقَ: بدأ وجعل.

6 الرّكّاب: ما يضع فيه الفارس رجله.

7 انظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم الحديث 3324، وانظر مسند أحمد، مسند بنو هاشم، رقم الحديث 1679.

8 قَبْلَ الصوت: اتجاه الصوت.

9 ولقد استبرأ الخبر، في ك: وقد استبرأ الخبر.

10 هو زيد بن سهل بن الأسود، صحابي جليل وأحد المسلمين الشجعان. شارك في غزوات عدة، منها غزوة بدر وأُحُد. توفي في 34 / 654. انظر الأعلام، ج 3 ص 58.

"لن تراعوا. لن تراعوا. وإن وجدناه لبحراً¹، يعني الفرس لكثرة جريه³. وقال عمران⁴ بن حصين⁵: "ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة⁶ إلا كان أول ضارب". ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: "أين محمد؟ لا نجوت إن نجا". وقد كان قال للنبي ﷺ حين افتدي يوم بدر: "عندي فرس أعلفها كل يوم فرقاً⁷ من ذرة، أقتلك عليها". فقال له النبي ﷺ: "بل أنا أقتلك إن شاء الله".

فلما رآه يوم أحد⁸، شد أبي فرسه على رسول الله ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي ﷺ: "دعوه! خلوا طريقه". وتناول النبي صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث ابن الصمة⁹، فانتفض بها انتفاضة، فتطيرنا عنه تطاير الشعراء¹⁰ عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي ﷺ، فطعنه بها طعنة¹¹ تدأداً¹² منها على فرسه. وقيل: "بل كسر ضلعاً من أضلاعه".

فرجع إلى قريش يقول: "قتلني محمد" وهم يقولون: "لا بأس بك". فقال: "لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم. أليس قد قال لي: "أنا أقتلك إن شاء الله"، والله لو بصق علي لقتلني". فمات بسرف¹³ في قفولهم إلى مكة¹⁴.

1 وإن وجدناه لبحراً، في ك: وإنا وجدناه لبحراً.

2 أي سريع الجري.

3 يعني الفرس لكثرة جريه، في ك: يعني القوس لكثرة جريه. انظر صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب من استعار من الناس الفرس والدابة وغيرها، رقم الحديث 2434، وانظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي عليه السلام وتقدمه للحرب، رقم الحديث 4266.

4 عمران: في الأصل: عمر، والصواب هو ما كتبه لوروده هكذا في الشفا للقاضي عياض، ص 151.

5 وقال عمران بن حصين، في ك: وقال ابن حصين. عمران بن حصين صحابي جليل، عالم وفقه مسلم، بعثه عمر بن الخطاب إلى البصرة من أجل تعليم أهلها. اعتنق الإسلام في السنة السابعة للهجرة / 628. انظر الأعلام

6 الكتيبة: الفرقة العظيمة من الجيش تشتمل على عدد من السرايا.

7 الفرق: القسم من الشيء.

8 فلما رآه يوم أحد، في ك: فلما رآه أبي يوم أحد.

9 هو الحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك بن عمرو بن عامر، والد جهن. شارك في غزوتي بدر وأحد. انظر الإصابة، ج 1 ص 280.

10 الشعراء: ذبابة تصيب الدواب.

11 فطعنه بها طعنة، في ك: ثم طعنه بها طعنة.

12 تدأداً: تدرج وسقط.

13 مكان بضواحي مكة، فيه تزوج رسول الله ﷺ من ميمونة رضي الله عنها، وفيه مات أبي بن خلف. انظر الحميمي: الروض المعطار في أخبار العباد، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1975، ص 312.

14 انظر سيرة ابن هشام، ج 4 ص 33، وانظر ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار المعارف، 1979، ج 2 ص 518-519.

ومما يدل على عظيم شجاعته، أنه يوم أُحُد فرَّ عنه الناس، فاستقبل العدو في نفر قليل من أصحابه، فكسر عتبة بن أبي وقاص رِباعيته¹ اليمنى وجرح شفته السفلى. وشجَّه² في جبهته عبد الله بن شهاب الزُّهري³، وضرب عمرو بن قمته وجنته فأدخل حلقتين من حلق المغفر⁴ في وجنته⁵. وهو في ذلك كله، لا يزول عن موضعه⁶ ولا يولي ظهره، ولم يزل كذلك حتى أنزل الله عليه نصره حين رأى صبره.

وفي ذلك الموضع وفي تلك الحال، نهض نفر من أصحابه لقتال العدو، فوافقهم وقاوموهم مع كثرة عدوهم. فانفذت مقاتل واحد منهم، فوضع رسول الله ﷺ خد ذلك الرجل على قدمه حتى مات. وهذا يدل على غاية شجاعته، وكثرة الجَلَد⁷ وقلة المبالاة بالعدو. ولقد كانت غزوة أحد هذه التي جرى فيها ما ذُكر من أول الشواهد على نبوته ﷺ، وذلك أنه لما التقى هو والمشركون، قال النبي ﷺ لبعض أصحابه وكانوا رماة: "انصَحُوا⁸ عنا الخيل بالنبل⁹، لا يأتونا من خلفنا، واثبتوا مكانكم، كانت لنا أو علينا"¹⁰. وقد كان أمر عليهم عبد الله بن جُبَيْر¹¹.

ثم إن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون، فهزموا المشركين، وولوا أديبارهم حتى سقط لواؤهم صريعاً. فلما رأى أصحاب عبد الله الهزيمة، قالوا: "الهزيمة. الهزيمة، تعالوا بنا نصيب"¹²

1 الرابعة: السن بين الثَّنيَّة والنَّاب.

2 شَجَّ: جرح.

3 هو عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زُهرة الزُّهري، جد الفقيه ابن شهاب الزُّهري. انظر ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، 1992، ج 3 ص 59.

4 واقى للرأس أثناء المعارك، وهو زَرَد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

5 للمزيد من التفصيل انظر سيرة ابن هشام، ج 4 ص 28-29.

6 أي أن الرسول ﷺ لا يدع موضعه رغم كل ما لحقه من أذى الكفار له.

7 الجَلَد: الصلابة والقوة.

8 انصَحُوا: دافعوا.

9 النبل: السهام.

10 كانت لنا أو علينا: أي كنا منتصرين أو منهزمين.

11 هو عبد الله بن جبيرة الأنصاري، صحابي جليل، شارك في غزوة بدر وأحد التي استشهد فيها. انظر الأعلام، ج 4 ص 76.

12 أصاب: أخذ.

مما يصيبه الناس¹. فقال لهم عبدالله: " ألم يقل لكم رسول الله ﷺ: لا تبرحوا² من مواضعكم". فقالوا له: " قد هزم الله العدو". فلم يلتفتوا كلامه، فزالوا عن مواضعهم. فلما زالوا عن مواضعهم، عاقبهم الله³ بأن رجع العدو عليهم، فقتل منهم من قتل لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ، ومَحَصَّ⁴ الله في تلك الغزوة⁵ المؤمنين، [189] وعَنَّ الكافرين والمنافقين⁶.

وفي تلك الغزوة، فُقِصَّتْ عين قتادة بن النُّعْمَان⁷ حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه. وسيأتي ذكر هذا وما شاكله بعد هذا إن شاء الله⁸.

وأما خوفه من الله⁹ واجتهاده في عبادته، فلقد بلغ من ذلك¹⁰ إلى حدٍّ لم يبلغه أحد من الخليفة. وذلك أن الله تعالى كلفه من وظائف العبادات ما لم يكلفه أحداً¹¹ على الحقيقة، وهو مع ذلك لا يقصر في شيء منها، بل كان يبذل غاية اجتهاده ووسَّعه في أدائها.

فمن العبادات التي كلفها الله له: تحمل أعباء الوحي ومشقة ثقله. فلقد كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيُقَصِّم¹² عنه، وإن جبينه ليتفَصَّد¹³ عرقاً¹⁴. ولأجل هذا قال الله¹⁵: ﴿إِنَّا سَلَفْنَا عَلَىكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، [المزمل: 5] وقال له: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 18] وهذه مشقة لا يعرفها على التحقيق إلا الرسل.

1 مما يصيبه الناس، في ك: مما تصيبه الناس.

2 بَرَح: غادر وترك.

3 فلما زالوا عن مواضعهم عاقبهم الله، في ك: فلما زالوا عن مواضعهم عاقهم الله.

4 مَحَصَّ: اختبر وابتلى.

5 الغزوة، في الأصل: الغرة، وفي ك: الغزوة، وهذا هو الصواب.

6 انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكرم من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصي إمامه، رقم الحديث 2812، وانظر سنن أبي داود كتاب الجهاد، باب في الكُفَّاء، رقم الحديث 2288.

7 هو قتادة ابن النعمان ابن زيد ابن عامر الأنصاري، صحابي جليل، شارك في كل الغزوات وتوفي في 644/23. انظر الأعلام، ج 5 ص 189.

8 إن شاء الله، في ك: إن شاء الله تعالى.

9 وأما خوفه من الله، في ك: وأما خوفه من الله تعالى.

10 فلقد بلغ من ذلك، في ك: فقد بلغ من ذلك.

11 ما لم يكلفه أحداً، في ك: ما لم يكلف أحداً.

12 يُقَصِّم: يُقْلَع ويُتَجَلَّى

13 يتفصد عرقاً: يسيل عرقه ويكثر.

14 انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث 3، وانظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان،

باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث 231.

15 ولأجل هذا قال الله، في ك: ولأجل هذا قال الله تعالى.

ولأجل عِظَم هذا الأمر، جاء جبريل عليه السلام، وهو يتعبد بغار حراء، وذلك قبل أن يوحى إليه، فقال له: "اقرأ". فقال: "ما أنا بقارئ". فأخذه فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال له: ¹ "اقرأ". فقال: "ما أنا بقارئ". ففعل به مثل ذلك مرتين، فقال له في الثالثة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] الآية ². فقرأها، ثم رجع إلى خديجة يرجف فؤاده ³، فقال: "رَمَّلُونِي" ⁴. فَذَرُّوهُ ⁵، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وهو على تلك الحال: ﴿بِأَيِّهَا الْمَدِينَةُ ۖ قُرْ فَأَنْذِرْ ۚ﴾ ⁶ وَرَبِّكَ فَكَثِرَ ﴿٣﴾ [المدثر: 1-3] الآيات ⁶.

ثم بعد قبول الوحي، أمر بتبليغه وتبيينه للناس، والصبر على ما يصيبه من أذى قومه، فكان ﷺ يعرض نفسه ودينه على قبائل العرب وعلى وفودها إذا قَدِمُوا مكة لمواسم الحج، فيعيب آهنتهم، ويسفه أحلامهم، ويظهر خلافهم، ويوبخهم على جهالاتهم، فيردون عليه قوله، ويكذبونه، ويسبونونه، ويؤذونه بأقصى ممكنهم من أنواع الأذى، فيصبر على ذلك ويحتسب ما يلقاه على الله ⁷.

فلسان الحال ينشد، والأنفاس خوفاً من التقصير في أمر الله تتصعد ⁸:

ما أبالي ⁹ إذا رضيت إلهي أي أمر من الأمور دهاني

فلم يزل راضياً صابراً على أنواع البلاء، حتى كان لسان حاله يقول: "عَذَّبَ التعذيب عندي وحلاً".

فأقام على ذلك بمكة اثنتي عشرة سنة أو نحوها ¹⁰، يدعو الناس من غير قتل ولا قتال،

1 فقال له، في ك: فقال.

2 الآية، في ك: الآيات.

3 رجف الفؤاد: اضطرب من الغزع والخوف.

4 رَمَّلُونِي: غَطُّونِي.

5 فَذَرُّوهُ: فغَطُّوه.

6 انظر قصة نزول الوحي على رسول الله ﷺ في سيرة ابن هشام، ج 2 ص 71-72، وانظر تاريخ الطبري، ج 2 ص 298-306.

7 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 127، 130-136، وانظر تاريخ الطبري، ج 2 ص 332-333.

8 في أمر الله تتصعد، في الأصل: في أمر الله تتصعده، في ك: في أمر الله تتصعد وهذا هو الصواب.

9 ما أبالي، في ك: لا أبالي.

10 أو نحوها، أغفلت في ك. في رواية لابن إسحاق فالرسول ﷺ مكث بمكة 12 سنة، وفي أخرى 10 سنوات. انظر سيرة ابن إسحاق، ص 144.

وذلك كله ليظهر الإسلام، وتنتشر دعوته لئلا تكون¹ لأحد حجة على الله ورسوله.

وبعد [190] ذلك أمر بالهجرة من مكة إلى المدينة، ففارق أهله وعشيرته، وحاله وماله وولده وبلده، ولم يعظم عليه مفارقة شيء من ذلك في ذات الله، فترك كل ذلك إلى الله، فوقع أجره على الله.

فلما حلّ بالمدينة، افترض الله عليه القتال، فقاتل في ذات الله جميع من كفر بالله غير مُقَصِّر في ذلك ولا مُفَرِّط، بل جاداً مجتهداً حتى أظهر الله دينه، وإن رغمت أنوف الجاحدين، وفي كل ذلك الزمان، كان يقوم بوظائف الشريعة وعباداتها عبادة عبادة. فصلى حتى تورّمت قدماه وانتفخت، وصام حتى كان القائل يقول: لا يفطر، لكثرة ما كان يرى من صومه ووصاله، وكان يذكر الله ويعظمه ويمجده، ويشكره على كل أحواله من غير تقصير ولا فتور، ولا تشغله عبادة عن عبادة، ولا عمل زمان عن عمل زمان آخر. كان عمله دائماً²، ولذلك³ كان يقول ﷺ: "خير العمل أدومه"⁴.

فكان يراعي أنفاسه مع الله ولا يضيع شيئاً مما كلفه خوفاً من الله، فكان ربها يتفكر في عظيم أمر الله وعزة سلطانه، فيستعظم ما يعرف من هول المطلع، فكان يقول: "والله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية"⁵.

وكان يقول: "يا أمة محمد! والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ⁶، تجأرون⁷ إلى الله، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، لو ددتُ أني

1 لئلا تكون، في ك: لئلا يكون.

2 كان عمله دائماً، في الأصل: كان عمله ديمة، وفي ك: كان عمله دائماً.

3 ولذلك، في ك: وكذلك.

4 انظر صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم الحديث 1303، وانظر سنن النسائي، كتاب القبلة، باب المصلي يكون بينه وبين الإمام ستر، رقم الحديث 754.

5 انظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم الحديث 5636، وصحيح مسلم كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته، رقم الحديث 4345.

6 ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ، في الأصل: ولخرجتم إلى المعدات، في ك: ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ، وهذا هو الصواب لورودها هكذا في الحديث.

7 تجأرون: تنزعرون.

شجرة تُعَصَّد¹². ولذلك كان يقول: "إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت³ السماء، وحق لها أن تظط. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله"⁴. وهذا كله يدل على كثرة معرفته بالله تعالى، وشدة خوفه منه ورهبته له. ولذلك⁵ كان يبكي ويسمع لخوفه⁶ صوت كصوت المِرْجَل⁷ من البكاء⁸.

وكذلك صح النقل عنه بأنه كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة. وكان يقول: "يا أيها الناس توبوا⁹ إلى الله، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة"¹⁰.

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: "سألت رسول الله ﷺ عن سنته¹¹ فقال: "المعرفة رأس مالي، والعمل أصل ديني"¹²، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله فخري¹³، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والصبر هادي خلقي، وقرة عيني في الصلاة". وفي حديث آخر: "ثمره فؤادي في ذكره، وغمي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي"¹⁴¹⁵.

1 تُعَصَّد: تُقَطَّع وتُسْتَأْصَل.

2 انظر سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، رقم الحديث 2234، وسنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم الحديث 4180.

3 أَظَّت: ضَجَّت.

4 انظر سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، رقم الحديث 2234، وسنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم الحديث 4180.

5 ولذلك، في ك: وكذلك.

6 يسمع لجوفه صوت، في ك: يسمع لخوفه صوت.

7 المِرْجَل: إناء يغلى فيه الماء.

8 انظر سنن النسائي، كتاب السهو، باب البكاء في الصلاة، رقم الحديث 1199، ومسند أحمد، مسند المدنيين، رقم الحديث 15722.

9 يا أيها الناس توبوا، في ك: يا أيها الذين آمنوا توبوا.

10 انظر صحيح مسلم، كتاب الذكر، باب استجاب الاستغفار والاستكثار منه، رقم الحديث 4871، ومسند أحمد، مسند الشاميين، رقم الحديث 17173.

11 عن سنته، في ك: عن سته.

12 أصل ديني، في ك: رأس ديني.

13 وذكر الله فخري، في ك: وذكر الله مجدي.

14 وشوقي إلى ربي، في ك: وشوقي إلى ذي الجلال.

15 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 187-188.

ووصف خوفه [191] يطول، ومعرفة ذلك من حاله لا ينكره عليم¹ ولا جهول إذا كان من أهل الإنصاف والعقول.

وعلى الجملة: فمناقبه الشريفة لا تُحصَى، وما خُصَّ به من الأخلاق الكريمة عديد الحصى. كيف لا وقد قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. وما عظمه العظيم فهو عظيم، وكيف لا يكون ذلك وقد بعثه الله تعالى متمماً لمكارم أخلاق الأولين²، وقد خصه بجميع صفات النبيين³. فلو جاز أو تصور أن يُعبد أحد من البشر لكمال أخلاقه، وكرم أوصافه، وطيب أعراقه لكان هو، إذ قد أُعطي من ذلك ما لم يُعطه أحد من البشر، ولا دخل لهم تحت كسب ولا قدر.

خاتمة جامعة في صفاته وشواهد صدقه وعلاماته: وذلك أن أبا سفيان⁴ وكفار قريش قدّموا الشام تجاراً، فأرسل إليهم هرقل، وكان ملك النصارى وعظيمهم، وإليه ينتهي علمهم. فجاءوه⁵، ودخلوا عليه في مجلسه، وحوله عظماء الروم. فقال لترجمانه: "قل لهم: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟". فقال أبو سفيان: "أنا أقربهم نسباً منه"⁶. فقال: "أدنوه مني، وقربوا أصحابه، واجعلوهم عند ظهره". ثم قال لترجمانه: "قل لأصحابه: إني سائل هذا، عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب فكذبوه". قال أبو سفيان: "فوالله، لو لا الحياء من أن يأتروا⁷ عني كذباً لكذبت عليه".

قال أبو سفيان: "فكان أول ما سألتني عنه أن قال: "كيف نسبه فيكم؟". قلت: "هو فينا ذو نسب". قال: "فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله؟". قلت: "لا". قال: "فهل كان في آبائه من ملك؟". قلت: "لا". قال: "فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟". قلت: "بل ضعفاؤهم؟". قال: "أيزيدون أم ينقصون؟". قلت: "بل يزيدون". قال: "فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟". قلت: "لا". قال: "فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن

1 لا ينكره عليم، في الأصل: لا ينكره عليهم، وفي ك: لا ينكره عليم، وهذا هو الصواب.

2 لمكارم أخلاق الأولين، في الأصل: لمكارم الأخلاق الأولين، وفي ك: لمكارم أخلاق الأولين، وهذا هو الصواب.

3 وقد خصه بجميع صفات النبيين، في ك: وقد خصه بصفات جميع النبيين.

4 أبو سفيان بن حرب.

5 فجاءوه، في الأصل: فجاءه، وفي ك: فجاءوه، وهذا هو الصواب.

6 أنا أقربهم نسباً منه، في ك: أنا أقرب نسباً منه.

7 يأتروا: ينقلوا وينسبوا إلي.

يقول ما قال؟". قلت: "لا". قال: "فهل يغدر؟". قلت: "لا". ونحن في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، يعني صلحاً"، قال: "ولم تُمكنني كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة". قال: "فهل قاتلتموه؟". قلت: "نعم". قال: "فكيف كان قتالكم إياه؟". قلت: "الحرب بيننا وبينه سجال"، ينال منا وننال منه". قال: "ماذا يأمركم؟". قلت: "يقول: اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة".

فقال هرقل لترجمانه: "قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل [192] تُبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت: رجل يقتدي بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. فلو كان من آبائه من ملك، لقلت: رجل يطلب مُلك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر² الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا³، وكذلك الإيمان، حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن لا تعبدوا إلا الله⁴، لا تشركوا به شيئاً⁵، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم. فلو أني أعلم أني أخلص⁶ إليه لتجشمت⁷ لقاءه⁸، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

1 السَّجال: تناوب الانتصار في الحرب.

2 يَذَر: يَدَع ويترك.

3 فذكرت أن لا، في ك: فذكرت: لا.

4 أن لا تعبدوا إلا الله، في الأصل: أن لا تعبدوا الله، وفي ك: أن تعبدوا الله، والصواب ما كتبه و ما هو موجود في: ك.

5 لا تشركوا به شيئاً، في ك: ولا تشركوا به شيئاً.

6 أخلص إليه: أصل إليه.

7 تجشمت: تحمل مشقة الوصول إليه.

8 لتجشمت لقاءه، في ك: لأحببت لقاءه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي كان قد بعث به مع دحية¹ إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد. فإني أدعوك بدعاية الإسلام²، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنَّ عليك³ إثم الأريسيين⁴ يعني المفتدين به. **وَقُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ۟مُ ۖ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** [آل عمران: 64].

قال أبو سفيان: "فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصَّخب⁵، وارتفعت الأصوات، وأُخرجنا. فقلت لأصحابي حين أُخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة⁶، إنه ليخافه ملك بني الأصفر⁷، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام. وكان ابن الناطور صاحب إيلياء⁸، يُحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس⁹، [193] فقال له بعض بطارقه: "قد استنكرنا هيئتكَ".

قال ابن الناطور: "وكان هرقل حزاء¹⁰ ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: "إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الحتان قد ظهر. فمن يختمن من هذه الأمة؟" قالوا:

1 هو دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، صحابي جليل، شارك في غزوات عدة مع رسول الله ﷺ. توفي في 45 / 665. انظر الأعلام، ج 2 ص 337.

2 دعاية الإسلام: دعوة الإسلام.

3 فإن عليك، في ك: فإنما عليك.

4 نسبة إلى أريوس الذي كان قسيساً بالإسكندرية. من قوله التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات والأرض. ولقد كان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية. انظر ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل.

5 الصَّخب: ارتفاع الأصوات واختلاطها.

6 أبو كبشة هو أول من عبد الشَّعْرَى وفتن به. وقد كان المشركون ينسبون رسول الله ﷺ إليه لكونه لما بعث دعا إلى عبادة الله وترك الأوثان. انظر أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، تحقيق السيد الجميلي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي، 1985، ص 79.

7 بنو الأصفر: الروم.

8 بمعنى وكان ابن الناطور الذي هو أسقف مدينة القدس.

9 خبيث النفس: مهموم.

10 الحزاء: الكاهن.

"ليس يختتن من هذه الأمة إلا اليهود¹، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن مُلكك، فليقتلوا من فيهم من اليهود".

فبينما هم على ذلك، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان، يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل، قال: "اذهبوا فانظروا أختتن هو أم لا؟".

فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب: "أيختنون؟". فقال: "هم يختنون"². فقال هرقل: "هذا ملك هذه الأمة قد ظهر".

ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم. وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم³ حمص، حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي.

فأذن هرقل لعظماء الروم⁴ في دسكرة⁵ له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم أطلع، فقال: "يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبَّت مُلككم، فتبايعوا لهذا النبي؟"⁶.

فحاصوا⁷ حيضة حُمُر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت. فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس⁸ من إيمانهم، قال: "ردوهم علي". وقال: "إني قلت مقالتي أنفأ أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت". فسجدوا له، ورضوا عنه. فكان هذا آخر شأن هرقل⁹.

1 كان الختان بالنسبة لليهود عهداً بينهم وبين الله عز وجل. انظر سفر التكوين، الاصحاح 17: 9-14 و 17: 23-27.

2 كان العرب يختنون قبل ظهور الإسلام، فلما أشرقت نوره حثَّ وأكد على الختان، بل أوجبه وجعله واحداً من بين خصال الفطرة. انظر:

Malek Chebel: *Histoire de la circoncision. Des origines à nos jours*, 2^{ere} ed, Casablanca, EDDIF, 1997, P. 221-222

3 رام يريم: برح وغادر.

4 فأذن هرقل لعظماء الروم، في ك: فأذن هرقل لعظماء الروم.

5 دسكرة: بناء كالقصر.

6 فتبايعوا لهذا النبي، في ك: فتبايعوا هذا النبي.

7 حاصوا: اضطربوا وتدافعوا.

8 أيس: يشس وانقطع رجاؤه من الشيء.

9 انظر قصة هرقل مع قومه ومع أبي سفيان وكفار قريش في صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث 6، وتاريخ الطبري، ج 2 ص 645-650.

فتأمل أيها القَسَّ¹ إن كنت من أهل العقل والحدس، كيف كان العلماء منكم يعرفونه بعلاماته، ويستدلون على صحة نبوته بحسن أوصافه وهيئاته. وهكذا فعل جماعة من عقلاء أهل الكتاب، وغير واحد من ذوي الألباب، مثل: عبد الله بن سلام²، والفارسي سلمان، ونصاري الحبشة، وأساقفة نجران.

ولا تشك إن كنت منصفاً أنهم كانوا أعلم بالكتب منك، وأعرف برسول الله³ وعلاماتهم من عثرتك. ولعلمهم بكتب الله وما جاء فيها من علامات محمد رسول الله، لما جاءهم ما عرفوا وحققوا، آمنوا وصدقوا، فقالوا: ﴿رَسَاءٌ آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 53].

ولجهلكم بكتب الله، وبعلامات رسول الله، لما جاءكم الحق كفرتم به، ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89].

ومن أعظم آياته، وأوضح دلالاته، ما جرى له مع قومه. وذلك أنه صلى الله [194] عليه وسلم لما جاهر قومه بتبليغ ما أمره الله من الرسالة، وصدع بأمره⁴، فسفه أحلامهم⁵، وعاب أهتهم، وبيّن لهم فساد ما هم عليه، شق⁶ ذلك عليهم، وأجمعوا على خلافه وعداوته، إلا من عصم⁷ الله منهم بالإسلام، كانوا إذ ذاك قليلاً مستخفين. فأرادت قريش قتل رسول الله ﷺ وقتل من معه، والوثوب عليهم. فعذب⁸ على رسول الله ﷺ عمه أبوطالب، ومنعه منهم لشرفه في قومه وعزته، فلم يقدروا أن يصلوا إليه⁹ بشيء بما أرادوه¹⁰.

1 القَسَّ: أحد رجال الدين النصراني.

2 عبد الله بن سلام، صحابي جليل، كان يهودياً قبل أن يعتنق الإسلام في السنة الثامنة للهجرة / 629. توفي في / 663 43. انظر دائرة المعارف، ج 1 ص 53-54.

3 وأعرف برسول الله، في الأصل: وأعرف برسول الله، وفي ك: وأعرف برسول الله، وهذا هو الصواب، لأنه بعد ذلك يذكر بأنهم أعرف أيضاً بعلاماتهم.

4 صدع بأمر: بيّنه وجهه به.

5 سفه أحلامهم: نسب عقولهم إلى السفه والطيش.

6 شق: صعب.

7 عصم: حفظ ووقى وحوى.

8 حذب: عطف.

9 فلم يقدروا أن يصلوا إليه، في الأصل: فلم يقدروا يصلوا إليه، وفي ك: فلم يقدروا أن يصلوا إليه، وهذا هو الصواب.

10 بشيء بما أرادوه، في ك: بشيء مما أرادوه.

فلما رأوا أنهم لا يقدرّون على أن يصلّوا إلى ضرّه¹، لمنع عمه له منهم، اجتمعوا فقالوا لأبي طالب²: "إن ابن أخيك قد سبّ آهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أعلامنا، وضلّل آبائنا، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلي³ بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه". فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً.

ثم قال له: "يا ابن أخي! إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا للذي قالوا له، فابق يا ابن أخي علي وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق". فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك القول منه، ظنّ أنه سيسلّمه إليهم، وأنه قد ضعّف عن نصرته، والقيام معه، فقال له: "يا عم! والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته". ثم استعبر⁴ رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام.

فلما ولى ناداه أبو طالب عمه، وقال له: "أقبل يا ابن أخي واذهب فقل ما أحببت، فوالله ما أسلّمك لشيء أبداً"⁵.

فلما رأت قريش أن أبا طالب لا يسلّمه، عزمت على حرب أبي طالب وقتاله. فنهياً أبو طالب لقتالهم، وجمع قومه وعشيرته لذلك، ثم أنهم تصالحوا فيما بينهم. وأقام رسول الله ﷺ على حاله ذلك من عيب دينهم، وتسفيه عقولهم، وذمّ آهتهم، لا يرده عن ذلك راداً، ولا يصدّه عما يريدّه صادّ.

فاجتمع أشراف قريش يوماً، فقالوا: "ما رأينا مثل صبرنا على ما تلقى من أمر هذا الرجل، إنه قد سفّه أعلامنا، وشتم آبائنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آهتنا، لقد صبرنا منه⁶ على أمر عظيم. فبينما هم يقولون ذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت. فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، فتغير وجه رسول الله ﷺ، وقال [195] لهم: "أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح".

1 لا يقدرّون على أن يصلّوا إلى ضرّه، في ك: لا يقدرّون أن يصلّوا إلى ضرّه.

2 اجتمعوا فقالوا لأبي طالب، في ك: اجتمعوا وقالوا لأبي طالب.

3 وإما أن تخلي، في الأصل، وإما أو تخلي، في ك: وإما أن تخلي، وهذا هو الصواب.

4 استعبر: جرت دمعه.

5 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 101-98.

6 لقد صبرنا منه، في ك: لقد صرنا منه.

قال: "فأخذت القوم كلمته وهيبته، حتى ما منهم رجل إلا ناكس رأسه¹، كأن على رأسه طائراً واقفاً، حتى أن أشدهم عليه وطأة² كيّلين له بالقول، ويقول له أحسن ما يجده من الكلام، حتى أنه ليقول: "انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً"³.

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم، حتى إذا كان الغد اجتمعوا، فقال بعضهم لبعض: "ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا أسمعكم ما تكرهون تركتموه".

فبينما هم في ذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ عليهم، فوثبوا⁴ إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: "أنت الذي تعيب آهتنا وديننا؟". فيقول: "نعم. أنا الذي أقول ذلك". فأخذوا بمجمع رداثه، وجبذوه جبداً شديداً⁵، وهو في ذلك يقول لهم: "أنا الذي أعيب ما أنتم عليه". لم يُفزع ما رأى منهم ولا هاله ذلك، بل صبر على ما ناله، حتى نصره الله عليهم، وأظهر دينه على دينهم⁶.

فتأمل أيها العاقل إن كنت منصفاً ففرق ما بين نبينا محمد عليه السلام، وبين ما تحكيه النصارى عن المسيح في إنجيلهم. وذلك أنها تحكي فيه أن المسيح لما استشعر بوثوب اليهود عليه، قال: "قد جزعت نفسي الآن، فماذا أقول يا أبتاه؟ فسلمني من هذا الوقت"⁷، وأنه حين رفع في الخشبة صاح صياحاً عظيماً، وقال: "إلي! إلي! لم عذبتاني؟"⁸ وترجمته: "إلهي! إلهي! لم أسلمتني؟"⁹. وهذا غاية الجزع والخور¹⁰ ينزه عنه عيسى، بل هو من أكاذيبهم عليه.

وكذلك ذكرت في إنجيلها أن عيسى لما أخذته اليهود، وحملته إلى قائد القيسيين، قال له: "أستحلفك بالله الحي أن تُصدّقنا، إن كنت المسيح ابن الله؟". فقال له المسيح: "أنت

1 ناكس رأسه: منحني الرأس.

2 الوطأة: الضغطة والأخذة الشديدة.

3 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 127.

4 وثب: نهض مسرعاً.

5 انظر مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث 6739.

6 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 127.

7 انظر إنجيل متى 26: 38.

8 لم عذبتاني، في ك: لم غريبتاني.

9 انظر إنجيل متى 27: 46.

10 الخور: الضعف والانكسار.

قلته¹. وهذا كلام يدل على أنه كتم نفسه، وسترها ضعفاً وجبناً.

ثم إن كفار قريش لما أكرههم أمر رسول الله ﷺ، وغازبهم شأنه، تشاوروا في أمره، فقال لهم عتبة بن ربيعة²: "يا معشر قريش! ألا أقوم لمحمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟"، وذلك لما لم يقدرُوا على أن يصلوا إليه بمكروه³. فقالوا له: "بلى".

فقام إليه عتبة، فقال له: "يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّة⁴ في العشيرة⁵، والمكانة في النسب⁶، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبت به آهتهم [196] ودينهم، وكفَّرت من مضي من آبائهم. فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل منا بعضها". فقال له رسول الله ﷺ: "قل، أسمع". فقال له⁷: "يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا. وإن كنت تريد شرفاً، سوَّدناك علينا⁸ حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً، ملَّكناك علينا⁹. وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه".

فلما فرغ، قال له النبي ﷺ: "أقد فرغت؟". قال: "نعم". قال: "فاسمع مني". قال: "أفعل". فقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿مَنْ ٢﴾ كَتَبْتُ فَصَلَتْ ءَايَتُهُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: 1-3]. ثم مضى رسول الله ﷺ يقرأ السورة، حتى إذا بلغ السجدة¹⁰ فسجد، ثم قال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك".

1 انظر إنجيل متى 26: 63-64.

2 هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو الوليد، واحد من أكبر أشراف قريش. ظل مشركاً رغم إشرافه نور الإسلام.

توفي في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة / 624. انظر الأعلام، ج 4 ص 200.

3 وذلك لما لم يقدرُوا على أن يصلوا إليه بمكروه، في ك: وذلك لما لم يقدرُوا أن يصلوا إليه بمكروه.

4 السُّطَّة: الشرف.

5 من السطة في العشيرة، في ك: من البسطة في العشيرة.

6 والمكانة في النسب، في الأصل: والمكان في النسب، في ك: والمكانة في النسب.

7 فقال له، في ك: فقال.

8 سوَّدناك علينا: جعلناك سيِّداً علينا.

9 ملَّكناك علينا: جعلناك ملكاً علينا.

10 أي قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: 37].

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: "أحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به". فلما جلس إليهم، قالوا: "ما وراءك يا أبا الوليد؟". قال: "ورائي أني سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوا، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نأً عظيم. فإن تُصِبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فمُلِكْه مُلُكْكم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به". قالوا: "سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه". فقال: "هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم"².

فانظر إن كنت عاقلاً، كيف بذلوا أموالهم فلم يلتفتها، وعرضوا عليه مُلْك الدنيا فلم يعرج عليها، بل صدع بأمر الله، وبلغ ما أمره به الله.

وكذلك اجتمع كفار قريش، أشrafهم وساداتهم³، فعرضوا عليه مثل الذي عرض عليه عتبة⁴، وقالوا له مثل قوله، فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما بي مما تقولون شيء"⁵، وما جئتكم أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا التملك عليكم. ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات الله، ونصحت لكم، فإن قبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"⁶.

[197] والأخبار في هذا النوع كثيرة.

ومن أوضح آياته، وأشهر علاماته، ما أكرمه الله به بعد وفاته. وذلك أنه قد اشتهر أنه ﷺ لما توفاه الله⁷، اختلف غاسلوه في تجريده القميص. فلما اختلفوا في ذلك ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلّمهم مُكَلّم من ناحية البيت، لا يدرون من

1 والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، في ك: والله ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر.

2 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 130-136، والشفاء للقاضي عياض، ص 386-387.

3 أشrafهم وساداتهم، في الأصل: أشrafهم وساداتهم، في ك: أشrafهم وساداتهم.

4 هؤلاء الأشراف هم: الوليد بن المغيرة، السّخر بن الحارث، الأسود بن عبد المطلب، زُمنة بن الأسود، عتبة بن ربيعة، شَيْبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب. انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 132.

5 ما بي منا تقولون شيء، في ك: ما بي مما تقولون شيئاً.

6 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 132-133.

7 لما توفاه الله، في ك: لما توفاه الله تعالى.

هو، ولا يرون أحداً أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه¹.

وكذلك روي أن علياً والفضل²، حين انتهيا في الغسل إلى أسفله، سمعوا منادياً يقول: "لا تكشفوا عورة نبيكم ﷺ"³.

وكذلك روي في طرق صحاح، أن أهل بيته سمعوا وهو مُسَجَّى⁴ بينهم قائلاً يقول: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت. إن في الله عوضاً من كل تالف⁵، وخلفاً من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة. فاصبروا واحتسبوا، إن الله مع الصابرين، وهو حسبنا ونعم الوكيل". قال: "فكانوا يرون أنه الخضر"⁶7.

وقد آن أن نمسك العنان، إذ قد حصل البيان على أن قرائن أحوال نبوة محمد ﷺ وعلاماته مما لا يحصيها لسان، ولا يحيط بعلمها أجملها إنسان⁸.

وقد نجز القول في النوع الثاني من أدلة نبوته، والحمد لله. ونشرع الآن في النوع الثالث.

1 انظر سيرة ابن هشام، ج 3 ص 212، والروض الأنف، ج 4 ص 271.

2 هو الفضل بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، صحابي جليل. بعد وفاة الرسول ﷺ، توجه الفضل إلى سوريا لنشر الإسلام. توفي في 13 / 634. انظر الأعلام، ج 5 ص 149.

3 انظر الروض الأنف، ج 4 ص 271.

4 مُسَجَّى: مغطى.

5 إن الله عوضاً من كل تالف، في ك: إن في الله عوضاً عن كل تالف.

6 الخضر هو صاحب موسى عليه السلام، لا يعرف أصله، ولا يعرف هل هو نبي أم لا، كما يجهل عدد السنوات التي عاشها. يقال إنه ابن لآدم، كما يقال إنه ابن لقايل، هناك من يسميه خضرون، وهناك من يسميه عامر. انظر الإصابة، ج 1 ص 428-447.

7 انظر الروض الأنف، ج 4 ص 271.

8 ولا يحيط بعلمها أجمعها إنسان، في ك: ولا يحيط بأجملها إنسان.

النوع الثالث

الاستدلال على نبوته ﷺ بالكتاب العزيز

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

ولقد كان ينبغي أن نقدم الاستدلال بهذا النوع لكونه أعظم المعجزات، وأوضحها وأشهرها. لكن قدمنا النوع الأول تسكيناً للنصارى واليهود وتأنيساً¹. وقدّمنا النوع الثاني بناء وتأنيساً.

فنقول أيضاً: محمد بن عبد الله رسول من الله² صادق فيما يقوله عن الله، والدليل على ذلك أنه قد جاء بالمعجزات. وكل من جاء بها فهو صادق، فمحمد إذن رسول من الله صادق. فإن قيل: "لم قلت أنه جاء بالمعجزات؟"³ قلنا: قد نُقِلَ إلينا نقلاً متواتراً، بحيث لا يشك فيه أنه جاء بالقرآن، وبمعجزات كثيرة. فإذا هو صادق.

ونبدأ الآن بالكلام على القرآن، وبعد الفراغ منه نشرع في الكلام على غيره من المعجزات إن شاء الله⁴. فإن أنكر منكر أن يكون جاء بالقرآن، فقد تبين عناده، وسقط استرشاده، ويقال له: "قد حصل العلم بذلك لكل الأمم، واستوى في ذلك العرب والعجم، وسبيلك إن كنت منصفاً أن تعاشر المشرعين⁵، وتسألهم عن أخبار الماضين، حتى يحصل لك العلم اليقين. ولن ينازع في ذلك عاقل منصف، [198] بل إما معتوه⁶ أو متعسف⁷.

فإن قيل: سلّمنا⁸ أنه جاء بالقرآن، فلم قلت أنه معجزة؟ قلنا: لأنه قد تحدّى به كافة

1 تسكيناً للنصارى واليهود وتأنيساً، في ك: تسكيناً للنصارى واليهود وتأنيساً.

2 رسول من الله، في ك: أهملت: من الله..

3 لم قلت أنه بالمعجزات، في ك: لم قلت أنه قد جاء بالمعجزات.

4 إن شاء الله، في ك: إن شاء الله تعالى.

5 أن تعاشر المشرعين، في ك: أن تعاشر المتشرعين.

6 المعتوه: الأحمق.

7 المتعسف: الظالم.

8 سلّم: قيل.

الفصحاء البلغاء مدة بقاءه بينهم¹، فلم يقدروا على مُعارضة شيء منه. فإذاً هو معجزة.

بيان ذلك أنه ﷺ بعثه الله إلى قوم كان مُعظم علمهم الكلام الفصيح، البليغ المليح²، فلقد خُصّوا من البلاغة والحكم بما لم يُخصّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من دراية اللسان³ ما لم يُؤتّه إنسان، ومن فصل الخطاب⁴ ما يتعجب منه أولو الألباب.

جعل الله لهم ذلك طبعاً⁵، وخلقه فيهم غريزة ووضعاً. فيأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديهاً في المقامات⁶، وشديد الخطب⁷، ويرتجزون به بين الطعن والضرب.

فربما مدحوا شيئاً وضيعاً فرفع، وربما ذموا شريفاً فوضع، فيصيرون بمدحهم الناقص كاملاً، والنبية خاملاً، وذلك لفصاحتهم الرائقة، وبلاغتهم الفائقة، فكانوا يأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويردونه أعذب من الماء الزلال⁸. فيخدعون بذلك الألباب، ويُذللون الصعاب، ويُذهبون الأحق⁹، ويُهيجون الفتن، ويجرّون الجبان، ويسطون يد الجعد البنان.

فهم يعرفون أصناف الكلام، ما كان منه نثراً وما كان ذا نظام. قد عمروا بذلك أزمانهم، وجعلوا ذلك مهمتهم وشأنهم، حتى بلغوا منه أعلى الرتب، وأطلّوا منه على كل غاية وسبب، لا ينازعهم في ذلك منازع، ولا يدافعهم عن ذلك مدافع.

فبينما هم كذلك، إذ جاءهم رسول كريم بقرآن حكيم، فعرضه عليهم وأسمعهم إياه، واستدلّ على صدقه بذلك. وقال لهم: "إن كنتم في شك من صدقي، فأتوا بقرآن مثله"¹⁰. وعند سماعهم له، راعهم ما سمعوا، وعلموا أنهم دون معارضته قد انقطعوا، فلم

1 البلغاء مدة مقامه بينهم، في ك: البلغاء ومدة مقامه بينهم.

2 المليح: الجميل.

3 الدراية: المعرفة والعلم.

4 فصل الخطاب: ما يتفصل به الأمر من الخطاب.

5 الطبع: النشأة والعادة.

6 فيخطبون بديهاً في المقامات، في ك: فيخطبون بدلها في المقامات.

7 الخطب: الحال والشأن.

8 ويردونه أعذب من الماء الزلال، في ك: ويوردونه أعذب من الماء الزلال.

9 ويذهبون الأحق، في ك: ويذهبون الأحن.

10 انظر قوله تعالى في سورة الطور الآيتين 33-34: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِدَلٍّ لَا يَزْمِنُ الْوَاقِعُ لَنَا تَأْوِيلًا وَحَدِيثَ عَلَيْهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

يقدرُوا على ذلك. ثم إنه طلب منهم أن يأتوا بعشر سور من مثله¹ فعجزوا ولم يقدرُوا. ثم طلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله²، فلم يستطيعوا. وعند ذلك، أخبرهم، وقال لهم: ﴿لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] يعني عوناً. فعند ذلك ظهر عجزهم وتبلُّدُهم، وإن كانوا هم اللسان³ الفصحاء، اللد البلقاء. وعند ظهور عجزهم، تبين حجته، ووضحت محجته.

وهكذا حال غير واحد من الرسل، ألا ترى أن الله أرسل⁴ موسى بن عمران إلى قوم كان معظم علمهم وعمَلهم السحر، فأيده بقلب العصا حيَّة تسعى⁵. فرام السحرة معارضته [199] ومقاومته، فلم يقدرُوا من ذلك على شيء. وعند عجزهم، تبين صدقه، وأنه رسول من الله⁶.

وكذلك عيسى عليه السلام بعثه الله في زمان، كان معظم علم أهله الطب، فأيده بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص⁷. وعند عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك، تبين صدقه، وأنه رسول من عند الله، فعُلم بهذا البرهان الذي لا يتطرق إليه خلل أن محمداً رسول قد خلت من قبله الرسل⁸.

فإن قيل: "لا نسلم أنه لم يعارض، بل لعله عورض ولم يُنقل، أو نُقل فأخفي".

1 بعشر سور من مثله، في ك: بعشر سور مثله. انظر قوله تعالى في سورة هود الآية 13: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

2 بسورة من مثله، في ك: بسورة مثله. انظر قوله تعالى في سورة البقرة الآية 23: ﴿وَلَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. وفي سورة يونس الآية 38: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

3 اللسان: الفصحح المحسن الكلام.

4 أن الله أرسل، في ك: أن الله تعالى أرسل.

5 انظر قوله تعالى في سورة طه الآيات 19-21: ﴿قَالَ أَفَلَا يَتُوبُونَ ﴿٢٠﴾ فَلَقْنَاهَا فَوَافَا مِنْ حَيَّةٍ كَتَمَتْ ﴿٢١﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَخِرْنَا بِهَا وَاللَّهُ يَكْتُبُ الْآيَاتِ﴾.

6 وأنه رسول من الله، في ك: وأنه رسول من عند الله.

7 انظر قوله تعالى في سورة آل عمران الآية 49: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِجُ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وفي سورة المائدة الآية 110: ﴿وَإِذْ أَخْلَقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُخْرِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ خَلَقْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ نَارِ طِينٍ﴾.

8 أن محمداً رسول، في ك: أن محمداً رسول الله.

والجواب من وجهين: أحدهما أننا نقول لليهود والنصارى: هذا السؤال ينقلب عليكم في معجزات موسى وعيسى، إذ يمكن أن يقال أن ساحراً من السحرة عارض موسى¹، وأنه أتى بعضاً، فقلبها ثعباناً أعظم من ثعبان موسى، والتقم ثعبان موسى.

ويمكن أن يقال للنصارى أن عيسى² عورض في إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ولم يُنقل إلينا، أو نُقل فأخفي. وكذلك نقول لغير اليهود والنصارى من الأمم في معجزات أنبيائهم، فبالذي ينفصلون عن معجزات أنبيائهم، به بعينه نفصل عن معجزات نبينا عليه السلام.

وجملة ما قيل في جواب هذا: لو عورض لنُقل، إذ العادات تقتضي ذلك، فإن هذا الأمر مهم عظيم، تكثر العناية به، فيكثر نقله، لا سيما في شريعتنا. فإنهم قيل لهم: إن لم تصدقوا³ ولم تعارضوا فأذنوا بحرب. فلما لم يؤمنوا ولم يعارضوا قاتلهم، فقتلهم وسبى ذراريهم⁴، وانتقم منهم غاية الانتقام. فلو قدروا على المعارضة لعارضوا، ولو عارضوا لنُقل نقلاً متواتراً، فإن هذا الأمر من أهم المهمات عند العقلاء.

الوجه الثاني من الجواب: وهو الانفصال الحق، والكلام الصدق أن نقول: من وقف على القرآن وسمعه، وفهم معانيه، وكان عارفاً بأصناف كلامهم، علم عجز الخلائق عن الإتيان بمثله ضرورة كما يعلم عجز الأطباء عن إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، بنفس العلم بهذه الأمور والوقوف عليها.

وكذلك من شاهد قلب العصا ثعباناً ميبناً يتلقف⁵ ما جاءوا به من السحر والتخييلات، حصل له العلم القطعي بأن قلب العصا ثعباناً يعجز عنه الخلائق أجمعون، إذ ذاك خارج عن مقدورهم.

فإن قيل: إحياء الموتى، وقلب العصا، وما تنزل منزلتهما⁶ جلّي لا يُشك فيه من شاهده

1 عارض موسى، في ك: عارض موسى عليه السلام.

2 أن عيسى، في ك: أن عيسى عليه السلام.

3 إن لم تصدقوا، في ك: إذ لم تصدقوا.

4 سبي ذراريهم: أسر ذريتهم.

5 تلَقَف: تناول بسرعة.

6 وما تنزل منزلتهما، في ك: وما ينزل منزلتها.

علم¹ بالإضافة إلى كل العقلاء، لا يبقى معه ريب لأحدهم، بل يحصل لهم العلم القطعي بذلك. وليس كذلك ما ادّعاه نبيكم من إعجاز القرآن، إذ لا يحصل العلم بإعجازه لكل أحد، [بل إنما يحصل العلم بذلك عندكم]²، وعلى زعمكم للفصحاء من العرب.

وأما من ليس فصيحاً أو [200] [كان] أعجمياً لا يفقه لسان العرب، فلا يحصل له العلم بإعجازه. فإن العجمي³ لو كُلف أن يتكلم بكلمة واحدة من لسان العرب، لم يقدر على ذلك. فعدم قدرته على ذلك، لا يدل على صدق المُتحدّى به. وكذلك من ليس فصيحاً من العرب، لو كُلف أن يأتي بكلام فصيح لم يقدر عليه، فلا يكون ذلك معجزاً في حقه.

الجواب أن نقول: سنين إن شاء الله وجوه إعجازه، وأنها متعددة، وأن منها ما يدركه السجّلي⁴، ويشارك في معرفة إعجازه أهل الحضارة والفلا⁵، فيكون هذا النوع كقلب العصا وإحياء الموتى.

ولو سلمنا جدلاً أنه معجز من حيث بلاغته، وأسلوبه المخالف لأساليب كلامهم فقط، لقلنا: إن العلم بإعجازه، وإحياء الموتى، وقلب العصا لا يحصل لكل العقلاء على حد سواء، ولا في زمان واحد. بل يحصل ذلك لمن علم وجه إعجاز ذلك الشيء المعجز، حين يعرف أنه ليس مما يُدرَك⁶ بحيلة⁷ بشرية، ولا يُتوصل إلى ذلك بالاطلاع على خاصية.

وقد لا يبعد أن تقوم شبهة عند جاهل بصناعة الطب والسحر، تمنعه من تحصيل العلم بالإعجاز، فيقول: لعل موسى اطلع من السحر على شيء لم يعلمه السحرة، ولا اطلعت عليه.

وكذلك عيسى، لعله وقع على خاصية بعض الأحجار، أو بعض الموجودات، فكان يفعل بها ما ظهر على يديه⁸. وهذه الشبهة إنما يمكن أن تطرأ للجاهل⁹ بالطب والسحر. وأما

1 من شاهده علم، في ك: من شاهده عام.

2 بل إنما يحصل العلم بذلك عندكم، أهملت في الأصل، ووجدت في ك.

3 فإن العجمي، في ك: فإن الأعجمي.

4 الجفلي، في الأصل: الجفلاء، وفي ك: الجفلا، والصواب ما كتبه. والجفلا: الجماعة من الناس.

5 الفلا: الأرض الواسعة المقفرة.

6 أنه ليس مما يدرك، في ك: أنه مما ليس يدرك.

7 بحيلة، في ك: بحيلة.

8 ما ظهر، في ك: ما يظهر.

9 إنما يمكن أن تطرأ للجاهل، في ك: إنما يمكن أن تظهر للجاهل.

العالم بالطب والسحر، فلا تكون هذه شبهة في حقه، لعلمه الذي حصل له بالذوق¹ والممارسة بأن الذي جاء به هذا ليس مما يدرك² بحيلة صناعية، ولا بالوقوف على خاصية، بل هو صنع خالق البرية، وأنه أراد به التصديق لهذا المدعي والشهادة واليقينية.

فحصل من هذا أن العلم بإعجاز إحياء الموتى، وقلب العصا إنما يحصل أولاً للسحرة والأطباء، ولا يحصل لكثير من الجهال بالطب والسحر الأغبياء. فكذلك إعجاز القرآن ولا فرق، حصل العلم به لمن يعلم لسان العرب³ بالذوق، وبضرورة الفرق⁴ الذي بينه وبين لسان العرب، فعلم أنه ليس داخلاً تحت مقدور العرب، وإذا عجز عنه العرب الفصحاء واللد البلقاء، فغيرهم أعجز.

كما أننا نقول: إذا عجز الأطباء عن إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فغير الأطباء أولى، وإذا عجز السحرة عن قلب العصا ثعباناً، فغير السحرة أعجز وأعجز.

وقولهم: "إنما يعجز عنه العرب لا العجم" معارض بأن يقال لهم: إنما يعجز عن إحياء الموتى، الأطباء لا غيرهم، وإنما يعجز [201] عن قلب العصا، السحرة لا غيرهم، فبالذي ينفصلون به، تنفصل، بل نزيد عليهم في الانفصال بوجوه ترفع الإشكال، فإننا سنبدي وجوهاً في إعجاز القرآن يدركها كل إنسان، عجمياً كان أو عربياً، مجوسياً كان أو كتابياً، وسنبينها إن شاء الله إثر هذا.

فقد حصل من هذا الكلام كله العلم بأن محمدًا ﷺ جاء بالقرآن وتحدى به، وهو معجزة. وكل من جاء بالمعجزة وتحدى بها فهو صادق. فالنتيجة معلومة وهي أن محمدًا ﷺ صادق.

فإن قيل: فبينوا لنا وجوه إعجاز القرآن، وهل هو من جنس ما يقدر عليه البشر فصرفوا عنه، أو ليس من جنس ما يقدرون عليه؟

فالجواب أن نقول: ذهب بعض علمائنا إلى أن وجه إعجازه إنما هو من جهة أن صرفوا

1 الذوق: هنا بمعنى الاختبار والتجربة.

2 ليس مما يدرك، في ك: مما ليس يدرك.

3 لمن يعلم لسان العرب، في الأصل: بمن يعلم لسان العرب، وفي ك: لمن يعلم لسان العرب، وهذا هو الصواب.

4 وبضرورة الفرق، في ك: وبضرورة الفرق.

عن الإتيان به، وأنه من جنس مقدور البشر، لكن لم يقدروا عليه. وهذا إن كان، فهو بليغ في الإعجاز. وذلك أن المعجزات ضربان: ضرب خارج عن مقدور البشر، كانفلاق البحر¹، وانشقاق القمر²، ونبع الماء من بين الأصابع³. وضرب يكون من جنس مقدور البشر، إلا أنهم يُمنعون من فعله، ولا يقدرون عليه.

فلو أن نبياً ادّعى أنه رسول الله، واستدل على صدقه بأن قال لقومه: "آيتي أن لا تقدرُوا⁴ اليوم على القيام"، فكان ذلك، فهذا دليل صدقه، وهو معجزة جلية، أبلغ في الإعجاز من الإتيان بما ليس بمقدور. ولا يبعد أن يكون إعجاز القرآن من هذا القبيل، فإن البشر قد صرفوا عن الإتيان بمثله، بل عن الإتيان بآية طويلة من آياته. ومن نازع⁵ في ذلك، فعليه أن يأتي⁶ بقرآن مثله، أو بسورة من مثله، وهذا من خصائص نبينا ﷺ. وذلك أن معجزته موجودة بعده، وحاضرة مشاهدة في كل وقت، لم تنقطع بانقطاع وجوده، ولا ماتت بموته. بل هي موجودة مستمرة إلى قيام الساعة، فكل من أبدى نكيراً في نبوته، أو قدحاً في رسالته، قلنا له: إن كنت صادقاً في تكذيبك له⁷، فعارض قرآنه ومُنزله، فإن لم يفعل⁸ تبين العقلاء منه أنه متوابع مبطل.

ثم نقول: والذي ذهب إليه أكثر علمائنا أن القرآن خارج عن مقدور البشر، وليس من جنس مقدورهم، وأن القرآن وإن كان كلاماً، فليس بينه وبين كلام العرب من المناسبة والالتقاء إلا ما كان بين الحية التي انقلبت عصا موسى عنها، وبين حيات السحرة التي كانت

1 انظر قوله تعالى في سورة الشعراء الآية 63: ﴿فَأَنجَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالظَّوِيرِ الْغَاطِيَةِ﴾، وسفر الخروج الاصحاح 16: 14: "وارفع أنت عصاك ومُد يدك على البحر وشُقّه، فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة".

2 انظر قوله تعالى في سورة القمر الآيات 1-2: ﴿أَفَرَأَيْتِ اللَّيْلَ أَفَرَأَيْتِ الْبَحْرَ أَفَرَأَيْتِ الْفَجْرَ وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ ﴿١﴾ إِنَّ يَوْمَ تَأْتِي سَاعَ الْبَحْثِ يَوْمَ لَا تَكُونُ الْفُجْرُ مُمْسِكًا وَلَآ الْبَحْرُ مُغِيًّا ﴿٢﴾﴾، وصحيح البخاري، كتاب المناقب، باب انشقاق القمر، رقم الحديث 3581، وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، رقم الحديث 5015.

3 انظر صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة، رقم الحديث 164، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، رقم الحديث 4224.

4 أن لا تقدرُوا، في ك: ألا تقدرُوا.

5 ومن نازع، في ك: ومن تنازع.

6 فعليه أن يأتي، في ك: فعليه بأن يأتي.

7 في تكذيبك له، في الأصل: في تكذيبك لك، وفي ك: في تكذيبك له، وهذا هو الصواب.

8 فإن لم يفعل، في ك: فإن لم تفعل.

يُخَيَّل¹ للناظر إليها أنها حيّة تسعى².

ووجوه إعجازه [202] كثيرة، لكننا نبدي منها أربعة، ونقتصر عليها لبيانها وظهورها:

الوجه الأول: فنقول إن لسان العرب مباين للسان غيرهم، ومتميز عنه بأمور يعلمها العارفون بالألسنة واللغات، ولا يشكون فيها. ومن غلط في ذلك وأنكره، فعليه أن يتعلم لسان العرب وألسنة غيرهم، حتى يحصل له الفرق بينه وبينها ذوقاً ومشاهدة ضرورية.

وتلك الأمور التي باين بها غيره من الألسنة خفة اللفظ على اللسان وعذوبته، وسهولة المخارج، والتعبير عن المعنى الدائر في الضمير بأبلغ عبارة، وأوضح تفسير. وكما تميز لسان العرب عن لسان غيرهم، فكذلك تميز لسان محمد³ رسول الله ﷺ بأساليب أخرى، ومناهج لم تكن العرب قبله تستعملها على نحو ما استعملها هو، حتى أن من لم يعرف كلام رسول الله ﷺ [و] سمعه وكان عريباً يفرق بينه وبين كلام غيره من الفصحاء، فإنه برز⁴ على بلاغة البلغاء، ونيف⁵ في حكمته⁶ على جميع الحكماء، وكذلك كانت العرب تقول له: "ما رأينا بالذي هو أفصح منك".

وهذه المناهج المعروفة في كلامه إنما يعرفها على التحقيق من باشر كلامه، وتبّعه وتفهمه، وكان عارفاً بلسان العرب. وكما تميز كلامه عن كلام العرب وزاد عليهم، فكذلك يتميز⁷ كلام الله عن كلامه بأساليب أخرى، حتى أنه كان إذا تكلم بكلامه أذكر⁸ الفرق بينه وبين كلام الله حين يتلوه ويتكلم به، حتى كان العاقل الفصيح إذا سمعه قال: "ليس هذا من كلام البشر، ولا مما يقدر⁹ون عليه"، وسنذكر ما نُقِل إلينا عن فصحاءهم لما سمعوا القرآن.

1 يخيل، في ك: تخيل.

2 حية تسعى، في ك: أنها حيات تسعى. انظر قوله تعالى في سورة الأعراف الآية 117: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾، وفي سورة الشعراء الآيات 43-45: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ اقْنُطْ مَا لَنَّمُ تُلْقُونَ﴾ ﴿فَالْقَوْمَ جَاثِمِينَ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بَعْدَ وَرَعَنَّا وَإِنَّا لَكَاثِمُونَ﴾ ﴿فَالْقَوْمَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

3 وكما تميز لسان العرب عن لسان غيرهم، فكذلك تميز لسان محمد، في ك: وكما تميز لسان العرب عن لسان غيرهم، كذلك غير لسان العرب، فكذلك تميز لسان محمد.

4 فإنه برز، في ك: فإنه يبرز.

5 نيف: زاد.

6 ونيف في حكمته، في ك: نيف في حكمته.

7 فكذلك يتميز، في ك: فكذلك تميز.

8 ولا مما يقدر⁹ون، في ك: ولا مما تقدر⁹ون.

فمن الوجوه الذي به مايز القرآن كلام النبي¹ وكلام العرب: فصاحته الرائقة، وبلاغته الموثقة²، وجزالته الفائقة، حتى تسمع الكلمة الواحدة منه تجمع معاني كثيرة، مع عذوبة إيرادها، وجزالة مساقها، وصحة معانيها، مثل قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]. ولما نزلت هذه الآية، قال أبو جهل وكان من أشد الأعداء على محمد خير الأنبياء: "إن رب محمد لفصيح".

وهذه الآية بما تضمنت من الأحكام وتفسير الحلال والحرام، والإعراض عن أهل الجهل والاجترام، والأمر بالتزام أخلاق الكرام، تدل دلالة قاطعة على أنها كلام العزيز العلام، مع ما هي عليه من اللفظ الجزل الرصين، الذي يروّع قلوب العارفين، ويثليج قلوب القارئین والسامعين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]، ولما سمع [الوليد بن]³ المغيرة⁴ هذه [203] الآية، وكان من أعدائه الذين يريدون إطفاء نوره، وإذهاب بهائه، قال: "والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة⁵، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر مورق، وما يقول هذا بشر".

وهذه الآية قد تضمنت بحكم عمومها، وصحة مفهومها معاني كتب المتقدمين، وشرائع الماضين، وتذكرة الحاضرين، وتخويف المقصرين، وترغيب المجتهدين، مع ما هي عليه من قلة الكلمات، ومع عذوبة المساق والجزالات.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: 52].

حكى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بينما هو يوماً نائم في المسجد، إذ

1 كلام النبي، في ك: كلام النبي ﷺ.

2 وبلاغتها الموثقة، في ك: وبلاغته الموثقة.

3 هو الوليد بن المغيرة وليس المغيرة كما ورد في الأصل. انظر الشفا للقاضي عياض، ص 365.

4 هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، والد خالد بن الوليد وأحد أشراف قريش. كان على قيد الحياة حين أشرق نور الإسلام لكنه لم يعتنقه، بل كان من أشد أعداء رسول الله ﷺ، وقد ظل على كفره إلى أن مات في

السنة الأولى من الهجرة / 622. انظر الأعلام، ج 8 ص 122.

5 الطلاوة: الرونق والحسن.

وقف على رأسه رجل يتشهد بشهادة الحق، واستخبره،¹ فقال: "إني كنت من بطارقة² الروم، وكنت ممن يحسن كلام العرب وغيرهم، فسمعت أسيراً من المسلمين يقرأ آية من القرآن، فتأملتها فإذا هي قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، ثم قرأ عليه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾"³ [النور: 52]. الآية المتقدمة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

حكى أن الأصمعي سمع كلام جارية⁴ من العرب، فتعجب من فصاحتها، فقالت: "وهل بعد قول الله تعالى فصاحة، حيث قال ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾" [القصص: 7]، فإنه قد جمع في آية واحدة بين أمرين⁵ ونهيين⁶، وخبرين⁷ وبشارتين⁸.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94].

حكى أن أعرابياً لما سمعها سجد، فقيل له: "لم سجدت؟". فقال: "سجدت لفصاحتها"⁹.

ولا يظن الجاهل أننا نستدل على فصاحته بكلام هؤلاء الأعراب، كلا! لو كان ذلك، لكانت الحجة أضعف من السراب، بل نعلم أنه معجز بفصاحته علم ضرورة، يحصل لنا¹⁰ عند سماعه وقراءته. و[عند] البلغاء إذا وقفوا عليه وسمعوه، لذلك العلم مضطرون، بحيث لا يرتابون ولا يشكون.

1 واستخبره، في ك: فاستخبره.

2 بطارقة: ج. بطريق وهو قائد من قواد الروم، كما يقال أيضاً لرئيس رؤساء الأساقفة.

3 ومن يطع الله ورسوله، في ك: ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه.

4 سمع كلام جارية، في ك: سمع جارية.

5 الأمرين هما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و﴿فَكَلَّمْنَاهُ﴾.

6 النهيين هما: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ و﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾.

7 الخبرين هما: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ و﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ﴾.

8 البشارتين هما: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ و﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

9 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 365.

10 يحصل لنا، في ك: تحصل لنا.

كيف والعربي الفصيح إذا سمع قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي آلَاءَ رَبِّ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]، وقوله¹: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأُذِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: 51]، وقوله²: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34]، وقوله³: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِلْ يَأَرْضُ أَبْغِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءُ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ [204] وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]، وقوله⁴: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِّظُلْمِهِمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40].

ومثل هذا كثير، قضى من هذه البلاغة والجزالة ومثانة هذه المعاني العجب، وعُلم أن مثل هذا لا يقدر عليه أحد من العجم ولا من العرب.

وما عسى أن يقال في كلام ذي الجلال؟ إذ هو أفضل الكتب⁵ ومصدق خير الرسل، ولو كانت البحار مداداً، وجميع الجن والإنس كُتَاباً، ما بلغوا معشاره، ولا قدرُوا مقداره. قال الله العظيم⁶ في كتابه الكريم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109].

فهذا هو الوجه الأول.

الوجه الثاني: من وجوه إعجاز القرآن نظم⁷ العجيب وأسلوبه الغريب، الذي خالف به أسلوب كلام العرب⁸، حتى كأنه ليس بينه وبينه نسب ولا سبب. فلا هو كمنظوم كلامها، فيكون شعراً موزوناً، ولا كمنثوره فيكون نثراً عرياً، عن الفواصل محروماً. بل تشبه رؤوس آية وفواصله قوافي النظم ولا تدانيها، وتخالف آية متفرقات النثر وتناوئها، فصار لذلك

1 وقوله، في ك: وقوله تعالى.

2 وقوله، في ك: وقوله تعالى.

3 وقوله، في ك: وقوله تعالى.

4 وقوله، في ك: وقوله تعالى.

5 إذ هو أفضل الكتب، في ك: إذ هو أصدق الكتب.

6 قال الله العظيم، في ك: قال الله تعالى العظيم.

7 نظم القرآن: لفظه وأسلوبه.

8 خالف به أسلوب كلام العرب، في ك: خالف به جميع أسلوب العرب.

أسلوباً خارجاً عن كلامهم، ومنهاجاً خارقاً لعادة خطابهم. وذلك أن كلام بلغاء العرب لا يخلو إما أن يكون موزوناً منظوماً، أو غير موزون ولا منظوم. فالأول هو الشعر، وهو أصناف وأنواع بحسب اختلاف أعاريضه، والثاني هو النثر.

والقرآن العزيز خارج عن الصنفين، مفارق للنوعين. فارق الشعر بأنه ليس موزوناً وزنه، فتكسره لفظة زائدة، ولا مرتبطاً ربطه حتى تفسده مخالفة قافية واحدة في الوقوف عليه. وأوضح شاهد، وأقطع لشبهة كل معاند.

وها أنا أتلو عليكم معشر النصارى بعض آياته، ليتحقق المنصف صدق شهاداته. قال الله العظيم، في محكم كتابه الكريم: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا ۖ ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً ۖ لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۖ ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ۖ ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا [205] مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ ﴿٢٤﴾ وَهَرَبَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۖ ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ ﴿٣١﴾ [مريم: 16-31].

ثم بعد ذلك أخذ في أسلوب يخالف هذا¹، فقال²: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ ۖ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ ﴿٣٦﴾ [مريم: 34-36].

هكذا إلى أن فرغ من هذا النمط، ثم شرع في نمط آخر على ما يعرفه من وقف عليه

1 في أسلوب يخالف هذا، في ك: في أسلوب يخالف هذا.

2 فقال: في ك: فقال تعالى.

وتدبره. وإنما تلونا هذه الآيات على الخصوص في هذا المقام، لما تضمنته من الأخبار¹ عن عيسى ومريم عليهما السلام، حتى يعلم النصارى بطلان ما تقوله عليهما² من الكذب والأوهام.

فانظر إن كنت عاقلاً منصفاً كيفية هذا النظم الشريف، البديع المنيف، كيف عادل بين رؤوس الآي بحروف تشبه القوافي وليس بها، والتزمها ثم عدل عنها³ إلى غيرها، مع أن السورة واحدة، بخلاف ما يفعل الشاعر، فإنه إذا خرج إلى قافية أخرى بطل شعره، وخرج إلى شعر آخر⁴، وبخلاف ما يفعل النائر، فإنه لا يلتزم قوافي ولا فواصل.

والقرآن العزيز ذو آيات لها فواصل ومقاطع، ورؤوس تشبه القوافي، فقد عرفت أنه خالف نظم كلام العرب ونثره⁵. فهو منهاج آخر، وأسلوب لم تكن العرب تعرفه. ولما سمعته العرب ووعته، لم يتحدث قط واحد منهم بأنه يقدر على معارضة آية منه. بل حارت فيه عقولهم، وتدهت⁶ دونه أحلامهم.

ولذلك قال الوليد بن المغيرة لمأقريش: "يا معشر قريش! إنه قد حضر موسم الحج، وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم، ولا بد أن يسألوكم عنه، فماذا تقولون لهم؟ فأجمعوا⁷ فيه رأياً واحداً، لئلا تكذبكم العرب إذا اختلفتم فيه".

فقالوا⁸: "نقول إنه كاهن". فقال لهم: "والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان، فما هو بزممة⁹ الكاهن ولا سجعه".

قالوا: "فنقول إنه [206] مجنون". قال: "والله ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه، والله ما هو بخنقه ولا تحالجه، ولا وسوسته".

1 لما تضمنته من الأخبار، في ك: لما تضمنته من الأخبار.

2 ما تقوله عليهما، في ك: ما يقوله عليهما.

3 عدل عنها: حاد عنها وتركها.

4 بخلاف ما يفعل الشاعر، فإنه إذا خرج إلى قافية أخرى بطل شعره، وخرج إلى شعر آخر، أهملت في ك.

5 كلام العرب ونثره، في ك: كلام العرب ونثرها.

6 تدلّه: تحيّر.

7 أجمعوا: أي اتفقوا على رأي واحد.

8 فقالوا، في الأصل: فقولوا، وفي ك: قالوا، والصواب هو ما كتبه.

9 بزممة، في الأصل: بزمرة، في ك: بزممة، وهذا هو الصواب. والزممة هو صوت مبهم من الخيشوم لا يتحرك فيه لسان.

قالوا: "فنقول: إنه شاعر". قال: "ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رَجَزُه¹ وهَزَجُه²، ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر". قالوا: "فنقول: إنه ساحر". قال: "ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بِنَفْثِه³ ولا عقده، وما أنتم قائلون شيئاً من هذا إلا كذبتكم العرب، وعرفت أنه باطل".

قالوا: "فما تقول أنت؟". قال: "والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لمثمر، وإن أقرب القول فيه أن نقول⁴: إنه ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه"⁵، يعني أن هذا تقبله العرب، فإنها لا تعرف السحر. فعملوا على أن يقولوا: إنه سحر، ففعلوا. وفي الوليد أنزل الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا¹¹ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا¹² وَبَنِينَ شُهُودًا¹³ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا¹⁴﴾ [المدرثر: 11-14].

فانظر كيف عرفوا أنه ليس من جنس كلامهم، ولا من جنس كلام الكهنة ولا السحرة، ولم يمنعهم من الإيمان به إلا ما سبق لهم من الشقاوة والعناد والحسد والجفوة. وكذلك قال لهم عتبة بن ربيعة لما سمع سورة ﴿حَمْدًا¹ تَنْزِيلًا مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ²﴾ [فصلت: 1-2]، قال: "والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة"، وقد تقدم بكما له⁷، فلينظر هنالك⁸.

وكذلك قال أنيس⁹ أخو أبي ذر الغفاري¹⁰، وكان شاعراً مُفْلِقًا¹¹ يناقض الشعراء¹²

1 الرَجَز: بحر من بحور الشعر.

2 وهزجه، في الأصل: ومزجه، في ك: وهزجه، وهذا هو الصواب. والهَزَج هو بحر من بحور الشعر.

3 بنفثه، في الأصل: بنفثته، وفي ك: بنفثه، وهذا هو الصواب، ونَفَثَ بمعنى نفخ.

4 أن نقول، في ك: أن تقولوا.

5 انظر قصة الوليد بن المغيرة مع قريش في: سيرة ابن هشام، ج 2 ص 105-106، والشفاء للقاضي عياض، ص 369-371، والروض الأنف، ج 2 ص 21.

6 سورة، أهملت في ك.

7 وقد تقدم بكما له، في ك: فقد تقدم بكما له.

8 فلينظر هنالك، في ك: فلينظر هناك.

9 هو أنيس بن جُنادة بن سفيان الغفاري، أخو أبي ذر الغفاري. كان شاعراً معروفاً. انظر الإصابة، ج 1 ص 88.

10 هو جُنْدَب بن جُنادة بن سفيان الغفاري، صحابي جليل. يقال عنه أنه الخامس في اعتناق الإسلام، توفي في 32 / 652. انظر دائرة المعارف، ج 1 ص 118، والأعلام، ج 2 ص 136-137.

11 الشاعر المُفْلِق: الشاعر الذي يأتي بالروائع والعجائب في شعره.

12 ناقض الشاعر الشاعر: قال أحدهما قصيدة فنقضها آخر عليه ردّاً على ما فيها.

ويعارضهم. فلما سمع القرآن، قال لأخيه أبي ذر: " لقد سمعت قول الكهنة فيما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقرأء الشُّعرا¹ فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحد يدَّعي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون"².

والأخبار الصحاح في هذا المعنى أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب، فقد اتضح من هذا الوجه ومن الذي قبله أن القرآن العزيز معجز بمجموع فصاحته ونظمه، وقد تبين أنهما وجهان متغايران.

ثم هل كل واحد من هذين الوجهين معجز بانفراده، أو إنما يكون معجزاً باجتماعهما؟ هذا فيه نظر، ولعلمائنا فيه قولان، ليس هذا موضع استيعابهما، ولا حاجة بنا في هذا الكتاب إلى بيانها، إذ قد عرف وتحقق أنه بفصاحته ونظمه معجز، ومن تشكك في ذلك أو أبدى فيه مراء³ بعد الوقوف على القرآن، فهو منكر لما هو ضروري. والذي يبطل عناده، ويظهر صميم جهله أن يُقال له: [207] " أتت بسورة من مثله".

والله وليّ التوفيق، وهو بتنوير قلوب أوليائه حقيق.

الوجه الثالث: من وجوه إعجاز القرآن ما تضمنه من الأخبار بالمغيبات قبل أن يحيط أحد من البشر بعلمها، وبوقوع كائنات قبل وجودها. وذلك أمر لا يُتوصل إلى العلم به إلا من جهة الصادقين الذين يخبرون عن الله تعالى، ونحن نذكر منها مواضع على شرط التقريب والاختصار، تغني عن التطويل والإكثار.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: 27]. فهذه الآية من أوضح معجزاته ﷺ، وذلك أن الله⁴ وعده بأن يُدخله المسجد الحرام هو وقومه في حالة أمن، ويفتح عليهم مكة على أحسن حال. فما زالوا ينتظرون ذلك حتى بلغ وقته، وصدق وعده، فدخلوا كما وعدهم، وفتحوه على ما أخبرهم.

1 أقرأء الشُّعرا: أوزانه.

2 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 371-372.

3 مراء، في ك: أمراً، والمراء يقصد به الشك كما يقصد به المجادلة والمناظرة..

4 وذلك أن الله، في ك: وذلك أن الله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾¹ هو الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾ [الصف: 8-9].¹

فإن قيل: "كيف يصح لكم قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، ومعلوم أن ملك النصارى لم ينقطع في حياته ولا بعد موته، وهذا ملكهم قائم، فلم يظهر دينكم على دينه، فلا معنى لقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾".

الجواب أن الله² بعث محمداً ﷺ إلى الناس كافة، وإلى جميع أهل الملل عامة: نصرانيهم ويهوديهم وغير ذلك. فبلغهم ما أمره الله به فكلّمهم، ناصبوه العداوة³، وأبدؤا له صفحة الخلاف، وهموا بإخمال دعوته⁴، وإطفاء كلمته، وبذلوا في ذلك غاية جدهم، واستفرغوا أقصى جهدهم، فنصبوا لحربه، وعزموا على قتله ونهبه، ومرسله يقول له: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

وأول من حاربه⁵ كفار قريش، فأظفروه الله بهم وأظفروه عليهم. ثم حاربتهم يهود، فأمكنه الله منهم، وملّكهم أرضهم وديارهم، فقتل وسبى وأسر، فعلا عليهم وظهر. ثم حاربتهم النصارى، فغزاهم بتبوك، ودخل عليهم بلادهم، وافتتح في طريقه حصوناً لهم ولغيرهم، وأظفروه الله عليهم، وضرب على كثير من ملوكهم الجزية.

ثم إن أصحابه بعده، لم يزالوا على مثل حاله، يقاتلون كل من كفر بالله، ولا يخافون لومة لائم في الله. فلقد صيروا ملوك الروم وغيرهم أذلة، أهل صغار وجزية وذلة. ثم لم يزل دين الإسلام مع مرور الأيام، ينتشر بكل مكان ويظهر، وغيره من الأديان يقل ويصغر.

1 يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، في الأصل: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، وفي ك: يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وهذا هو الصواب لورودها هكذا في القرآن.

2 أن الله، في ك: أن الله تعالى.

3 ناصبوه العداوة، في ك: فناصبوه العداوة.

4 بإخمال دعوته، في ك: بإبطال دعوته.

5 وأول من حاربه، في ك: فأول من حاربه.

وحسبك شاهداً على ذلك فتح هذه الجزيرة الأندلسية على يد جماعة من العرب، قليل عددهم وعددهم، كثير دينهم ومددهم على أعداد من النصارى لا تحصى، وجنود لا تستقصى. ولكن صدق الله عبده، وأنجز وعده، وهزم الأحزاب وحده، فأمكنهم الله منكم، وأظهرهم عليكم. فأجدادكم عندهم بين أسير وقتيل، وتحت صغار الجزية ذليل.

وأصدق شاهد على ظهور دين الإسلام على دينكم وجميع الأديان، غلبتهم على بيت حجكم، وموضع قرايبكم: البيت المعظم¹ والمسجد المكرم: بيت المقدس، حيث أراد الله أن يطهره من رذائلكم، [209] وينزله عن جهالتكم² وخباثتكم. فافتتحه المسلمون، وظهر دين الله على الدين كله ولو كره الكافرون.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَرَّيْهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53]. وقوله: ﴿فِي الْآفَاقِ﴾، يريد بذلك فتح الأمصار، وقوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾³، يعني به فتح مكة، وقوله: ﴿سَرَّيْهُمْ﴾، يرجع إلى كفار قريش.

ولذلك قال النبي ﷺ: "إن الله زوى⁴ لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيلغ ما زوي لي منها"⁵،⁶ ومعنى زوى جمع.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَهَرُّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45]. يريد بذلك، وهو أعلم⁷، جمع كفار قريش، وكذلك فعل بهم. وذلك أنهم خرجوا إلى حربه ﷺ في غير موطن، فهزمهم الله، وولوا الأدبار، وكانت عاقبتهم الخسار والوبار.

وكذلك قال⁸ في آيات أخر: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ أَلْمِهَآءُ﴾ [آل عمران: 12]، وفي آية أخرى: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يَوْمَئِذٍ يَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنْهُمْ أَكْثَرًا﴾ [آل عمران: 111].

1 وموضع قرايبكم البيت المعظم، في ك: وموضع قرايبكم المعظم.

2 عن جهالتكم، في الأصل، عن جهالتكم، وفي ك: عن جهالاتكم، والصواب ما كتبه.

3 وفي أنفسهم، في الأصل: في أنفسهم، وفي ك: وفي أنفسهم، وهذا هو الصواب لأنها هكذا وردت في الآية.

4 زوي: جمع وطوى.

5 ما زوي لي منها، في ك: ما زوي منها.

6 انظر صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث 5144،

وسنن الترمذي، كتاب الفتن والملاحم، باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثاً في أمته، رقم الحديث 2102.

7 وهو أعلم، في ك: والله أعلم.

8 وكذلك قال، في ك: وكذلك قال تعالى.

فهذه الآية، اقتضت بشارتين: إحداهما أنهم لن يصلوا إلى أصحاب النبي بضر أكثر من السب. والثانية أنهم يُغلبون ويُولُّون الأدبار. وكذلك كان على نحو ما أنزله ذو العزة والسلطان.

والآيات في القرآن بهذا النوع¹ كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ﴾ [الحجر: 9]، يعني بالذكر القرآن العزيز.

أخبرنا الله² في هذه الآية أنه أنزله، وأنه تولى حفظه. وهذا كتاب الله محفوظ بحفظه، لا يقدر أحد على تغيير كلمة واحدة من لفظه على كثرة من سعى في تغييره، وإطفاء نوره³، لا سيما القرامطة، فإنهم كانوا قد أجمعوا كيدهم، واستنفدوا في تغييره وتحريفه جهدهم. ولم يزل ذلك⁴ دأبهم، ودأب غيرهم من أعداء الدين، وعتاة الملحدين. ويأبى الله إلا أن يُعلي كلمته⁵، ويُظهر شريعته⁶. وقد قدمنا أسباب حفظ القرآن، فلا معنى لإعادتها مع الأحيان.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿٩٦﴾ [الحجر: 95-96].

كان هؤلاء المستهزئون نفراً من الكفار، معروفون بأعيانهم وأسمائهم، يُنفرون الناس عنه ويؤذونه ويهزءون به. فأنزل الله على نبيه هذه الآية، يُشره بإهلاكهم وهم أحياء⁷. فكان سبب إهلاكهم من أعجب آيات النبي ﷺ، وذلك أنه كان منهم الأسود بن عبد المطلب، رمى في وجهه النبي ﷺ بورقة خضراء فعمي.

ومنهم الأسود بن عبد يغوث⁸، أشار إليه النبي ﷺ فاستسقى بطنه⁹، فمات حابئاً¹⁰.

1 بهذا النوع، في ك: لهذا النوع.

2 أخبرنا الله، في ك: أخبرنا الله تعالى.

3 وإطفاء نوره، في ك: فأطفأ نوره.

4 ولم يزل ذلك، في ك: ولم يزل كذلك.

5 ويأبى الله إلا أن يُعلي كلمته، في ك: ويأبى الله إلا أن تعلي كلمته.

6 ويظهر شريعته، في ك: وتظهر شريعته. انظر الشفا للقاضي عياض، ص 376.

7 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 379.

8 هو الأسود بن خلف بن عبد يغوث القريشي. يقال إنه اعتنق الإسلام يوم فتح مكة. انظر الإصابة، ج 1 ص 91.

9 استسقى بطنه: اجتمع في جوفه سائل لا يكاد يبرأ منه.

10 الحابئ: من انتفخ بطنه من داء ما. انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 257.

ومنهم الوليد بن المغيرة، أشار النبي ﷺ إلى أثر جرح كان بأسفل كعبه، كان أصابه قبل ذلك بسنين¹ [210] من خدش سهم²، وكان قد برأ فتجدد، حتى قتله الله به³.
 ومنهم العاصي بن وائل⁴، أشار النبي ﷺ إلى أخمص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف، فرماه حماره على الأرض، فدخلت في أخمص رجله شوكة، فقتلته⁵.
 ومنهم الحارث بن الطلالة، أشار النبي ﷺ إلى رأسه، فاستحال دمه قيحاً، فقتله⁶.
 فانظر بعقلك هذه الأمور العجيبة، وهذه الأحوال الغريبة التي لا تلحق بالأفكار، ويحار فيها أولي الأبصار، بل تشهد عندها العقول أن المقصود بها تصديق الرسول. فوالله، لو لم يكن له من المعجزات إلا هذه الآية، لكان فيها أعظم كفاية، ويحصل من تصديقه⁷ على أبعد غاية.

وفي كتاب الله من هذا القبيل ما يحتاج استقصاؤه إلى تكثير وتطويل. وحسبك ما تضمنه من كشف أسرار المنافقين، وفضيحة اليهود الضالين. فلقد يقضي الناظر فيها من ذلك العجب العجائب، ويتحقق أنه من عند الله، من غير شك ولا ارتياب.

الوجه الرابع: من وجوه⁸ إعجاز القرآن، ما تضمنه من الأخبار عن الأمم السالفة، والقرون السالفة⁹، والشرائع الدائرة¹⁰، والقصص الغابرة التي لا يعلم منها بعضها إلا الآحاد من علماء ذلك الشأن، الذين قد انقضت¹¹ لهم في تعلم تلك العلوم أزمان. فيورده النبي ﷺ في القرآن على وجهه، ويأتي به على نضه، فيعترف العالم بصحته، وتصديق قصته،

1 أصابه قبل ذلك بسنين، في ك: أصابه قبل ذلك بسنتين.

2 من خدش سهم، أهملت في ك.

3 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 257.

4 هو العاصي بن وائل بن هاشم السهمي، أحد أشرف قريش قبل إشراق نور الإسلام، ظل على كفره ومات كافراً في السنة الثالثة قبل الهجرة / 620. انظر الأعلام، ج 3 ص 247.

5 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 257، وسيرة ابن إسحاق ص 254.

6 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 257، وسيرة ابن إسحاق ص 254.

7 ويحصل من تصديقه، في ك: ولحصل من تصديقه.

8 من وجوه، في ك: في وجوه.

9 والقرون السالفة، في الأصل: والقرون التالية، وفي ك: والقرون السالفة.

10 الدائرة: القديمة.

11 قد انقضت، في ك: قد انقضت.

مع العلم بأن النبي ﷺ لم ينل ذلك بتعليم، ولا اكتسب ذلك بواسطة معلم ولا حكيم، بل حصل له ذلك بإعلام العزيز العليم. وإلا فهو أُمي، لا يقرأ ولا يكتب، ولا يتفقه ولا يحسب، ومع ذلك فقد حصلت له علوم الأولين والآخرين، وصار كتابه وكلامه منبع علوم العالمين.

فلقد كان أهل الكتاب يجتمعون إليه، ويلجئون بالأسئلة عليه، فينزل عليه بأجوبتهم القرآن. فما ينكر شيئاً من ذلك منهم إنسان، بل يعترف بذلك، ولا ينكر شيئاً مما يسمع هنالك، هذا مع شدة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه، وهو مع ذلك يحتاج عليهم بما في كتبهم، ويقرعهم بما انطوت عليه مصاحفهم، ويبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من شرائع كتبهم، ووصايا رسلهم، وهم مع ذلك يرومون تعنيته¹، ويقصدون بأسئلتهم تبكيته²، مثل سؤلهم عن الروح³، وعن ذي القرنين⁴، وعن أصحاب الكهف⁵، وعن عيسى ابن مريم، وعن حكم الرجم⁶، وعن ما حرم إسرائيل على ما نفسه⁷، وعما حُرّم عليهم من الأنعام ومن طيبات أحلت لهم، [211] فحرمت عليهم بغيهم⁸، وغير ذلك من أمورهم التي نزل القرآن جواباً عنها، فلم ينكروا شيئاً منها حين ذكرها لهم على وجهها⁹. ونحن نذكر بعض ذلك على ما يقتضيه الاختصار¹⁰، ونقتصر على ما صحّ من الآثار، وتناقله الجمع الكثير من رواة الأخبار.

1 يرومون تعنيته، في الأصل: يرومون تعنيته، في ك: يرومون تعنيته.

2 ويقصدون بأسئلتهم تبكيته: أي يريدون إذلاله وغيظه وإحراجه.

3 انظر قوله تعالى في سورة الإسراء الآية 85: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

4 انظر قوله تعالى في سورة الكهف الآية 83: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

5 انظر قصتهم في سورة الكهف من الآية 9 إلى 26.

6 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ آلَهُمْ وَهُمْ يَبْلُغُونَ﴾.

الآية 146، رقم الحديث 3363، ومسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث 4269.

7 انظر قوله تعالى في سورة آل عمران، الآيات 93 و 94: ﴿كُلُّ الطَّيَارِ كَانَ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

من قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّورَةُ فَلْهَؤُلَاءِ بِالْتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَتَذَرْتُمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾

8 انظر قوله تعالى في سورة النساء الآيات 160-161: ﴿وَيُظَاهِرُ مِنَّا الدَّيْثَ قَدْ خَرْنَا عَلَيْهِمْ طَبَقَاتٍ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصْدِهِمْ عَنْ سُبُلِ اللَّهِ

كثيراً﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنَّا وَأَكْبَهُمْ آمَوَى النَّاسِ الْبَاطِلُ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

9 انظر الشفا للقااضي عياض، ص 379-381.

10 على ما يقتضيه الاختصار، في ك: على ما يقتضيه الاختصار.

فمن ذلك ما استفاض ذكره، واشتهر نقله أن قريشاً لما أهمهم شأن رسول الله ﷺ، وأكرهم أمره، بعثوا النضر بن الحارث، وكان من شياطين قريش، وعقبة بن أبي معيط¹ إلى أحبار يهود بالمدينة يسألانهم عن أمره². فجاءا المدينة من مكة، وقالا لأحبار يهود: "إنا جئناكم نسألکم عن شأن هذا الرجل، فإنکم أهل الكتاب، وعندکم من العلم ما ليس عندنا".

ووصفا لهم أمره، وأخبراهم³ ببعض قوله، فقالت لهما أحبار يهود: "سلوه عن ثلاثة، نأمرکم بهن، فإن أخبر بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، فروا فيه رأيکم. سلوه عن فِئَةٍ ذهبوا في الدَّهر الأول، ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طَوَّاف في الأرض، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وما كان نبأه، وسلوه عن الروح، ما هو. فإن أخبرکم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو مُتَقَوِّل".

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فأعلماهم بما قالت لهم أحبار يهود، فجاءوا رسول الله ﷺ فسألوه عما أخبرتهم أحبار يهود⁴، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ سورة أصحاب الكهف، وأخبرهم فيها بقصتهم، واختلاف الناس في عددهم، ومدة لبثهم في كهفهم، حتى أتى على آخر قصتهم⁵، وأخبرهم أيضاً عن قصة ذي القرنين إلى آخرها⁶، وعن قصة الخضر مع موسى⁷، وكيف سأل موسى السبيل إلى لقائه⁸، وذكر فيها جوابهم عن الروح⁹، وذلك كله مع اللفظ الوجيز الفصيح، والكلام الجزل الصحيح، الذي لا يَمَلُّه سامع، ولا يطمع في معارضته طامع.

1 هو عقبة بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس، أحد أشد أعداء الإسلام والمسلمين. تم أسره وقتله في غزوة بدر. انظر الأعلام، ج 4 ص 240.

2 يسألانهم عن أمره، في ك: يسألانهم عن أمره.

3 وأخبراهم، في الأصل: وأخبراه، وفي ك: وأخبراهم، وهذا هو الصواب.

4 عما أخبرتهم أحبار يهود، في ك: عما أخبرت أحبار يهود.

5 انظر قوله تعالى في سورة الكهف الآيات 9-26.

6 انظر سورة الكهف الآيات 82-94.

7 عن قصة الخضر مع موسى، في ك: عن قصة الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام.

8 انظر سورة الكهف الآيات 64-81.

9 لم يرد الجواب عن الروح في سورة الكهف بل في سورة الإسراء، انظر قوله تعالى في هذه الأخيرة الآية 85.

ومن ذلك قصة أهل نجران، وكانوا نصارى سألوا رسول الله ﷺ عن عيسى عليه السلام، فأنزل الله تعالى في القرآن: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 58-59].

ومن ذلك أن نفراً من أحبار يهود جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: "يا محمد! أخبرنا عن أربع نسألك عنهن، فإن فعلت اتبعناك وصدقناك، وآمنا بك". فقال لهم رسول الله ﷺ: "عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، لئن أخبرتكم [212] لتصدقنني؟". قالوا: "نعم". قال: "فاسألوا عما بدا لكم".

قالوا: "أخبرنا كيف يشبه الولد أمه، وإنها النطفة من الرجل؟". فقال لهم رسول الله ﷺ: "أنشدكم بالله وأيامه³ عند بني إسرائيل، هل تعلمون نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فأيتهما غلبت كان الشبه لها"⁴. قالوا: "اللهم نعم". قالوا: "فأخبرنا عن نومك، كيف هو؟". قال: "أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل⁵، هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به، تنام عينه وقلبه يقظان". فقالوا⁶: "اللهم نعم". قال: "وكذلك نومي، تنام عيني وقلبي يقظان".

قالوا: "فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟". قال: "أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها، فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله، فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها". قالوا: "اللهم نعم".

قالوا: "أخبرنا عن الروح". قال: "أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمونه جبريل، وهو الذي يأتيني؟". قالوا: "اللهم نعم، ولكنه يا محمد لنا عدو. هو ملك إنما يأتي

1 انظر هذه القصة في سيرة ابن هشام، ج 3 ص 79-80.

2 فقال لهم رسول الله ﷺ، في ك: فقال لهم.

3 أنشدكم بالله وأيامه، في ك: أنشدكم بالله وبأيامه.

4 كان الشبه لها، في ك: كان لها الشبه.

5 عند بني إسرائيل أهملت في ك.

6 فقالوا، في ك: قالوا.

7 قالوا فأخبرنا، في الأصل، قالوا فأخبره، وفي ك: قالوا فأخبرنا، وهذا هو الصواب.

بالشدة وسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك". فأنزل الله¹ على نبيه²: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97]. ومن ذلك أن يهوديين بالمدينة زنيا، فأمرت أحبار يهود بهما، فحكما فمروا بهما على رسول الله ﷺ، فقال لهما: "ما هذا؟ أهكذا تجدون في كتابكم؟". قالوا: "نعم". فكذبهم وقال: "فائتوا بالتوراة، فاتلوها إن كنتم صادقين".

فجاءوا بالتوراة، فتلوها، فإذا فيها آية الرجم³، فوضع الذي كان يقرؤها يده عليها، وقرأ ما قبلها وما بعدها⁴. فقال له عبدالله بن سلام: "ارفع يدك". فرفعها فإذا بآية الرجم، فاعترفوا بذلك، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، ثم قال لليهود: "ما حملكم على هذا؟" فقالوا: "كنا إذا زنى الشريف منا لم نقم عليه الحد⁵، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد، فعظم علينا هذا، فرأينا أن نجتمع على حد يشمل الضعيف والشريف". فقال رسول الله ﷺ: "الحمد لله الذي جعلني أول من أحيا أمر الله"⁶، نقلته بالمعنى.

فأنزل الله عز وجل⁷: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، و ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45] و ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47]⁸، وفي هذا المعنى وما قاربه، نزل [213] قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 15].

1 فأنزل الله ، في ك: فأنزل الله تعالى.

2 على نبيه، في ك: على نبيه ﷺ.

3 انظر سفر التثنية الاصحاح 22: 22-29.

4 وقرأ ما قبلها وما بعدها، في ك: وقرأ ما بعدها وما قبلها.

5 إذا زنى الشريف منا لم نقم عليه الحد، في ك: إذا زنى الشريف منا عندنا لم نقم عليه الحد.

6 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍَ قَبِيلٍ أُولَئِكَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 177]، ومسنود أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث 4269.

7 فأنزل الله عز وجل، في ك: فأنزل الله تعالى.

8 ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والظالمون، والفاسيقون، في الأصل: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون والكافرون والفاسيقون، وفي ك: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والظالمون، والفاسيقون، وهذا هو الصواب، لأنها توجد في القرآن بهذا الترتيب: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"، ثم "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون"، ثم "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون".

والأخبار في هذا كثيرة، ليس هذا موضع استيعابها¹. وفيما ذكرناه كفاية لمن كان ذا عقل ودراية.

وهذان وجهان لا يتصور أن ينكر عاقل أنها غير داخِلين تحت مقدور البشر، بل هما خارقان للعادة، اقترنا بتحدي محمد ﷺ، وعجز الخلاق عن معارضتهما. فهو نبي صادق فيما أخبر به عن الله، مصدق من جهة الله. ومما أخبر به عن الله أن الله² بعثه إلى الناس كافة، يهوديهم ونصرانيهم ومجوسيهم. فهو رسول إليهم، وإلى الناس كافة وعامة³. ومن كذبه فقد استحق العذاب الأبدي، والعقاب السرمدي: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: 19].

ولا يظن الظان⁴ أن إعجاز القرآن إنما هو من هذه الأوجه⁵ الأربعة فقط، بل وجوه إعجازه أكثر من أن يحصيها عدد، أو يحيط بها أحد. ولو شئنا لذكرنا منها وجوهاً كثيرة، لكن شرط الاختصار منع من الإكثار، ومن لم ينفعه الكلام المفيد القليل، فهو معرض كسل عن الكثير.

وعلى الجملة، فإننا نقول لمن كذب محمد ﷺ أو شك في رسالته، ما قال الله تعالى في كتابه مُحْتَجًّا على من أصرَّ على تكذيبه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾²³ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾²⁴ [البقرة: 23-24].

1 ليس هذا موضع استيعابها، في ك: ليس هذا موضع استيفائها.

2 أن الله، في ك: أن الله تعالى.

3 وإلى الناس كافة وعامة، في ك: وإلى كافة وعامة.

4 ولا يظن الظان، في ك: ولا يظن ظان.

5 من هذه الأوجه، في ك: من هذه الوجوه.

النوع الرابع

في الاستدلال على نبوة محمد ﷺ بجملة

من الآيات الخارقة للعادات

نذكر إن شاء الله في هذا الباب¹، جملة كثيرة من آياته الواضحة، وبراهينه المصدقة الراجعة، فنقول وبالله التوفيق أن نبينا محمدًا ﷺ أوتي من المعجزات، وُجِّع له من الآيات ما لم يُجمَع لأحد من الأنبياء قبله، ولم يُعط أحد مثله. فكان لذلك أوضحهم دلالة، وأعمهم رسالة. ولذلك، لم يُعط الله نبيًّا من الأنبياء معجزة إلا أعطى نبينا محمدًا ﷺ مثلها، أو أوضح منها، أو ما يقاربها². وسترى ذلك عياناً إن شاء الله³.

ولكننا إن ذهبنا نذكر ما نُقل إلينا من آياته وواضح⁴ معجزاته، طال الكتاب، وفي القليل الواضح كفاية لذوي الألباب. فلنقتصر من ذلك على ما تناقله علماء الأمصار والعدول من نقلة الأخبار، مما صح نقله، واشتهر ذكره وحمله⁵، ونحن نذكر ذلك في فصول:

[214] الفصل الأول في انشقاق القمر آية له ﷺ:

فنقول: نقل خلفنا عن سلفنا النقل الذي لا يُشك فيه أن كفار قريش سألوا رسول الله ﷺ آية وهو بمنى، فأراهم انشقاق القمر، فصار فرقتين حتى رأوا جبل حراء بينهما⁶.

وقال ابن مسعود: "صار فرقتين: فرقة فوق الجبل وفرقة تحته". فقال النبي ﷺ: "اشهدوا". فأمن وصدق من أراد الله نجاته.

وقال كفار قريش: "هذا سحر مستمر". فقال أبو جهل: "هذا سحر! فابعثوا إلى أهل

1 نذكر إن شاء الله في هذا الباب، في ك: نذكر في هذا النوع إن شاء الله.

2 انظر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي: مقامع الصلبان، تحقيق عبد المجيد الشرفي، تونس، STAG، 1975، ص 103.

3 إن شاء الله، في ك: إن شاء الله تعالى.

4 وواضح، في ك: وأوضح.

5 وحمله، في ك: وحمله.

6 حتى رأوا جبل حراء بينهما، في ك: حتى رأوا جبل حراء بينهما.

الآفاق حتى تنظروا¹ أرواً ذلك أم لا". فأخبر أهل مكة أنهم رأوه منشقاً.
 فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسَقَّ الْقَمَرُ ۖ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝﴾ [القمر: 1-3]. وهذا الحديث قد نقله الجهم الغفير، والعدد الكثير²، منهم من الصحابة عبد الله بن مسعود³، وأنس، وابن عباس، وابن عمر⁴، وحذيفة⁵، وعلي، وجُبَيْر بن مُطْعِم⁶، وغيرهم⁷.

وقد نُقِلَ إلينا في القرآن نقلاً متواتراً، محصلاً للعلم، يخبر عن ذلك المعنى من الانشقاق كما تلوناه أنفأ، فصحت الآية، وعلمت المعجزة⁸ والحمد لله.

فإن قال غبي جاهل أو معاند مجادل: "كيف يصح هذا؟ ولو كان هذا لم يُخَفَّ على أهل الأرض، إذ هو شيء ظاهر لجميعهم، ولو ظهر إليهم لنقل عنهم⁹، ولكان مشهوراً منقولاً على التواتر.

فالجواب أن نقول: هذا الاستبعاد الوهمي يندفع بأيسر أمر، وذلك أن هذه الآية كانت آية ليلية، والناس على عاداتهم المستمرة الغالب عليهم النوم. ومن كان منهم متبهاً، كان منهم

1 حتى تنظروا، في ك: حتى تنظر.

2 انظر حديث انشقاق القمر في صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب انشقاق القمر، رقم الحديث 3364، 3365، 3579، 3580، وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، رقم الحديث 5010 و 5011.

3 هو عبد الله بن غافل بن حبيب بن مسعود، صحابي جليل وخادم رسول الله ﷺ. كان من بين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام أول من قرأ القرآن في مكة بأعلى صوته. توفي في 32 / 653. انظر دائرة المعارف، ج III ص 897-899.

4 هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، صحابي جليل. هاجر إلى المدينة قبل والده عمر بن الخطاب رضي الله عنه. منعه الرسول ﷺ من المشاركة في غزوتي بدر وأُحُد لصغر سنه، لكنه شارك في فتح مكة. توفي في 73 / 693. انظر دائرة المعارف، ج I ص 55-56.

5 هو حذيفة بن جَسَل بن جابر، صحابي جليل. عينه عمر بن الخطاب والياً على المدائن بفارس. توفي في 36 / 656. انظر الأعلام، ج 2 ص 171.

6 هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل القرشي، صحابي جليل. كان أحد أشرف قريش وأحد علمائهم. توفي في 59 / 679. انظر الأعلام، ج 2 ص 112.

7 وغيرهم، في ك: وغيرهم رضي الله عنهم.

8 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 396-399.

9 لنقل عنهم، في ك: انتقل عنهم.

من قد انصرف عن ذلك ببعض أشغالهم. وكان منهم أيضاً من رآه على ما حكيناه عن أهل آفاق مكة¹، وأيضاً فلعله إنما كان ذلك في أول طلوع القمر. ولا شك أن الناس تختلف رؤيتهم للقمر² وغيره من الكواكب بحسب اختلاف ارتفاع البلاد والأقاليم وانخفاضها. فليس كل مَنْ في معمور الأرض يراه في وقت واحد، بل يختلف ذلك في حقهم. فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين³، وقد يطلع على قوم لا يشاهده الآخرون⁴، وقد يحول⁵ بين قوم وبينه سحب أو جبال.

ولهذا تجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض، وتكون⁶ في بعضها جزئية، وفي بعضها كلية، وفي بعضها لا يعرفها إلا المشتغلون بعلم ذلك، ولا يحس [215] بها غيرهم، لا سيما وهذه آية كانت بالليل، والعادة من الناس ما تقدم من الهدوء والسكون، وإيجاف الأبواب⁷ وقطع التصرف، ولا يكاد يعرف شيئاً من آيات السماء إلا من رصد⁸ واهتبل⁹.

وكثيراً ما يُحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار وشهب ونجوم طوالع عظام، تظهر في أحيان من السماء، ولا علم عند أحد غيرهم منها. وانشقاق القمر من هذا القبيل، إذ لم يكن دائماً، وإنما كان يسيراً في زمن قريب.

ثم لا يبعد أن يكون الله تعالى صرف الناس في تلك الساعة عن النظر إليه، لتختص هذه الآية بمشاهدة أهل مكة، ومن جاورها من أهل آفاقها. فيكون صرف الناس عن ذلك من قبيل خوارق العادات، وذلك أوضح في المعجزات. فقد صح ما رُمناه، وانفصلنا عما ألزمناه، والحمد لله.

وعند الوقوف على هذه المعجزة الظاهرة، والآية الباهرة، تعلم أنها أعظم من انشقاق

1 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 399-400.

2 للقمر، في الأصل: للغير، وفي ك: للقمر، وهذا هو الصواب.

3 على آخرين، في الأصل: على خزانين، وفي ك: على آخرين، وهذا هو الصواب.

4 لا يشاهده الآخرون، في الأصل: لا يشاهدها الآخرون، وفي ك: لا يشاهده الآخرون، وهذا هو الصواب.

5 وقد يحول، في الأصل: وقد يجعل، وفي ك: وقد يحول، وهذا هو الصواب، لأن "يحول" تفيد المعنى أكثر من "يجعل".

6 وتكون، في ك: ويكون.

7 إيجاف الأبواب: إغلاقها.

8 رصد: هنا بمعنى تتبع حركة الكواكب، ومنه كلمة الأرصاد الجوية.

9 اهتبل: اغتنم.

البحر الذي خص الله به موسى¹، وإن كان عظيماً. إذ انشقاق البحر لم يكن قطعاً في معظم البحر، من إحدى ضفتيه إلى الأخرى، وإنما كان قطع طريق من بحر القلزم إلى مفازشور²، والقمر انقسم فلقين³، وصار شطرين.

الفصل الثاني في حبس الشمس آية له ﷺ:

روى أئمتنا وأهل العدالة منا أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس. فلما ارتفع الوحي عن رسول الله ﷺ، قال له: "يا علي! أصليت العصر؟" قال: "لا". فقال رسول الله ﷺ: "اللهم إنه كان في طاعتك، وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس"⁴. قال الراوي: "فرايتها غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خير".

ذكر هذا الحديث الطحاوي⁵ من طريقين. قال عياض⁶: "وهذان الطريقان ثابتان، رواتهما ثقة"⁷، حكاه البكري⁸.

ومن هذا القبيل ما ذكره يونس بن بكير⁹ في زيادة المغازي، روايته عن ابن إسحاق¹⁰: "لما أُسري برسول الله ﷺ، وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير التي رأى في مسراه،

1 الذي خص الله به موسى، في ك: الذي خص الله تعالى به موسى عليه السلام.

2 مفازشور، في ك: مفازشود.

3 والقمر انقسم فلقين، في ك: والقمر انقسم فرقتين.

4 عليه الشمس أهملت في ك.

5 هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي أبو جعفر، كان فقيهاً حنفياً. وُلد ونشأ في طحا بمصر. له عدة مؤلفات من بينها بيان السنة، أحكام القرآن، مشكل الحديث. توفي في 933 / 321. انظر الأعلام ج I ص 206.

6 هو عياض بن موسى بن عياض أبو الفضل، فقيه ومحدث مغربي مشهور. عُيِّن قاضياً بسبته وغرناطة. مؤلفاته عديدة، وأشهرها هو ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك. توفي في 544 / 1149. انظر الأعلام، ج 5 ص 99.

7 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 400-401.

8 هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، مؤرخ وأديب معروف. توفي في 487 / 1094. انظر ترجمته في دائرة المعارف، ج I ص 159-161.

9 هو يونس بن بكير بن واصل أبو بكر، فقيه ومحدث من أهل الكوفة. توفي في 199 / 815. انظر الأعلام، ج 8 ص 260.

10 هو محمد بن إسحاق بن يسار، أحد أشهر علماء السيرة النبوية. توفي في 150 / 767. انظر ترجمته في دائرة المعارف، ج III ص 834-835.

قالوا له: "متى تحيي؟". فقال لهم: "يوم الأربعاء".

فلما كان يوم الأربعاء الموعد به، أشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار، ولم تحي. فدعا رسول الله ﷺ ربه، فزید له في النهار ساعة، وحبت عليه الشمس¹.

وهذه الآية أعظم من آية² يوشع بن نون³، فإنكم تقولون [216] أن يوشع⁴ استوقف الشمس فوقفت⁵، وفي بعض كتبكم إنما استوقف ضياها. ونبينا عليه السلام استرجعها فرجعت، واستزاد ساعة في النهار فزیدت، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:38].

فإن اعترض معترض على معجزة نبينا هذه⁶ بشيء، فإن كان كتابياً عارضناه بمعجزة يوشع⁷. فبالذي ينفصل عن معجزة يوشع⁸، بمثله نفصل عما اعترض به. وإن كان طبيعياً غير متشرع، انتقل الكلام معه إلى مواضع آخر، ليس هذا موضع ذكرها.

الفصل الثالث: نبع الماء وتكثيره معجزة له ﷺ:

هذا الباب نوعان⁹: نوع نبع له الماء من أصابعه¹⁰، ونوع آخر نبع له الماء من غير أصابعه. فلنبداً بالأول، فنقول: روى الجهم الغفير والعدد الكثير أن النبي ﷺ خرج في بعض أسفاره، وحانت صلاة العصر. فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فقال رسول الله ﷺ: "هل مع أحد منكم ماء؟". فأوتي بماء في إناء، فوضع يده في ذلك الإناء، وسمى الله. قالت الصحابة: "فرأينا الماء يخرج من بين أصابعه". فتوضأ الناس حتى توضأوا كلهم.

1 انظر الشفا للقاظمي عياض، ص 401.

2 أعظم من آية، في الأصل: أعظم من آيات، وفي ك: أعظم من آية.

3 يوشع بن نون، في ك: يشوع بن نون.

4 يوشع، في ك: يشوع.

5 انظر سفر يشوع، الاصحاح 10: 12-13: "حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي ايلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر؟ فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل".

6 هذه، أهملت في ك.

7 يوشع، في ك: يشوع.

8 يوشع، في ك: يشوع.

9 هذا الباب نوعان، في ك: وهذا الفصل نوعان.

10 من أصابعه، في ك: من بين أصابعه.

قيل لأنس: "كم تراهم؟". قال: "نحواً من سبعين"¹. وقد اتفق له مثل هذا مرة أخرى، وكانوا نحواً من ثلاثة مائة².

وكذلك عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة³، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: "ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك".

فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، وكانوا خمس عشرة مائة. قالوا: "ولو كنا مائة ألف لكفانا"⁴، فهذه ثلاثة مواطن.

وقد روي عنه نحو هذا من طرق كثيرة، لا يتطرق لها الكذب، ولم يردها أحد من أهل العقل والأدب، لكونها وقعت في جموع كثيرة، وتناقلها جماعات عديدة، يدينون بتحريم الكذب⁵، ويروونه أقبح شيمة⁶، وأشنع سبب. بل يبادرون إلى ذم الكاذب، وإظهار فضيحته، ولا يُقرون شيئاً من الكذب بحال عند معرفته. فهذا هو النوع الأول.

وأما النوع الثاني، فهو ما تواردت به الروايات عن الأئمة الأثبات. من ذلك ما اتفق له في غزوة تبوك، وذلك أنهم وردوا عيناً بتبوك، وهي تَبَصُّ⁷ بشيء من ماء مثل الشراك⁸. فغرفوا من العين بأيديهم، حتى اجتمع منه شيء قليل. ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه، وأعادها فيها، فجرت بهاء كثير، فاستقى الناس. هذا حديث معاذ¹⁰.

[217] وقال ابن إسحاق: "فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق، ثم قال رسول الله ﷺ: "يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا قد مُلئ

1 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3309، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، رقم الحديث 4224.

2 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3307، ومسنند أحمد، مسند المكثرين، رقم الحديث 12767.

3 الرُّكوة: إناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء.

4 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3311، ومسنند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 13997.

5 بتحريم الكذب، في ك: تحريم الكذب.

6 شيمة، في ك: شبهة. والشيمة: الخُلُق.

7 تَبَصُّ: تسيل.

8 الشراك: النعل، والمراد هنا ماء قليل جداً.

9 ثم غسل رسول الله، في ك: ثم غسل النبي.

10 هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري أبو عبد الرحمان، صحابي جليل. اعتنق الإسلام منذ صغره، شارك في كل الغزوات وتوفي في 18 / 639. انظر الأعلام، ج 7 ص 258.

جَنَانًا"¹. وكذلك صُنِعَ ذلك الموضع جَنَانًا بعده ﷺ، وهذا من باب الإخبار عن الغيب.
ومن ذلك ما اتَّفَقَ له بالحديية أيضاً، وذلك أنهم أتوا الحديية، وهم أربع عشرة مائة،
وبئرها لا تروي خمسين شاة. قال البراء وسلمة بن الأكوع²: "فترحناها فلم نترك فيها شيئاً".
فقعد رسول الله ﷺ على بئرها، فبصق ودعا، وأخرج سهماً من كنانته، فوضعه في البئر،
فجاشت العين بءاء كثير". فأرووا أنفسهم وركابهم، وهم ألف وأربع مائة³.
ومن ذلك ما روى قتادة، صاحب رسول الله ﷺ أن الناس شكوا إليه العطش في بعض
أسفاره. فدعا بالمِيضَاء⁴، فجعلها في ضَبْنِه⁵، ثم التقم فمها، فالله أعلم، نفث فيها أم لا.
فشرب الناس حتى رووا، وملأوا كل إناء معهم، وكانوا اثنتين وسبعين رجلاً⁶.
ومن ذلك الحديث المشهور عن عمران بن حصين، وذلك أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ
في بعض أسفاره، فأصابهم عطش شديد. فوجه رجلين من أصحابه، وأعلمهم أنهم يجدون
امراً بمكان كذا لمكان معين، عينه لهم، معها بغير عليه مزادتا ماء⁷.
فوجداهما بالموضع الذي عُيِّنَ لهم، على الصفة التي ذكر لهم. فجاء بها إلى النبي ﷺ،
فأخذ من ماء المزداتين، وقال فيه ما شاء الله أن يقول، ثم أعاد الماء في المزداتين، ثم فتحهما
وأمر الناس، فملأوا أسقيتهم، حتى لم يدعوا شيئاً إلا ملأوه.
قال عمران: "ويخيل إلي⁸ أنهما لم يزدادا إلا امتلاء".
ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد، حتى ملأ ثوبها، ثم قال لها: "اذهبي، فإننا ما نقصناك
من مائك شيئاً، ولكن الله سقانا"⁹.

- 1 انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، رقم الحديث 4229، وموطأ مالك، كتاب النداء للصلاة، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر والسفر، رقم الحديث 298.
- 2 هو سلمة بن بن عمرو بن الأكوع، صحابي جليل. شارك إلى جانب الرسول ﷺ في غزوات عدة. توفي في 47 / 693.
- 3 انظر الأعلام، ج 3 ص 113.
- 4 انظر مسند أحمد، مسند الكوفيين، رقم الحديث 17828.
- 5 الميضة، في ك: الميضة. والميضة هي التي يتوضأ منها أو فيها.
- 6 الضبن: الإبط وما يليه.
- 7 انظر البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي القليبي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 1985، ج 4 ص 282-286.
- 8 معها بغير عليه مزادتا ماء، في الأصل: معها بغير مزادتا ماء، وفي ك: معها بغير عليه مزادتا ماء، وهذا هو الصواب.
- 9 ويخيل إلي، في ك: ونحيل لي.
- 9 انظر صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب، رقم الحديث 331، وصحيح مسلم، كتاب المساجد =

ومن ذلك حديث عمر في جيش العُسرة¹، وذكر ما أصابهم من العطش، حتى أن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه. فرغب أبو بكر للنبي ﷺ في الدعاء، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فانسكبت فملأوا ما معهم من آنية، ولم يجاوز ذلك المطر العسكرة².

ومن ذلك حديث عمرو بن شعيب³ أن أبا طالب قال للنبي ﷺ، وهو ردفه بذئ المجاز: "عطشت وليس عندي ماء". فنزل النبي ﷺ، فضرب بقدمه الأرض، فخرج الماء، فقال له: "اشرب"⁴.

والحديث في هذا النوع كثير، وفيما ذكرناه [218] كفاية.

وإذا تأمل العاقل المنصف هذا الباب، علم أن نبينا محمداً ﷺ أوتي مثل معجزة موسى، التي هي نبع الماء من الحجر⁵، كما ذكرنا في هذا النوع الثاني، وزاد عليه⁶ نبع الماء من بين أصابعه كما ذكرناه في النوع الأول، فإن انفجار الماء من اللحم⁷ أعجب من انفجاره من الحجارة.

فإن رام اليهودي أو النصراني تشكيكاً في شيء من معجزات نبينا محمد عليه السلام، أو إلحاداً، أو ادّعى أن هذا من قبيل السحر، عارضناه بمثل مقالته في معجزة موسى، فبالذي ينفصل به، بعينه ننفصل.

بل نقول: إن طرق المطرق الجاهل شيئاً من هذه الأوهام والتهم إلى هذه المعجزات

= ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم الحديث 1100.

1 جيش العُسرة: جيش غزوة تبوك.

2 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 408.

3 هو عمرو بن شعيب بن محمد السهمي القرشي أبو إبراهيم، أحد أشهر المحدثين. عاش بمكة وتوفي بالطائف سنة 118 / 736. انظر الأعلام، ج 5 ص 79.

4 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 409-410.

5 إلى هذا يشير قوله تعالى في سورة البقرة الآية 60: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَايَاهُ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُمًا وَاسْتَرْتَابُوا مِنْ رَبِّكَ وَلَا تَكُنَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة الأعراف الآية 160: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَىٰ قَوْمَهُ أَنْتَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾.

6 وزاد عليه، في الأصل: وزد عليه، في ك: وزاد عليه.

7 فإن انفجار الماء من اللحم، في ك: كان انفجار الماء من اللحم.

فمعجزة¹ موسى في انشقاق الحجر أقبل للتهم في حق الجاهل على ما روت اليهود². وذلك أنهم رويوا أن الحجر الذي كان تنفجر منه الأنهار، إنما كان حجراً واحداً يحمله موسى³ حيث صار، وهذا محل تهمة للجاهل، وأما العالم فلا يبالي بهذه الأوهام، ولا يطرق إلى العلم التهم. ومعجزات نبينا ﷺ، إنما كان يقول: "أتتوني بإناء، أي إناء كان، وببإء، أي ماء كان" كما قدمنا. ولسنا ننكر إعجاز ما أتى به موسى، بل نحن أولى وأحق بموسى منكم، وأعرف بقدره وبمحله عند ربه، وإنما هذا لهم على جهة الإلزام، حتى يذعنوا⁴ بصحة معجزات نبينا محمد عليه السلام.

الفصل الرابع: تكثير الطعام معجزة له ﷺ:

من ذلك ما تضافرت به الروايات، واشتهر عند أهل الديانات، ونقله العدول الثقات من حديث أبي طلحة أن النبي ﷺ أطعم ثمانين أو سبعين من أقراص شعير جاء بها أنس تحت إبطه. وذلك أنه ﷺ أمر بها ففتت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول⁵.

وكذلك أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع من شعير وعناق⁶. قال جابر بن عبد الله⁷: "فأقسم بالله لأكلوه حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرْمَتَنَا⁸ لَتَغْطُ⁹ كما هي، وإن عجبتنا لِيُخْبِزَ. وكان رسول الله ﷺ بصق في العجين والبرمة، ودعا بالبركة¹⁰.

1 فمعجزة، في ك: لمعجزة.

2 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 105-106.

3 يحمله موسى، في ك: عمله موسى.

4 حتى يذعنوا، في ك: حتى يزعنوا.

5 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3313، مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، ويتحققه تحققاً تاماً، واستحباب الاجتماع على الطعام، رقم الحديث 3801.

6 العناق: الأنتى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام سنة.

7 هو جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري، صحابي جليل روى كثيراً من الأحاديث عن الرسول ﷺ. شارك في 19 غزوة. توفي في 78 / 697. انظر الأعلام، ج 2 ص 104.

8 البرمة: القدر من الحجارة.

9 تغط: تغلي وتغور.

10 انظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم الحديث 3793، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، ويتحققه تحققاً تاماً، واستحباب الاجتماع على الطعام، رقم الحديث 3800.

وكذلك صنع أبو أيوب الأنصاري¹ لرسول الله ﷺ ولأبي بكر من الطعام زهاء ما يكفيهما. فقال له النبي ﷺ: "ادع ثلاثين من أشراف الأنصار". فدعاهم، فأكلوا حتى تركوه، فم قال: "ادع ستين". فأكلوا حتى شبعوا، ثم قال: "ادع سبعين". فأكلوا حتى تركوه، وما خرج منهم أحد حتى أسلم.

قال أبو أيوب: "فأكل من طعامي مائة وثمانون رجلاً"².

[219] وكذلك حديث سُمرة بن جُنْدُب³ أن النبي ﷺ أتى بقصعة فيها لحم، فتعاقبوا من غدوة حتى الليل، يقوم قوم ويقعد آخرون⁴.

ومن ذلك حديث عبدالرحمن بن أبي بكر⁵ قال: "كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة"، وذكر في الحديث أنه عُجِنَ صاع من طعام، وصُنِعت شاة، فشوي سواد بطنها⁶. قال: "وايم الله⁷، ما من الثلاثين ومائة، إلا وقد حَزَّ له حُرَّة⁸ من سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا أجمعين، وفضل في القصعتين، وحملته على البعير"⁹.

ومن ذلك الخبر المشهور في غزوة تبوك، وذلك أنهم أصابتهم مجاعة شديدة، حتى هموا بنحر حمائلهم. فجمع النبي ﷺ ما بقي من أزواد القوم، فكان الرجل يجيء بكف ذرة وبكف تمر. وبسط نَطْعاً¹⁰ حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعى عليها ﷺ¹¹ بالبركة.

1 هو خالد بن زيد بن كليب أبو أيوب الأنصاري، صحابي جليل. شارك في غزوة بدر وأُحُد والخندق. توفي في 672 / 52. انظر دائرة المعارف، ج 1 ص 111-112.

2 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 94.

3 هو سُمرة بن جُنْدُب بن هلال، صحابي جليل. توفي في 60 / 679. انظر الأعلام، ج 3 ص 139.

4 انظر مسند أحمد، مسند البصريين، رقم الحديث 19276، سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب ما أكرم النبي ﷺ بنزول الطعام من السماء، رقم الحديث 56.

5 هو عبد الرحمان بن عبد الله بن عثمان أبو محمد، اعتنق الإسلام متأخراً شيئاً ما. لم يهاجر مع والده نظراً لصغر سنه، لكنه هاجر بصحبة بعض الشباب القرشي إلى المدينة حيث اعتنقوا الإسلام. انظر الإصابة، ج 2 ص 399-401.

6 سواد البطن: الكبد.

7 وايم الله: كلمة قسم.

8 حَزَّ له حُرَّة: أي أخذ قطعة من الكبد.

9 انظر صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم الحديث 2425، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم الحديث 3832.

10 النَطْع والنَطْع: ساط من الجلد.

11 فدعا عليها ﷺ، في ك: فدعا عليها رسول الله ﷺ.

قال: "خذوا في أوعيتكم". فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه، فقال عند ذلك رسول الله ﷺ: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة"¹.

ومن ذلك خبره في تزويج زينب، وذلك أنه أمر خادمه أنساً أن يدعو له الناس، فدعاهم. فاجتمعوا حتى امتلأ البيت والحجرة، وقدم إليهم تَوْرًا² من حجارة فيه حَيْسٌ³، أهدته إليه⁴ أم سليم⁵. فقال لهم رسول الله ﷺ: "ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه". قال: "فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا. ودخلت طائفة أخرى حتى أكلوا كلهم. وكنت، قال أنس، لم أدع إنساناً إلا دعوته". قال أنس: "ثم قال لي: 'ارفع التَّورَ'، فرفعته، فما أدري حين وضعت، كان أكثر أم حين رفعت؟"⁶.

ومثل هذا اتفق له⁷ في قدح لبن أهدي له⁸.

ومن هذا حديث مِرْزُودٍ⁹ أبي هريرة، وذلك أن الناس أصابتهم مجاعة شديدة في بعض أسفاره، فقال النبي ﷺ لأبي هريرة: "هل من شيء؟". قال: "فقلت¹⁰: نعم. شيء من تمر في المزود". قال: "فأت به".

1 انظر صحيح مسلم، كتاب الإيذان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم الحديث 40، ومسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 9088.

2 التَّور: قدر كبير يصنع من الحجارة وغيرها.

3 الحَيْس: طعام يصنع من التمر المجفف والسمن.

4 أهدته إليه، في ك: أهدته له.

5 هي أم سليم الرومية، ابنة وَلَحَم بن خالد، الذي كان صحابياً جليلاً، والدة أنس بن مالك. بعد وفاة زوجها مالك، رغب في الزواج منها طلحة الذي لا يزال مشركاً، فطلبت منه اعتناق الإسلام كمهر لها، أقنعه بذلك وهده الله لنور الإسلام. توفيت في 30 / 650. انظر الأعلام، ج 3 ص 33.

6 انظر مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 12208.

7 ومثل هذا اتفق له، في ك: ومثل هذا نقوله.

8 أهدي لرسول الله ﷺ قدح لبن، فأمر أبا هريرة الذي كان يعاني من الجوع أن يدعو الناس إليه، ففعل. فشربوا كلهم ومعهم أبو هريرة من ذلك القدح حتى شبعوا. انظر مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 10263، وسنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع، رقم الحديث 2401.

9 المزود: وعاء الزاد.

10 فقلت، في ك: قلت.

فأدخل يده، فأخرج قبضة فبسطها، ودعا بالبركة، ثم قال: "ادْع عشرة". فدعوتهم، فأكلوا حتى شبعوا. ثم لم يزل كذلك حتى أطعم الجيش كله، وقال لي¹: "خذ ما جئت به". فأخذت فأكلت منه، وأطعمت حياته، وحياة أبي بكر وعمر، إلى أن قُتل عثمان، فانتُهب مني، فذهب"².

وقد قيل: "إن ذلك التمر، إنما كان بضع عشرة ثمرة.

والأخبار في هذا الباب كثيرة، يطول الكتاب [220] بنقلها، على أنه لا يجهل شيء منها، بل هي عندنا معروفة، منقولة مشهورة موصوفة.

وهذا النوع من المعجزات، هو من قبيل ما نقلت النصارى عن عيسى عليه السلام في الإنجيل، وذلك أنهم زعموا أنه أطعم من خمس خبز وحتوتين خمسة آلاف رجل سوى النساء³، وهذا أيضاً من قبيل ما ثبت⁴ أن موسى عليه السلام أطعم بني إسرائيل بالمفاز: المن والسلوى⁵.

فإن اعترضت اليهود أو النصارى هذا النوع⁶ من معجزات نبينا عليه السلام، عارضناهم بذلك في معجزات أنبيائهم، وبالذي ينفصلون عن ذلك به بعينه نفصل عن معجزات نبينا.

وعند الوقوف على هذه الفصول، تعلم أن نبينا محمدًا ﷺ أعطاه الله عز وجل من المعجزات مثل ما كان أعطى الأنبياء قبله، وزاده على ذلك. وسنزيد هذا وضوحاً حتى يتبين كون المعاند الجاحد جاهلاً وقيحاً.

1 وقال لي، في الأصل، وقال له، وفي ك: وقال لي.

2 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 110-111، وسنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب أبي هريرة رضي الله عنه، رقم الحديث 3774.

3 انظر إنجيل متى 14: 17-21 وإنجيل يوحنا 6: 9-13.

4 ما ثبت، في الأصل: ما ثبتت، وفي ك: ما ثبت، وهذا هو الصواب.

5 انظر قوله تعالى في سورة طه الآية 80: ﴿يَسِيْرَ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَعْيَتَكَ مِنْ دُونِكَ وَوَعَدْنَاكَ حَبَابَ الطُّورِ الْآتِينَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾.

6 فإن اعترضت اليهود أو النصارى هذا النوع، وفي ك: فإن اعترضت اليهود أو النصارى على هذا النوع.

الفصل الخامس، في كلام الشجر، وكثير من الجمادات، وشهادتها له بالنبوة:

وهذا الفصل تكثر حكاياته، وتتسع رواياته، لكثرة عدد ما رُوي من ذلك¹، وصحة ما اتفق هنالك. وهذا الفصل نوعان:

النوع الأول: قد وردت الأخبار، ونقل عن الأئمة العدول² الأخيار، أن النبي عليه السلام³ كان في بعض غزواته، فدنا منه أعرابي، فقال له: "يا أعرابي! أين تريد؟". فقال: "أهلي". قال⁴: "هل لك في خير منهم؟". قال: "وما هو؟"⁵. قال: "تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله". فقال: "ومن يشهد لك على صحة ما تقول؟". قال: "هذه الشجرة، لشجرة بشاطئ الوادي، فأدعُها، فإنها تحييك". قال: "فدعوتها، فأقبلت تحذ الأرض⁶ حتى وقفت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها⁷.

وقد روي هذا الحديث عن بُرَيْدَةَ⁸، وزاد: قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها، وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها، ثم جاءت تجر عروقها مغبرة⁹ حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: "السلام عليك يا رسول الله!". فقال الأعرابي: "مرها فلترجع إلى هيئتها". فأمرها فرجعت، فدلّت عروقها حيث كانت واستوت.

فأمن الأعرابي¹⁰، وقال: "أئذن لي أسجد لك". فقال عليه السلام: "لو أمرت أحداً أن

1 ما روي من ذلك، في ك: ما روي في ذلك.

2 ونقل عن الأئمة العدول، في الأصل: ونقل عن أئمة العدول، وفي ك: ونقل عن الأئمة العدول، وهذا هو الصواب.

3 أن النبي عليه السلام، في ك: أن النبي ﷺ.

4 قال، في ك: فقال له.

5 وما هو، في ك: ما هو.

6 تحذ الأرض: تشققها وتحفرها.

7 انظر سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر والبهائم والجن، رقم الحديث 16.

8 هو بُرَيْدَةُ بن الحَصْبِيب الأسلمي، صحابي جليل وسيد قبيلة أسلم. اعتنق الإسلام قبل غزوة بدر لكنه لم يشارك فيها. بعد هدايته لنور الإسلام، توجه إلى المدينة كي يكون إلى جانب الرسول ﷺ. توفي في 60 أو 63 / 680 أو 683.

انظر دائرة المعارف، ج I ص 1353.

9 مغبرة، في الأصل: مغبرة، وفي ك: مغبرة.

10 انظر ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب

العلمية، 1988 ص 299-300.

يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لبعليها". [221] قال: "فأذن لي أن أقبل يدك ورجليك". فأذن له¹.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه ظهرت على يديه مثل هذه المعجزة مرات، وطرقها صحاح. بل منها ما هو متواتر على ما حكاه أهل النقل. فقد روي أنه طافت به شجرة، ثم رجعت إلى منبتها، فقال رسول الله ﷺ: "إنها استأذنت أن تسلم"².

وكذلك سأل ربه أن يجعل له آية، فقال: "انطلق³ إلى موضع كذا، فإن به شجرة⁴، فادع منها غصناً فإنه يأتيك". ففعل، فجاء يخط الأرض حتى انتصب بين يديه، فحبسه ما شاء الله أن يحبسه، ثم قال له: "ارجع كما جئت"⁵، فرجع⁶.

وكذلك روي عنه من طرق صحاح، أنه خرج يوماً ليقضي حاجته، فلم يجد بها يستتر، وإذا بشجرتين بشاطئ الوادي. فانطلق رسول الله ﷺ، فأخذ بغصن من أغصانها، وقال لها: "انقادي علي ياذن الله". فانقادت معه كالبعير المدلل، ثم فعل بالأخرى مثل ذلك. وقال: "التمأ علي"، فالتمتا.

فلما قضى حاجته، قال جابر: "فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مقبل، والشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة⁷ منهما على ساقها⁸.

وكذلك روى أسامة بن زيد⁹ مثل هذا في النخيل، وقال فيه: "قال لي: "انطلق إلى هذه النخلات، وقل لهن: إن رسول الله¹⁰ يأمركن أن تأتين لحاجة رسول الله ﷺ، وقل للحجارة

1 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 420-421.

2 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 23-24.

3 انطلق، في الأصل: انطق، وفي ك: انطلق، وهذا هو الصواب.

4 فإن به شجرة، في الأصل: فإن بها شجرة، وفي ك: فإن به شجرة، وهذا هو الصواب.

5 ارجع كما جئت، في ك: ارجع كما كنت.

6 انظر مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 11669، وسنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم الحديث 4018.

7 فقامت كل واحدة، في الأصل: فأقامت كل واحدة، وفي ك: فقامت كل واحدة.

8 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 7-8، والوفا بأحوال المصطفى، ص 298.

9 هو أسامة بن زيد بن حارثة أبو محمد، صحابي جليل. ولد بمكة ونشأ في محيط إسلامي، لكونه لما ولد كان أبوه قد اعتنق الإسلام. هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة. توفي في 54 / 674. انظر الأعلام، ج 1 ص 291.

10 إن رسول الله، في ك: إن رسول الله ﷺ.

مثل ذلك. فقلت ذلك لمن، فوالذي بعثه بالحق، لقد رأيت النخلات يتقاربن ويجمعن، والحجارة يتعاقدن حتى صرن¹ ركاماً خلفه. فلما قضى حاجته، قال لي: "قل لمن أن يفترقن". فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت النخلات والحجارة يفترقن حتى عدن إلى مواضعهن².

وقد حكى الأئمة منهم أبو بكر بن فورك رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ كان في غزوة الطائف ليلاً وهو يسير، فأخذته سنه، فاعترضته سدره، فانفجرت له نصفين حتى جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا، وهي هنالك معروفة معظمة³.

النوع الثاني: نقل خلفنا عن سلفنا نقلاً فاشياً مشهوراً، بحيث لا يشك فيه أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يأكلون مع رسول الله ﷺ الطعام، وهم يسمعون تسبيحه⁴.

وقال أنس: "أخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصي، فسبحت في يده حتى سمعنا تسبيحها، ثم صبهن رسول الله ﷺ [222] في يد أبي بكر، فسبحت كذلك، ثم صبها في أيدينا فلم تسبح⁵".

ورواه أبو ذر، وقال⁶: "إنما سبحت في كف عثمان"⁷.

وقد تواردت الروايات عن الثقات، عن علي أنه قال: "كنا بمكة مع رسول الله ﷺ، فخرج إلى بعض نواحيها، فما استقبله شجرة ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله⁸". وقد روى العباس أن النبي ﷺ غطاه وابنيه بملحفة، ودعا لهم بالستر من النار كستره إياهم بملحفته، فأمنت أسكفة الباب⁹، وحوائط البيت: آمين، آمين¹⁰.

1 والحجارة يتعاقدن حتى صرن، في ك: والحجارة يتعاقدن ويتراكمن حتى صرن.

2 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 25-26.

3 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 425.

4 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3314، والترمذي، كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله عز وجل به، رقم الحديث 3566.

5 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 64-65، والوفا بأحوال المصطفى، ص 329-330.

6 وقال، في ك: قال.

7 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 430-431.

8 انظر سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن، رقم الحديث 21، وسنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله عز وجل به، رقم الحديث 3559.

9 أسكفة الباب: عتبة الباب.

10 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 431.

وقد صحت الأخبار، بل تواترت أن النبي ﷺ لما اتخذ منبره، وصعد عليه وترك¹ الجذع الذي كان يخطب عليه، حن الجذع حين الإبل الفاقدة أولادها حتى تصدع وانشق. فجاء النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكن².

وفي بعض طرقه، قال النبي ﷺ: "إن هذا بكاء لما فقد من الذكر"³.

وفي بعض طرق هذا الحديث أنه لم يزل يسمع له حنين في أوقات، تحزناً على رسول الله ﷺ، فدفن تحت المنبر⁴ على ما في حديث أبي⁵، فأخذه أبي عنده إلى أن أكلته الأرض، وعاد رفاتاً⁶.

وقد روى هذا الحديث بريدة وزاد فيه: فقال النبي ﷺ للجذع: "إن شئت أردك إلى الحائط⁷ الذي كنت فيه، فتنتب لك عروقتك، ويكمل خلقك، ويجدد خوصك⁸ وثمرك، وإن شئت أغرسك في الجنة يأكل منك ومن ثمرك أولياء الله". ثم أصغى له النبي ﷺ يستمع له ما يقول، فقال: "بلى! تغرسني في الجنة، فيأكل مني أولياء الله، وأكون في مكان لا أبلى فيه، يسمعه من يليه". فقال له: "قد فعلت". ثم قال رسول الله ﷺ: "اختار دار البقاء على دار الفناء"⁹.

فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى، وقال: "يا عباد الله! الخشب تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه. فأنتم أحق بذلك، وأن تشتاقوا إلى لقاءه"¹⁰.

وكذلك تواتر أيضاً أن النبي ﷺ كان على جبل أحد مع جماعة من أصحابه، فتحرك بهم

1 وصعد عليه وترك، في ك: وصعد وترك.

2 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3320.

3 انظر مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 13690.

4 فدفن تحت المنبر، في ك: قد فزعت المنبر، وما في ك: ليست له أية علاقة بالموضوع.

5 هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، صحابي جليل. كان من أحبار اليهود قبل أن يعتنق الإسلام. شارك في غزوة بدر وأُخذ والخندق، وكان من بين الذين جمعوا القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه. توفي في 21 / 642. انظر الأعلام، ج 1 ص 82.

6 انظر مسند أحمد، مسند الأنصار، رقم الحديث 20295.

7 الحائط: هنا بمعنى البستان.

8 الخوص: ورق النخيل وما شاكله.

9 انظر سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب ما أكرم به النبي ﷺ بحنين المنبر، رقم الحديث 32.

10 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 429.

الجليل. فقال له النبي ﷺ: "اسكن حراء، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد"².
والأخبار أيضاً في هذا النوع كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية، بل في الواحد من هذه الأخبار
أبلغ غاية.

الفصل السادس، في كلام ضروب من الحيوان، وتسخيرهم، آية له ﷺ:
وهذا [223] الباب أيضاً نوعان³:

النوع الأول: من ذلك ما روي واشتهر عن عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه، إذ جاءه أعرابي قد صاد ضباً، فقال: "ما هذا؟". فقالوا له: "هذا نبي الله ﷺ؟". فقال: "واللآت والعزى، لا آمنت بك حتى يؤمن بك هذا الضب"، وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ. فقال النبي: "يا ضب!"⁴. فأجابه بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعاً: "ليك وسعديك! يا زين من أوفى القيامة". قال: "من تعبد؟". قال: "الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه". قال: "فمن أنا؟". قال: "رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك". فأسلم الأعرابي⁵.
ومن ذلك القصة المشهورة في كلام الذئب، من حديث أبي سعيد الخدري⁶ قال: "بينما راع يرعى غنماً له⁷، عرض الذئب لشاة منها، فأخذها الراعي منه، فأقعى⁸ الذئب، وقال للراعي: "ألا تتقي الله؟ حلت بيني وبين رزقي". قال الراعي: "العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس". فقال الذئب: "ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ رسول الله ﷺ بين الحرتين، يحدث الناس بأنباء ما قد سبق". فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: "قم فحدثهم". ثم قال النبي ﷺ: "صدق"⁹.

1 فقال له النبي ﷺ، في ك: فقال له رسول الله ﷺ.

2 انظر سنن النسائي، كتاب الأحباس، باب وقف المساجد، رقم الحديث 3552، وقد ذكر فيه: شهيدان.

3 وهذا الباب أيضاً نوعان، في ك: وهذا الفصل أيضاً نوعان.

4 فقال النبي، في ك: فقال له النبي ﷺ.

5 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 435-436.

6 هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري، صحابي جليل روى عن الرسول ﷺ أحاديث عديدة. شارك في 12 غزوة

وتوفي في 74 / 693. انظر الأعلام، ج 3 ص 87.

7 يرعى غنماً له، في ك: يرعى غنمه.

8 أقعى: وضع مؤخرته على الأرض ونصب ساقيه.

9 انظر مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 11413، ودلائل النبوة، ج 6 ص 41،

وقد رُوي هذا الحديث عن غير واحد من الصحابة منهم أبو هريرة، وزاد في هذا الحديث: فقال له الذئب: "أنت أعجب. وقفت على غنمك، وتركت نبياً لم يبعث الله قط نبياً أعظم منه عنده قدراً،¹ قد فُتحت له أبواب الجنة، وأشرف أهلها على أصحابه ينتظرون إقبالهم، وما بينك وبينه إلا هذا الشَّعب، فتصير في جنود الله". فقال الراعي: "لو كان لي من يرعى الغنم لمشيت إليه". قال الذئب: "أنا أرهاها حتى ترجع". فأسلم الراعي إليه غنمه، ومضى.²

وذكر قصته وإسلامه، ووجوده مع النبي يقاتل. فقال له النبي ﷺ: "عُدْ إلى غنمك تجدها بوفرها"، فوجدها كذلك، وذبح للذئب منها شاة. وكان هذا الراعي اسمه أهبان بن أوس.³

وقد ذكر مثل هذه القصة عن سلمة بن الأكوع، وأنها كانت سبب إسلامه.⁴

ومن ذلك ما يُحكى أن أبا سفيان بن حرب بينما هو في ملاً من قريش بمكة، إذ بظبي يطرده ذئب، فدخل الظبي الحرم، فرجع الذئب، [224] ففعلوا من ذلك. فقال الذئب: "أعجب من ذلك: محمد بن عبدالله بالمدينة، يدعوكم إلى الجنة، وتدعونه إلى النار. فقال أبو سفيان بن حرب: "واللآت والعُزَى، لئن ذكرتُم هذا بمكة لتتركنها خلوفاً".⁵

ومن ذلك ما رُوي عن أم سلمة: كان النبي ﷺ في صحراء، فنادته ظبية: "يا رسول الله!". قال: "ما حاجتك؟". قالت: "صادني هذا الأعرابي، ولي خُشفان⁶ في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعها وأرجع". قال: "وتفعلين؟". قالت: "نعم". فأطلقها، فذهبت ورجعت فأوثقها، وكان ذلك الأعرابي نائماً. فانتبه وقال⁷ يا رسول الله! ألك حاجة؟".

1 أعظم منه عنده قدراً، في ك: أعظم منه قدراً عنده.

2 في حديث الإمام أحمد أن الراعي ترك غنمه عند بعض أهل المدينة. انظر مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 11413.

3 هو أهبان بن أوس الأسلمي، ويقال أيضاً إنه يسمى وهبان، صحابي جليل وواحد من الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام. توفي في ولاية المغيرة بن شعبة بالكوفة. انظر الإصابة، ج 1 ص 91. انظر قصة الراعي مع الذئب في دلائل النبوة، ج 6 ص 41.

4 انظر قصة الراعي كلها مع الذئب في الشفا للقاضي عياض، ص 436-437.

5 لتتركها، في ك: لتتركها، والخلوف ج. خلف، وهو الجبل بعد الجبل. انظر هذا الحديث في الشفا للقاضي عياض، ص 438-437.

6 الخُشف: ولد الظبية أول ما يولد.

7 وكان ذلك الأعرابي نائماً، فانتبه وقال، في ك: وكان ذلك الأعرابي نائماً، وقال.

فقال¹: "تطلق هذه الطيبة". فأطلقها، فخرجت تعدو في الصحراء وتقول: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله"².

ومن ذلك ما روي من كلام الحمار الذي أصابه بخير، وقال: "اسمي يزيد بن شهاب"، فسماه النبي ﷺ يعفور. وكان يوجهه إلى دور أصحابه، فيضرب عليهم الباب برأسه، ويستدعيهم، وأنه لما مات النبي ﷺ تردى في بئر جزعاً وحزناً، فمات³.

ومن ذلك حديث الناقة التي شهدت بين يدي النبي ﷺ لصاحبها أنه ما سرقها، وأنها ملكه.

النوع الثاني: ما روي عن عائشة، زوج النبي ﷺ أنها قالت: "كان عندنا داجن⁴، فإذا كان عندنا النبي ﷺ قر وثبت مكانه، فلم يحى ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب"⁵.

ومن ذلك ما روى جابر بن عبد الله قال: "جاء رجل، فأمن بالنبي ﷺ وهو على بعض حصون خير، وكان في غنم يربعاها لهم، يعني لأهل خير، فقال لرسول الله⁶: "كيف بالغنم؟". فقال: "احصب وجوهاها، يعني اضربها بالرمل، فإن الله سيؤدي أمانتك، ويردها إلى أهلها"⁷. ففعل، فسارت كل شاة منها حتى أتت أهلها⁸.

ومن ذلك حديث أنس أن النبي ﷺ دخل حائط رجل من الأنصار، ومعه أبوبكر وعمر ورجل من الأنصار، وفي الحائط غنم، فسجدت له. فقال أبوبكر: "نحن أحق بالسجود لك منها"⁹. وذكر الحديث.

ومن حديث أبي هريرة: "دخل النبي ﷺ حائطاً، فجاء بعير، فسجد بين يديه".

1 فقال، في ك: قال.

2 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 34-35.

3 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 443.

4 الداجن: كل ما ألف البيوت وأقام بها من حيوان وطير.

5 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 31.

6 فقال لرسول الله، في ك: فقال لرسول الله ﷺ.

7 وردها إلى أهلها، في الأصل: وتردها إلى أهلها، وفي ك: ويردها إلى أهلها، وهذا هو الصواب.

8 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 439.

9 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 29.

ومن حديث جابر قال: "وكان ذلك الحائط لا يدخله أحد إلا شد عليه ذلك الجمل. فلما دخل عليه النبي ﷺ دعاه، فوضع مِسْفَرَهُ¹ في الأرض، وبرك بين [225] يديه فخطمه²، فقال النبي ﷺ: "ما بين السماء والأرض شيء لا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس"³.
ومن حديث عبد الله بن أوفى⁴ أن النبي ﷺ سأل ذلك الجمل عن شأنه، فقالوا له: "إنهم أرادوا نحره"⁵.

ومن ذلك ما روى ابن وهب أن حمام مكة أظلت النبي ﷺ يوم فتحها، فدعا لها بالبركة.
ومن حديث أنس وزيد بن أرقم⁶ والمغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ ليلة الغار، أمر الله شجرة فنبتت اتجاه النبي ﷺ فسترته، وأمر حمامتين فوقفتا في فم الغار، وأن العنكبوت نسجت على بابه. فلما أتى الطالبون له رأوا ذلك، فقالوا: "لو كان فيه أحد، لم تكن الحمامات ولا العنكبوت". فانصرفوا والنبي ﷺ يسمع كلامهم⁷.

والأخبار في هذا كثيرة شهيرة، وفيما ذكرناه كفاية لمن كان ذا عقل وديانة.

الفصل السابع في إحياء الموتى وكلامهم⁸، وكلام الصبيان والمراضع، وشهادتهم له بالنبوة:

من ذلك الخبر المشهور المذکور عن غير واحد من الصحابة والأئمة، أن يهودية⁹ بخير أهدت لرسول الله ﷺ شاة مشوية فسمتها. فأكل منها رسول الله ﷺ، وأكل القوم معه، فقال: "ارفعوا. فإن هذه الشاة أخبرتني أنها مسمومة".

1 المِسْفَرُ: شفة البعير الغليظة.

2 خَطَمَ الجمل: جعل على أنفه الزمام.

3 انظر سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن، رقم الحديث 18، ومسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 13814.

4 هو علقمة بن خالد بن الحارث أبو معاوية، صحابي جليل شارك في الحديبية وفي 6 أو 7 غزوات. روى أحاديث عديدة عن الرسول ﷺ، ويقال عنه أنه آخر من توفي من الصحابة، وكان ذلك في 80 / 699. بالكوفة. انظر الأعلام، ج 2 ص 271.

5 انظر سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن، رقم الحديث 17.

6 هو زيد بن أرقم الأنصاري، صحابي جليل شارك في 17 غزوة، وتوفي بالكوفة في 68 / 687. انظر الأعلام، ج 3 ص 56.

7 انظر مسند أحمد، مسند بني هاشم، رقم الحديث 3081.

8 وكلامهم، أهملت في ك.

9 هي زينب بنت الحارث. انظر تاريخ الطبري، ج 3 ص 15.

ثم قال لليهودية: "ما حملك على ما صنعت؟". قالت: "إن كنت نبياً صادقاً، لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكاً أرحمت منك". فقال: "ما كان الله لِيُسَلِّطَكَ على ذلك". فقالوا: "نقتلها". قال: "لا".

فلم يزل أثر تلك الأكلة في لهوات¹ رسول الله ﷺ حتى قال في وجعه الذي مات منه: "ما زالت أكلة خبير تعاودني، فالآن قطعت أبهري"².

قال ابن إسحاق: "إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً، مع ما أكرمه الله به من النبوة"³.

وروي هذا الحديث من طريق البزار عن أبي سعيد الخدري، وزاد فيه: فبسط رسول الله يديه⁴، وقال: "كلوا بسم الله". فأكلنا، وذكرنا اسم الله، فلم تضر أحد منا، إلا ما ذكر من موت بشر بن البراء⁵.

وفي هذا الحديث أنواع من دلالات نبوته ﷺ: نطق الميت، وذلك أن الشاة كلمته بعد أن شُويت، وأنهم أكلوا السم ولم يضرهم. وفي موت البراء دليل على أن الذي أكلوه سم [226] قاتل، وبذلك اعترفت اليهودية، وقالت: "أردت قتلك"، فأراد الله أن يُميت أحدهم ليعلم أن الذي أكلوه سم، وأن يُحيي جميعهم آية لرسول الله ﷺ.

ومن آياته في هذه القصة: تأخر موته بالسم دون علة لزمته منه نحو عشرين سنة⁶، وهذه كلها أمور خارقة للعادات، فهي من أوضح الدلالات.

ومن ذلك ما روي عن فهد بن عطية أن النبي ﷺ أوتي بصبي قد شب لم يتكلم قط، فقال له: "من أنا؟". فقال: "أنت رسول الله"⁷.

1 لهوات: ج لهأة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق.

2 فالآن قطعت أبهري، في الأصل: فالآن أوان قطعت أبهري، وفي ك: فالآن قطعت أبهري، وهذا هو الصواب. والأبهر هو الشريان الرئيسي الذي يحمل الدم إلى القلب. انظر هذا الحديث في صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين، رقم الحديث 2424، وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب السم، رقم الحديث 4060. وانظر أيضاً سيرة ابن هشام، ج 4 ص 309.

3 انظر سيرة ابن هشام، ج 4 ص 309، والشفاء للقاظمي عياض، ص 446.

4 فبسط رسول الله يديه، في ك: فبسط رسول الله ﷺ يده.

5 بشر بن البراء هو صحابي جليل توفي في 628 / 7. انظر دائرة المعارف، ج I ص 1279.

6 نحو عشرين سنة، في الأصل: نحو العشرين سنة، وفي ك: نحو عشرين سنة.

7 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 61.

ومن ذلك حديث مُعَيْقِب¹، قال: "رأيت من النبي ﷺ عجباً: جيء بصبي يوم وُلِدَ، فقال له: "من أنا؟". فقال: "أنت رسول الله". فقال له النبي ﷺ: "صدقت. بارك الله فيك"، ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب، فكان يسمى³ مبارك اليمامة، وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع⁴.

ومن حديث الحسن، قال: "أتى رجل النبي ﷺ، فذكر أنه طرح بُنية له في وادي كذا، فانطلق معه إلى ذلك الوادي، وناداهَا باسمها: "يا فلانة! أجيبي بإذن الله"⁵. فخرجت وهي تقول: "ليبك وسعديك". فقال لها: "إن أبويك قد أسلما، فإن أحبيت أن أرذك عليهما"، فقالت: "لا حاجة لي فيهما، وجدت الله خيراً لي منهما"⁶.

ومن ذلك حديث أنس أن شاباً من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء⁷، قال: "فسجناه وعزيناها". فقالت: "مات ابني؟". قلنا: نعم". قالت⁸: "اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن يعينني على كل شدة"⁹ فلا تحملني على هذه المصيبة"، فما برحنا أن نُكشِف الثوب¹⁰ عن وجهه فطعم وطعمنا"¹¹.

ومن حديث عبدالله بن عبيدالله قال: "كنت فيمن دفن ثابت بن قيس بن شماس¹²، وكان قتل باليمامة. فسمعناه حين أدخلناه في القبر يقول: "محمد رسول الله، أبوبكر الصديق،

1 هو معيقب بن فاطمة الدوسي، صحابي جليل هاجر مع الرسول ﷺ. توفي في ولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه في 660 / 40. انظر الأعلام، ج 7 ص 274.

2 فقال له النبي ﷺ، في ك: فقال النبي ﷺ.

3 فكان يسمى، في ك: فكان يدعى.

4 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 59.

5 أجيبي بإذن الله، في ك: احبي بإذن الله.

6 وجدت الله خيراً لي منهما، في الأصل: وجدت (فراغ) خيراً لي منهما، وفي ك: وجدت الله خيراً منها. انظر الشفا للقاضي عياض، ص 449.

7 وله أم عجوز عمياء، في ك: وله أم عجوز.

8 قالت، في الأصل: قال، وفي ك: قالت، وهذا هو الصواب.

9 أن يعينني على كل شدة، في ك: أن تعينني على كل شدة.

10 فما برحنا أن نُكشِف الثوب، في ك: فما برح أن نُكشِف الثوب.

11 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 50-52.

12 هو ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، صحابي جليل شارك في أُحد وتوفي في اليمامة في 633 / 12. انظر الأعلام، ج 2 ص 98.

عمر الشهيد، وعثمان البر الرحيم¹، فنظرنا فإذا هو ميت².
ومن حديث النعمان بن بشير³ أن زيد بن خارجة⁴ خر ميتاً في زقاق من أزقة المدينة، فرفع وسُجّي، إذ سمعه⁵ بين العشائين، والنساء يصرخن حوله، يقول: "أنصتوا. أنصتوا". فحسر عن وجهه، فقال: "محمد رسول الله، النبي الأمي، وخاتم النبيين، كان ذلك في الكتاب الأول"، ثم قال: "صدق. صدق". وذكر أبابكر وعمر وعثمان، ثم قال: "السلام عليك يا رسول الله، ورحمة الله وبركاته"، ثم عاد ميتاً كما كان رحمة الله عليه⁶.

[227] الفصل الثامن في إبراء النبي ﷺ المرضى وذوي العاهات:

من ذلك ما اشتهر واستفاض من قصة عين قتادة يوم أحد، وذلك أنه أصيب في إحدى عينيه، حتى وقعت على وجنته⁷، فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه⁸.
ومن ذلك حديث عثمان بن حنيف⁹ أن أعمى قال: "يا رسول الله! ادع الله أن يكشف لي عن بصري". فقال له: "انطلق فتوضأ، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة. يا محمد! إني أتوجه بك إلى ربي أن يكشف عن بصري. اللهم شفعه في". قال: "فرجع الرجل وقد كشف الله عن بصره"¹⁰.
ومن ذلك حديث حبيب بن فديك¹¹ أن أباه ابيضت عيناه، فكان لا يبصر بهما شيئاً،

1 وعثمان البر الرحيم، في ك: عثمان البر الرحيم.

2 انظر دلائل النبوة، ج 6 ص 58.

3 هو النعمان بن بشير الأنصاري، صحابي جليل. كان والياً على الكوفة وحمص. توفي في 65 / 684. انظر دائرة المعارف، ج VIII ص 21.

4 هو زيد بن خارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك الأنصاري. شارك في غزوة بدر. انظر الإصابة، ج 1 ص 547.

5 إذ سمعه، في ك: إذ سمعوه.

6 رحمة الله عليه، أهملت في ك. انظر هذا الحديث في دلائل النبوة، ج 6 ص 56-57.

7 حتى وقعت على وجنته، في ك: حتى وقعت على وجنتيه.

8 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 451.

9 هو عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري، صحابي جليل شارك في غزوة أحد وفي كل الغزوات التي تلتها. عاش بالكوفة وتوفي في ولاية معاوية بعد السنة 41 / 660. انظر الأعلام، ج 4 ص 205.

10 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 451-452.

11 حبيب بن فديك، وقيل ابن فريك، وقيل ابن فويك. انظر ترجمته كاملة في الإصابة، ج 1 ص 307.

فنفث رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر، قال: "فرأيته يُدخِل الخيط في الإبرة، وهو ابن ثمانين¹.
وروي أن مُلاعب الأسنّة² أصابه استسقاء، فبعث إلى رسول الله ﷺ، فأخذ بيده حثوة
من تراب،³ فتفل عليها، ثم أعطاها رسوله. فأخذها رسوله متعجباً، يرى أنه قد هذى به⁴،
فأتاه بها، وهو على شقاء⁵، فشربها فشفاه الله⁶.

ومن ذلك حديث كلثوم بن الحصين⁷، وذلك أنه أصيب يوم أُحد في نحره، فبصق فيه
رسول الله ﷺ فبرأ. وتفل على شجّة⁸ عبدالله بن أنيس⁹ فلم تمّد¹⁰.

ومن ذلك حديث علي يوم خيبر، وذلك أن رسول الله ﷺ قال وهو على خيبر: "لأعطين
الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه". فبات أصحابه
تلك الليلة كلهم يرجو أن يُعطاها، فلما أصبح دعا علياً، فإذا به رمّد¹¹، فتفل في عينيه، فبرئ
لحيته، وفتح الله على يديه الحصن¹².

وفي تلك الغزاة، نفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع فبرأت. وكذلك فعل بساق
علي بن الحكم¹³ يوم الخندق، وكانت قد انكسرت، فبرأ مكانه، ولم ينزل عن فرسه.

1 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 453.

2 هو عامر بن مالك بن جعفر، هاجر إلى تبوك للقاء الرسول ﷺ لكن اعتناقه للإسلام لم يتأكد. توفي في 10 / 631.
انظر الأعلام، ج 3 ص 255.

3 حثوة من تراب، في الأصل: حثومة من تراب، في ك: حثوة من تراب، وهذا هو الصواب، والحثوة هو العرّة من
التراب ونحوه.

4 أنه قد هذى به، في الأصل: قد هذى به، وفي ك: قد هزأ به، وهذى بمعنى تكلم بغير معقول لمرض أو نحوه.

5 على شقاء، في الأصل: على شفا، في ك: وهو على شقاء.

6 فشفاه الله، في ك: فشفاه الله تعالى. انظر هذا الحديث في الشفا للقاضي عياض، ص 452-453.

7 هو كلثوم بن الحصين، صحابي جليل. انظر الأعلام، ج 3 ص 288.

8 الشجّة: الجرح في الوجه أو الرأس.

9 هو عبدالله بن أنيس أبي يحيى، صحابي جليل وأحد العرب الشجعان. توفي في 54 / 674. انظر الأعلام، ج 4 ص 73.

10 أمّد الجرح: صار فيه قيح. انظر هذا الحديث في الشفا للقاضي عياض، ص 453.

11 الرّمّد: داء التهابي يصيب العين.

12 على يديه الحصن، في الأصل: عليه الحصن، وفي ك: على يديه الحصن. انظر هذا الحديث في صحيح البخاري،
كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي، رقم الحديث 3425، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب
من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم الحديث 4423.

13 هو علي بن الحكم السلمي أخو معاوية بن الحكم، صحابي جليل شارك في عدة غزوات مع الرسول ﷺ. انظر
الإصابة، ج 2 ص 500.

وأصاب علياً وجع، فقال النبي ﷺ: "اللهم اشفه أو عافه". ثم ضربه برجله، فما اشتكى بذلك الوجع¹ بعد.

وقطع أبو جهل لعنه الله يوم بدر يد معوذ بن عفراء، فجاء يحمل يده، فبصق عليها رسول الله ﷺ، وألصقها فلصقت².

وكذلك أصيب في ذلك اليوم خبيب³ بن يساف⁴، فنفت عليه⁵ من ريقه فصَحَّ. وأتته امرأة من خثعم معها صبي به بلاء لا يعقل ولا يتكلم. فأتى بباء فمضمض فاه، [228] وغسل يديه ﷺ، ثم أعطاه ذلك الماء، وأمرها أن تسقيه إياه. ففعلت فبرئ الغلام، وعقل عقلاً يفضل عقول كثير من الناس⁶.

وحديث ابن عباس: جاءت امرأة بابت لها به جنون، فمسح صدره، فثَعَّ ثَعَّة⁷، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود، وبرأ⁸.

وانكفأت القدر وهي تغلي على ذراع محمد بن حاطب⁹ وهو طفل صغير، فمسح رسول الله ﷺ عليه، ودعا وتفل¹⁰، فبرأ من حينه¹¹.

وكانت في كف شرحبيل الجحفي¹² سِلْعَة¹، تمنعه القبض على السيف، وعنان الدابة،

1 بذلك الوجع، في ك: ذلك الوجع.

2 انظر كل الأحاديث التي وردت من "وفي هذه الغزاة" في الشفا للقاضي عياض، ص 453-454.

3 خبيب، في ك: حبيب.

4 هو خبيب بن يساف بن عنابة بن عمرو بن خديج الأنصاري، صحابي جليل اعتنق الإسلام متأخراً. شارك مع الرسول ﷺ في غزوة بدر وفي الغزوات التي تلتها. انظر الإصابة، ج 1 ص 417.

5 فنفت عليه، في ك: فنفت عليها.

6 يفضل عقول كثير من الناس، في ك: يفضل كثير من الناس. انظر هذه الأحاديث في الشفا للقاضي عياض، ص 454.

7 ثَعَّ ثَعَّة: تقيأ.

8 انظر سنن الدارمي، كتاب المقدمة، باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن، رقم الحديث 19، ومسند أحمد، مسند بني هاشم، رقم الحديث 2206.

9 ابن حاطب، في ك: ابن خاطب. وهو محمد بن حاطب بن الحارث بن معمر أبو القاسم القريني، صحابي جليل ولد بالحبيشة وهو أول من سمي "محمد" بعد مجيء الإسلام. توفي في 74 / 693. انظر الأعلام، ج 3 ص 352.

10 ودعا وتفل، في ك: ودعا له وتفل.

11 من حينه، في ك: لحينه.

12 هو شرحبيل بن حصنة أبو عبد الله، صحابي جليل شارك في فتح سوريا. توفي في 18 / 639. انظر دائرة المعارف، ج IX ص 528.

فشكاها للنبي ﷺ، فما زال يمسحها بكفه حتى رفع كفه، وما لها أثر².

والأخبار في هذا كثيرة.

وإذا تأملت هذا الفصل والذي قبله، علمت أن نبينا محمدًا ﷺ قد أوتي من المعجزات مثل ما أوتي عيسى عليه السلام من إحياء الموتى³، وإبراء العمي⁴ والمجانين⁵، وذوي الأسقام⁶ والآفات⁷ كما تحكي النصراني في إنجيلها، وزاد عليه بأمور كما ذكر، وستأتي إن شاء الله⁸.

فيلزم النصراني إذا كذبوا بنبوة نبينا محمد ﷺ مع ما أقمنا عليه من الآيات، وأثبتنا من واضح المعجزات أن يكذبوا بنبوة عيسى عليه السلام، فإن معجزاته كمعجزاته. وإن كذبونا فيما نقلناه¹⁰، عارضناهم فيما نقلوه، ولم يقدرُوا أن يثبتوا نبوة عيسى عليه السلام علينا ولا على غيرنا، وكذلك يفعل الله بكل كاذب كفار.

الفصل التاسع في إجابة دعائه ﷺ:

اعلم يا هذا أنه لو لم يثبت لرسول الله ﷺ من الآيات إلا ما ثبت في هذا الباب¹¹، لكان فيه أعظم دليل على صحة نبوته وصدق رسالته¹². فإننا نعلم بما روي في هذا الباب من الآيات على القطع والإصرار أن دعاءه عند الله مسموع، وأن مقامه عنده¹³ مقام كريم مرفوع. وذلك أنه ﷺ كان كلما دعا الله تعالى¹⁴ في شيء أجابه فيه، وظهرت بركة دعوته على المدعو له، وعلى أهله وبنيه،

1 السلسلة: زيادة تحدث في العنق وغيره من الجسد تكون قدر الحمصة أو أكثر.

2 انظر هذا الحديث والذي قبله في الشفا للقاضي عياض، ص 454-455.

3 انظر إنجيل لوقا 7: 11-17.

4 انظر إنجيل متى 20: 32-34، وإنجيل مرقس 10: 51-52.

5 انظر إنجيل متى 17: 17-18، وإنجيل مرقس 5: 2-13.

6 انظر إنجيل مرقس 6: 53-56.

7 انظر إنجيل لوقا 5: 24-25.

8 إن شاء الله، في ك: وستأتي إن شاء الله تعالى.

9 نبوة نبينا محمد، في ك: نبوة محمد.

10 فيما نقلناه، في ك: فيما نقلنا.

11 في هذا الباب، في ك: في هذا الفصل.

12 على صحة نبوته وصدق رسالته، في ك: على صدق رسالته وصحة نبوته.

13 وأن مقامه عنده، في ك: وأن مقامه عند الله.

14 كلما دعا الله تعالى، في ك: كلما دعا الله.

حتى كان حذيفة يقول: "كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحد أدركته الدعوة وولد ولده"¹.

ونحن نذكر من ذلك طرفاً على شرط الاختصار.

من ذلك حديث أنس الصحيح المشهور، قال: "قالت أُمِّي: "يا رسول الله! خادمك أنس، أَدَع الله له". فقال: "اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيه".

قال أنس حين حدث بهذا الحديث: "فوالله، [229] إن مالي كثير، وإن ولدي وَوَلَدَ وَلَدِي ليتعدون على نحو المائة اليوم"².

وفي رواية أخرى عنه أنه قال: "وما أعلم أحداً أصاب من رخاء العيش ما أصبت، ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدي، لا أقول سقطاً ولا ولد ولد"³.

ومنه دعواه⁴ لعبد الرحمن بن عوف⁵ بالبركة، قال عبد الرحمن: "فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحتَه ذهباً". وفتح الله عليه، ومات. فحفر الذهب من تركته بالفتوس حتى مَحَلَّت⁶ الأيدي⁷، وأخذت كل زوجة من زوجاته ثمانين ألفاً، وكن أربعاً. وقيل: بل صولحت إحداهن، لأنه طلقها في مرضه على نيف وثمانين ألفاً. وأوصى بخمسين ألفاً، وهذا كله بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعوارفه العظيمة. أعتق يوماً ثلاثين عبداً، وَوَرَدَتْ عليه⁸ مرة غير له فيها سبع مائة بعير، تحمل من كل شيء، فتصدق بها وبها عليها، وبأقتابها وأحلاسها⁹.

ومن ذلك دعاؤه ﷺ لمعاوية بالتمكين في البلاد، فنال الخلافة.

1 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 455.

2 ليتعدون، في ك: ليتعادون، ومعنى هذا أن عدد أبنائه كان يفوق المائة. انظر هذا الحديث في صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم، رقم الحديث 1846، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم الحديث 4531.

3 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 456.

4 ومنه دعواه، في ك: ومن دعائه.

5 هو عبد الرحمن بن عوف، صحابي جليل وأحد المبشرين بالجنة. هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، وشارك في غزوة بدر وغيرها. توفي في 31 / 652. انظر دائرة المعارف، ج I ص 87.

6 محلت، في ك: محلت.

7 مَحَلَّت الأيدي: تفرحت من العمل وتكوّن بين الجلد واللحم فيها ماء من جراء المشقة أو معالجة شيء خشن.

8 ووردت عليه، في ك: ووردت له.

9 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 456-457.

ومن ذلك دعاؤه ﷺ لسعد بن أبي وقاص بأن يجيب الله دعوته، فما دعا على أحد أو لأحد إلا استجيب له.

ومن ذلك دعاؤه ﷺ حيث قال: "اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين، بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام"، فأجاب الله دعوته في عمر بن الخطاب¹، ولذلك قال ابن مسعود: "ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب"².

وأصاب الناس عطش شديد في سفر من أسفاره، فدعا الله فجاءت سحابة، فسقتهم حاجتهم. وقد تقدم مثل ذلك.

ومن ذلك حديث الاستسقاء المشهور³، وذلك أن رسول الله ﷺ بينما هو يوم الجمعة يخطب، إذ دخل عليه رجل، فقال: "يا رسول الله! قد هُلك الأموال، وانقطعت السبل، وهُلك المواشي، فادع الله أن يغثنا". فقال النبي ﷺ: "اللهم أغثنا. اللهم أغثنا. اللهم أغثنا". قال: "فأنشأت سحابة مثل التُّرس"⁴، ثم انتشرت.

قال راويه: "فلا والله، ما رأينا الشمس سبتاً"، يعني جمعة⁵.

ثم دخل أعرابي في الجمعة المقبلة، فقال: "يا رسول الله! هُلك المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله أن يُمسكها عنا"⁶. فقال رسول الله ﷺ: "اللهم على الآكام⁷ والظُّراب⁸، ومنابت الشجر". قال: "فانجابت السحابة عن المدينة انجياب الثوب، فخرجنا نمشي"⁹.

1 انظر مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث 5437، وسنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم الحديث 3614.

2 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 457.

3 المشهور، أهملت في ك.

4 التُّرس: الدرع الواقي للمقاتل.

5 معنى هذا أن المطر استمر أسبوعاً كاملاً.

6 فادع الله أن يمسكها عنا، في الأصل: فادع الله يمسكها عنا، وفي ك: فادع الله أن يمسكها عنا، وهذا هو الصواب.

7 الآكام: ج. أكمة وهي الهضبة.

8 الظراب، في الأصل وفي ك: الضراب، وما كتبه هو الصواب، والظُّراب ج. الظُّرب وهو كل ما نتأ من الحجارة وخذ طرفه، وقيل هو الجبل المنبسط، وقيل هو الجبل الصغير، وقيل الروابي الصغار.

9 انظر حديث الاستسقاء في صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة، رقم الحديث 881، وصحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم الحديث 1493. وانظر أيضاً سيرة

ابن هشام، ج 2 ص 116-117، والروض الأنف، ج 2 ص 28.

ومن ذلك أنه ﷺ قال للنابغة الجعدي¹: "لا يفيض الله فاك"، فما سقطت له سن حتى مات. وفي رواية: فكان أحسن [230] الناس ثغراً²، إذا سقطت له سن نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة³.

وقال لابن عباس: "اللهم فقّههُ في الدين، وعلمهُ التأويل"⁴. فكان بحر الفقه، وترجمان القرآن.

ودعا لعبد الله بن جعفر⁵ بالبركة في صفقة يمينه، فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه. ودعا للمقداد بن الأسود⁶ بالبركة، فكانت⁷ عنده غرائر من المال. ودعا لعروة بن أبي الجعد⁸، فقال: "لقد كنت أقدم بالكناسة⁹، سوق لهم، فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً. وقال البخاري: "فكان لو اشترى التراب ربح فيه"¹⁰.

ونذت له ناقة¹¹، فدعا ربه أن يردها عليه، فجاء بها¹² إعصار ريح حتى ردها عليه¹³.

1 النابغة الجعدي قيل أنه هو قيس بن عبد الله، وقيل هو جبان بن قيس بن عبد الله، صحابي جليل وشاعر. توفي في 699-698 / 79. انظر دائرة المعارف، ج VII ص 844.

2 فكان أحسن الناس ثغراً، في ك: كان أحسن الناس ثغراً.

3 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 458.

4 انظر مسند أحمد، مسند بني هاشم، رقم الحديث 2296، وسنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، رقم الحديث 3760.

5 هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القرشي، صحابي جليل عرف بكرمه. توفي في 80 / 700. انظر دائرة المعارف، ج I ص 45.

6 هو المقداد بن عمرو الحضرمي، الملقب بابن الأسود. صحابي جليل وأول من حارب وهو ممتط على جواد، شارك في غزوة بدر وغيرها. توفي في 33 / 653. انظر الأعلام، ج 7 ص 282.

7 فكانت، في ك: فكان.

8 هو عروة بن عياض بن أبي الجعد، الصحابي الجليل الذي أعطاه الرسول ﷺ ديناراً لكي يشتري شاة، فاشترى شاتين فباع إحداها بدينار، وجاء إلى الرسول ﷺ بدينار وشاة، فدعا له بالبركة في بيعه، وقد شارك في فتح سوريا. انظر ترجمته في الإصابة، ج 2 ص 468.

9 بالكناسة، في ك: بالكياسة.

10 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، رقم الحديث 3370، وسنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في المضارب يخالف، رقم الحديث 2937.

11 نذت له ناقة: شردت ونفرت.

12 فجاء بها، في ك: فجاء بها.

13 انظر هذا الحديث والأحاديث التي قبله في الشفا للقاضي عياض، ص 458-459.

ودعا لأم أبي هريرة فأسلمت¹، ودعا لعلي أن يكفى ألم الحر والبرد، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر ولا برد.

وسأله الطفيل بن عمرو² آية لقومه، فقال: "اللهم نور له". فسطع [له نور] بين عينيه³، فقال: "يا رب! أخاف أن يقولوا أنها مثلة"⁴. فتحول إلى طرف سوطه، فكان يضيء في الليلة المظلمة، فسمي ذا النور.

ودعا على مُضَرَّ بالقحط، فأقحطوا سبعا حتى أكلوا الجلود والعظام، حتى استعطفته قريش فدعا لهم فسقوا⁵. ودعا على كسرى حين مزق كتابه بأن يُمزق ملكه، فلم تبق له باقية⁶. وقال لرجل رآه يأكل بشماله: "كل بيمينك". فقال: "لا أستطيع". فقال له: "لا استطعت"، فلم يرفعها إلى فيه بعد⁷. وقال لعتبة بن أبي لهب: "اللهم سلط عليه كلباً من كلابك"، فأكله الأسد. وحديثه المشهور مع ملا قريش، وذلك أنه ﷺ بينما هو ساجد بإزاء الكعبة، إذ ألقت قريش على ظهره قرئاً⁸ ودماً، وسلى⁹ جَزُور¹⁰ نُجَرت، فقال: "اللهم عليك بهم"، ثم ساهم واحداً واحداً¹¹،

1 انظر صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه، رقم الحديث 4546، ومسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 7911.

2 هو الطفيل بن عمرو الدوسي الأزدي، صحابي جليل وأحد أسياد قبيلته. توفي في 11 / 633. انظر الأعلام، ج 3 ص 227.

3 فسطع له نور بين عينيه، في الأصل: فسطع بين عينيه، في ك: فسطع له نور بين عينيه.

4 المثلة: العقوبة والتنكيل.

5 انظر صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: "يغشى الناس هذا عذاب أليم"، رقم الحديث 4447، صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان، رقم الحديث 5006.

6 انظر صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان، رقم الحديث 62، ومسند أحمد، مسند بني هاشم، رقم الحديث 2644.

7 انظر صحيح مسلم، كتاب الأثرية، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، رقم الحديث 3766، وانظر أيضاً الشفا للقاضي عياض، ص 460.

8 الفرث: بقايا الطعام في الكرش.

9 سلى، في الأصل وفي ك: سلا، والسلى هو تلك الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد، يكون للناس والدواب.

10 الجزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل.

11 هؤلاء كانوا سبعة وهم: أبو جهل، عتبة بن ربيعة، شَيْبَة بن ربيعة، الوليد بن عتبة، أمية بن خَلَف، وعقبة بن أبي مُعَيْط، أما السابع فلم يتذكره الراوي. انظر صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر

أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم الحديث 233.

فكل من سمى¹ قُتِل يوم بدر².

ودعا على الحكم بن أبي العاصي، وكان يختلج بوجهه، ويغمز³ عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "كذلك"، فلم يزل يختلج إلى أن مات.

ودعا على محلم⁴ بن جثامة، فلفظته الأرض فووري، فلفظته الأرض ثم ووري، فلفظته الأرض مراراً. فألقوه بين ضدين، يريد جانبي الوادي، ورضموا عليه الحجارة⁵.

وباعه رجل فرساً فجحدته، فقال: "اللهم إن كان كاذباً فلا تبارك له فيها"⁶، فأصبحت شاصية، يريد رافعة برجلها. يقول: "ماتت"⁷. والأخبار في هذا الباب أكثر من أن يحاط بها.

الفصل العاشر في ذكر جمل من بركاته ومعجزاته ﷺ:

وذلك⁸ ما اشتهر وصح أنه وقع فزع بالمدينة، فركب فرساً لأبي [231] طلحة بطيئاً. فلما رجع، قال لأبي طلحة: "وجدنا فرسك بحراً"، يريد كثير الجري كالبحر، قال: "فكان ذلك الفرس لا يجارى"⁹. ونخس جمل جابر¹⁰ وكان قد أعشى، فنشط حتى كان ما يملك زمامه¹¹.

وصنع مثل ذلك بفرس لجعليل¹² الأشجعي¹³، خفقها بمخفقة معه، وبرك

1 فكل من سمى، في ك: فكان من سمى.

2 انظر صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم الحديث 233، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم الحديث 3349.

3 ويغمز، في الأصل: ويغمر، وفي ك: ويغمز، وهذا هو الصواب.

4 محلم، في الأصل وفي ك: غلم، وما كتبه هو الصواب.

5 ورضموا عليه الحجارة، في الأصل: ورضموا عليه بالحجارة، وفي ك: ورضوا عليه بالحجارة، وما كتبه هو الصواب، ورضم عليه الحجارة بمعنى جعل بعضها على بعض.

6 فلا تبارك له فيها، في ك: فلا تبارك له فيه.

7 انظر هذا الحديث واللذين قبله في الشفا للقاضي عياض، ص 461.

8 وذلك، في ك: من ذلك.

9 انظر صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب من استعار من الناس الفرس والدابة وغيرها، رقم الحديث 2434، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي عليه السلام وتقدمه للحرب، رقم الحديث 4266.

10 هو جابر بن عبد الله.

11 انظر صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب تزويج الثيبات، رقم الحديث 4689، وصحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح البكر، رقم الحديث 2665.

12 لجعليل، في ك: لجعليل.

13 هو جعليل الأشجعي، صحابي جليل من الكوفة. انظر ترجمته في الإصابة، رقم: 1174.

عليها¹ فلم تملك رأسها² نشاطاً، وباع من بطنها باثني عشر ألفاً.
وكانت شعرات من شعر رسول الله ﷺ في قلنسوة⁴ خالد بن الوليد، فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر.
وكانت جُبَّة⁵ رسول الله ﷺ تغسل للمرضى بعد موته، فيستشفى بها⁶.
وأخذ جهمجاه قضيب رسول الله ﷺ ليكسره، فأخذته في يده إكَلَةً⁷ ففقطعها، ومات قبل الحول.

وسكب من فضل وضوئه في بئر قباء، فما جف ماؤها بعد.
وبزق في بئر كانت في دار أنس، فلم يكن في المدينة أعذب منها. ومَرَّ على ماء، فسأل عنه، فقيل⁸: "اسمه يفسان⁹، وماؤه ملح". فقال: "بل هو نيمان وماؤه طيب"، فطاب.
وأوتي بدلو من ماء زمزم، فَمَجَّ فيه، فصارت أطيب من المسك¹⁰. وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه، وكانا يبيكان عطشاً، فرُويَا وسكتا.
وكانت¹¹ لأم مالك عُمَّة¹² تهدي فيها للنبي ﷺ سمناً، فأمرها النبي ﷺ أن تعصرها، ثم دفعها إليها، فإذا هي مملوءة سمناً. فيأتيها بنوها يسألونها الأدم¹³، وليس عندهم شيء، فتعتمد

1 وبرك عليها، في ك: وترك عليها.

2 فلم تملك رأسها، في الأصل: فلم يملك رأسها، وفي ك: فلم تملك رأسها، وهذا هو الصواب.

3 وكانت شعرات من شعر رسول الله، في الأصل: وكانت شعرات من شعرات رسول الله، وفي ك: وكانت شعرات من شعر رسول الله، وهذا هو الصواب.

4 القلنسوة: لباس للرأس يختلف الأشكال والأنواع.

5 الجُبَّة: ثوب واسع يلبس فوق الثياب.

6 انظر صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء....، رقم الحديث 3855.

7 الإكَلَة: الجرب والحكة.

8 فسأل عنه، فقيل، في الأصل: فسأل عنه، فقال، وفي ك: فسأل عنه فقيل، وهذا هو الصواب.

9 اسمه بفسان، في ك: اسمه بيسان.

10 انظر كل هذا في الشفا للقاضي عياض، ص 462-464.

11 وكانت، في الأصل: وكان، في ك: وكانت.

12 العكة: ما يحفظ فيه السمن.

13 الأدم: الإدام وهو ما يأكل به الخبز من الطعام.

إليها فتجد فيها سمناً، فكانت تقيم أدمها¹ حتى عصرتها².

وكان يتفل³ في أفواه المراضع، فيجزيم ريقه إلى الليل.

ومن ذلك بركة يده فيما لمس أو غرس: غرس لسلمان [الفارسي] ثلاث مائة ودية⁴، وكان كاتب مواليه على ثلاث مائة نخلة، وعلى أربعين أوقية⁵. فغرسها رسول الله ﷺ بيده إلا واحدة. فأطعمت من عامها إلا تلك الواحدة، فقلعها النبي ﷺ⁶ وغرسها، فأطعمت من عامها. وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه، فوزن منها لمواليه أربعين أوقية⁷.

وفي حديث حنش بن عقيل⁸ قال: "سقاني رسول الله ﷺ شربة من سويق⁹، شرب أولها وشربت آخرها، فما زلت أجد شبعها إذا جعت، وربها إذا عطشت، وبردها إذا ظمئت"¹⁰.

وأعطى قتادة بن النعمان، [بعد أن] صلى معه¹¹ العشاء الأخيرة في ليلة مظلمة مطيرة، عرجوناً، وقال¹²: "انطلق، فإنه سيضيء لك من بين يديك عشراً، [232] ومن خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه حتى يخرج، فإنه الشيطان". فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته، ووجد السواد، فضربه حتى خرج¹³.

1 فكانت تقيم أدمها، في ك: فكانت تقسم أدمها.

2 انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، رقم الحديث 4227، ومسنّد أحمد، باقي مسنّد المكثرين، رقم الحديث 14137.

3 يتفل: يبصق.

4 الودية: فسيل النخل وصغاره، وهي النخلة الصغيرة التي تقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس.

5 أوقية: أربعون درهماً من فضة.

6 فقلعها النبي ﷺ، في ك: فقلعها رسول الله ﷺ.

7 فوزن منها لمواليه أربعين أوقية، في ك: فوزن منها أربعين أوقية لمواليه. انظر قصة سلمان الفارسي كلها في مسنّد أحمد، باقي مسنّد الأنصار، رقم الحديث 22620 و22621.

8 حنش بن عقيل، صحابي جليل اعتنق الإسلام بعد أن طلب الرسول ﷺ ذلك. انظر ترجمته في الإصابة، ج 1 ص 357.

9 السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة أو الشعير، ويخلط بالماء أو أي سائل آخر.

10 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 466.

11 بعد أن صلى معه، في الأصل وفي ك: وصلى معه، وما كتبه يفيد المعنى أكثر.

12 وقال، في ك: فقال.

13 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 466.

ومنها دَفَعَهُ لعكاشة جَذَلَ¹ حطب، وقال²: "اضرب به" حين انكسر سيفه يوم بدر. فعاد في يده سيفاً صارماً، طويل القامة، أبيض شديد المتن، فقاتل به. ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن اسْتُشْهِدَ في قتال أهل الردة. وكان هذا السيف يسمى العون³. وكذلك دفع لعبد الله بن جحش⁴ يوم أُحُدٍ وقد ذهب سيفه عَسِيب نخل، فعاد في يده سيفاً. ومن ذلك بركته في درور⁵ الشياه الحوائل⁶ باللبن الكثير،⁷ كقصّة شاة أم معبد⁸، وهي قصّة مشهورة. وكذلك غنم حليلة مرضعته، وقد تقدم ذكره. وكذلك قصّة شاة عبد الله بن مسعود، وكان لم يَنْزَ عليها فحل قط⁹، وكذلك شاة المقداد. وكذلك¹⁰ تزويده أصحابه سِقَاء¹¹ ماء بعد أن أوكاه¹²، ودعا فيه. فلما حلاه¹³، إذا به لبن طيب، وزبده في فمه.

ومسح على رأس عمير بن سعد¹⁴ وبرك¹⁵، فمات وهو ابن ثمانين، فما شاب. وقد روي

1 الجَذَلَ: جذع الشجرة.

2 وقال، في ك: وقال له.

3 انظر الشفا للقااضي عياض، ص 466.

4 عبد الله بن جحش، صحابي جليل وأخو السيدة زينب زوج رسول الله ﷺ. هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، وجاهد في معركتي بدر وأُحُدٍ. وقد توفي في غزوة أُحُدٍ سنة 3 / 625. انظر دائرة المعارف، ج I ص 45.

5 درور: ج. دَرَّ وهو اللبن أو الكثير منه.

6 الحوائل: ج. الحائل وهي الحامل.

7 الحوائل باللبن الكثير، في ك: الحوائل اللبن الكثير.

8 أم معبد هي عاتكة بنت خالد بن خليف، تزوجت بتميم بن عبد العزى. كانت هي من استقبلت الرسول ﷺ في بيتها حين هاجر إلى المدينة. انظر الطبقات الكبرى، ج 8 ص 224.

9 لم يَنْزَ عليها فحل: أي لم يلمسها ذكر. وملخص هذه القصة أن عبد الله بن مسعود كان يرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمر به رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر. فسأله ﷺ إن كان لديه لبن، فأجابته بالإيجاب لكنه مؤتمن عليه. فسأله ﷺ إن كانت لديه شاة لم يلمسها فحل قط. فأثاه عبد الله بن مسعود بها، فمسح ﷺ ضرعها، فنزل لبن، فشربه وسقى أبا بكر رضي الله عنه، ثم قال للضرع: اقلص فقلص. انظر هذا الحديث في مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث 3417 و 4180.

10 وكذلك، في ك: ومن ذلك.

11 السقاء: وعاء من جلد يكون فيها الماء.

12 أوكاه: أي شد السقاء وأغلقه.

13 فلما حلاه، في الأصل: فلما خلاه، في ك: فلما حلاه.

14 هو عمير بن سعد بن عبيد الأنصاري، صحابي جليل شارك في فتح سوريا. توفي نحو 45 / 665. انظر الأعلام، ج 5 ص 88.

15 وبرك، في ك: وبارك.

مثل هذا القصص كثيراً¹. ومن ذلك أن عتبة بن فرقد² كان يوجد له طيب يغلب طيب نسائه، لأن رسول الله ﷺ مسح بيده بطنه ويده.

وسلت³ عن وجه عائذ بن عمرو⁴ الدم يوم أُحُد، فدعا ﷺ له، فكانت له غرة كغرة الفرس. ومسح ﷺ على رأس قيس بن زيد الجذامي⁵، ودعا له، فهُلِكَ ابن مائة سنة ورأسه أبيض، وموضع كف النبي ﷺ أسود. فكان يُدعى الأغر⁶. ومسح وجه رجل آخر، فما زال على وجهه نور. ومسح على وجه قتادة بن ملحان⁷، فكان لوجهه بريق حتى كان ينظر في وجهه كما ينظر في المرأة.

ووضع ﷺ يده على رأس حنظلة بن حذيم⁸، وبرك عليه⁹. فكان حنظلة يُؤتى بالرجل قد ورم وجهه، والشاة قد ورم ضرعها، فيوضع على موضع كف النبي ﷺ، فيذهب الورم¹⁰. ونضح¹¹ في وجه زينب بنت أم سلمة¹² نضحة من ماء، فما كان يُعرَف في وجه امرأة من الجمال ما كان بها¹³. ومسح على رأس صبي به عاهة، يعني قرعا، فبرأ واستوى شعره. وكذلك مسح على غير واحد من الصبيان المرضى والمجانين، فبرؤوا. ولأجل هذا قال

1 وقد روي مثل هذا القصص كثيراً، في ك: وقد روي مثل هذه القصص.

2 هو عتبة بن فرقد بن يربوع بن حبيب بن مالك أبو عبد الله، صحابي جليل شارك في غزوة خيبر وغيرها. انظر الإصابة، ج 2 ص 448.

3 سلت: سَلَّ وسحب.

4 هو عائذ بن عمرو الأنصاري. صحابي جليل كان موالياً لعلي بن أبي طالب في معركة صفين. انظر الإصابة، ج 2 ص 253.

5 قيس بن زيد الجذامي صحابي جليل. انظر ترجمته في الإصابة، ج 3 ص 237.

6 انظر هذا الحديث والأحاديث التي قبله في الشفا للقاضي عياض، ص 467 - 468.

7 قتادة بن ملحان، في ك: قتادة بن ملحان، وعتادة بن ملحان القيسي هو صحابي جليل، انظر ترجمته في الإصابة، ج 3 ص 217.

8 ابن حذيم، في ك: ابن حذيم، وهو حنظلة بن حذيم بن حنيفة التميمي، ويقال الأسدي أسد خزيمه، ويقال له المالكي، صحابي جليل. انظر ترجمته في الإصابة، ج 2 ص 132 - 133.

9 وبرك عليه، في ك: وبارك عليه.

10 انظر هذا الحديث في الإصابة، ج 2 ص 133.

11 نضح: رش بالماء.

12 هي زينب بنت عبد الله بن عبد الأسد المخزومية، وهي ابنة أم سلمة زوج رسول الله ﷺ. توفيت في 73 / 692. انظر الأعلام، ج 3 ص 66.

13 فما كان يعرف في وجه امرأة من الجمال ما كان بها، في الأصل: فما يعرف كان في وجه امرأة من الجمال ما كان بها، وفي ك: فما كان يعرف في وجه امرأة من الجمال ما بها، وهذا هو الصواب.

طاوس¹: "لم يؤت النبي ﷺ بأحد به جنون فصك في صدره²، إلا ذهب ذلك الجنون".
 [233] وأتاه رجل آدر³، فأمره أن ينضحها [أي الخصىة] بماء من عُس⁴ مَج⁵ فيه، ففعل
 فبرأ⁶.

ومن ذلك خبره المشهور عن تراب يوم حنين، وذلك أنه لما اشتد القتال بينه وبين الكفار
 ذلك اليوم، أخذ غرفة من تراب، ورمى بها وجوه الكفار، وقال: "شاهت الوجوه". فما بقي
 منهم أحد إلا أصاب من عينيه من ذلك التراب، فبهزهم الله، ورجعوا على أعقابهم يمسحون
 عن أعينهم⁷.

ومن ذلك الخبر المشهور عن أبي هريرة أنه كان كثير النسيان، فأمره ببسط ثوبه، فغرف
 بيده فيه⁸، ثم أمره بضمه ففعل. فما نسي شيئاً بعد⁹.
 والأخبار في هذا كثيرة جداً تفوق الحصر.

الفصل الحادي عشر في ما أخبر به مما أطلعه الله من الغيب ﷺ:

هذا الباب¹⁰ بحر لا يدرك قعره، ولا ينزف غمره. وهو من جملة آياته المعلومه على
 القطع، الواصلة إلينا على طريق التواتر¹¹، لكثرة الحكايات، وانتشار الروايات مع اتفاقها على

1 هو طاوس بن كيسان الحمداني أبو عبد الرحمن، أحد التابعين. كان محدثاً وفتياً، وهو من أصل فارسي. توفي في 724 / 106. انظر الأعلام، ج 3 ص 224.

2 صك في صدره: أي ضرب صدره بقوة.

3 آدر: متنفخ الخصىة.

4 العُس: القدح الكبير.

5 مَج: بصب وأخرج الماء من فمه.

6 انظر هذا الحديث والأحاديث التي قبله في الشفا للقاضي عياض، ص 468 - 469.

7 انظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم الحديث 3328، وسنن الدارمي، كتاب السير،
 باب في قول النبي ﷺ شاهت الوجوه، رقم الحديث 2344.

8 فغرف بيده فيه، في ك: فغرف بيده.

9 انظر صحيح البخاري، كتاب العلم، باب حفظ العلم، رقم الحديث 116، وصحيح مسلم، كتاب فضائل
 الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي، رقم الحديث 4547.

10 هذا الباب، في ك: هذا الموضوع.

11 الواصلة إلينا على طريق التواتر، في الأصل: الواصلة البناء على طريق التواتر، وفي ك: الواصلة إلينا من طريق
 التواتر.

أنه مطلع¹ على كثير من الغيب. فهذا تواتر معنوي، يحصل به العلم القطعي. وهكذا أكثر الفصول المتقدمة.

والأخبار المتلقاة² عنه ﷺ في هذا الباب³ قسمان: قسم وقع ووجد كما أخبر به، وقسم آخر لم يقع، لكونه لم يبلغ وقته، وسيقع ولا بد، ولذلك هو منتظر الوقوع. ونحن إنما نذكر في هذا الفصل ما وقع ووجد حسب ما أخبر به، إذ به تقع الحجة، وعنده يظهر الإعجاز.

من ذلك حديث حذيفة قال: "قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً في مقامه ذلك يكون إلى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء. وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه، فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه"⁴.

ثم قال: "لا أدري، أنسي أصحابي أم تناسوه؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا، يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعداً إلا وقد سماه لنا باسمه، واسم أبيه وقبيلته"⁵.

وقال أبو ذر: "لقد تركنا رسول الله ﷺ، وما من طائر يحرك جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً"⁶.

وقد خرج أهل الصحيح في كتبهم، واشتهر عن الأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة⁷ من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله،⁸

1 على أنه مطلع، في الأصل: مع أنه مطلع، وفي ك: على أنه مطلع.

2 والأخبار المتلقاة، في الأصل: والأخبار المتلقات، وفي ك: والأخبار المتلقاة.

3 في هذا الباب، في ك: في هذا الموضوع.

4 انظر صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، رقم الحديث 5147، وسنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، رقم الحديث 3702.

5 انظر سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، رقم الحديث 3705.

6 انظر مسند أحمد، مسند الأنصار، رقم الحديث 20467.

7 تظعن المرأة: تسافر.

8 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3328.

[234] وأن [مكة] لا تغزى¹. وكذلك أعلم بفتح خبير على يدي² علي بن أبي طالب في غد يومه³، وبما فتح الله على أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقصر⁴، وما يحدث بينهم من الفتن والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم⁵، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة⁶. وأنها ستكون لهم أنماط⁷، ويغدو أحدهم في حلة، ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صحيفة⁸ وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة⁹، وأنهم إذا مشوا المَطيَّاء¹⁰ وخدمتهم¹¹ بنات فارس والروم، رد الله بأسهم بينهم، وسلط شرارهم على خيارهم¹². وإخباره عن قتال¹³ الترك والخزر والروم، وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى بعده، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده¹⁴، وإخباره عن الروم لا تزال ذات أقران حتى تقوم الساعة، وإخباره بمُلك بني أمية، وولاية معاوية ووصاه، واتخاذ

1 وأن [مكة] لا تغزى، في الأصل: وأن المدينة ستغزى، وفي ك: وأن المدينة لا تغزى، ولعل الصواب هو ما كتبه لوروده هكذا في الأحاديث الشريفة، انظر سنن الترمذي، كتاب السير، باب ما قاله النبي ﷺ يوم فتح مكة: إن هذه لا تغزى بعد اليوم، رقم الحديث 1536، ومسند أحمد، مسند الكوفيين، حديث الحارث بن مالك بن برصاء رضي الله عنه، رقم الحديث 18247.

2 على يدي، في ك: على يد.

3 انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في لواء النبي ﷺ، رقم الحديث 2753، وسنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم الحديث 3658.

4 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3328.

5 من قبلهم، في ك: من قتلهم.

6 انظر سنن الترمذي، كتاب الإبان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم الحديث 2565، وسنن أبي داود، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم الحديث 3981.

7 الأنماط: ج. نمط، وهو نوع من البساط له خلل رقيق. انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3359، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز اتخاذ الأنماط، رقم الحديث 3884.

8 بين يديه صحيفة، في ك: على يديه صحيفة.

9 انظر سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث 2400.

10 المَطيَّاء: التبختر ومد اليمين في المشي.

11 وخدمتهم، في الأصل: وخدامتهم، وفي ك: وجد منهم.

12 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 472 - 473.

13 عن قتال، في ك: على قتال.

14 انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، رقم الحديث 2803، ومسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، رقم الحديث 5196.

بني أمية مُلْك الله دُولاً، وإخباره عن خروج ولد العباس بالرايات السود، ومُلْكهم¹ أضعاف ما ملكوا، وخروج المهدي، وإخباره بما ينال أهل بيته من القتل والشدائد، وإخباره عن قتل علي، وقوله له²: "إن أشقاها الذي يخضب هذه من هذه"، يريد لحيته من رأسه³. وإخباره بقتل عثمان وهو يقرأ المصحف، وأنه سيقطر دمه على قوله⁴: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 137]. وقوله له⁵: "عسى الله أن يُبْسِكَ قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه"، يريد بذلك ما ولّاه من الخلافة، وما أرادوا من خلعه.

ومن ذلك خبر حاطب بن أبي بلتعة⁶، وذلك أنه كتب كتاباً⁷ لأهل مكة، يخبرهم فيه بغزو رسول الله ﷺ إياهم، وأخفى⁸ ذلك الكتاب، ولم يطلع عليه أحداً، ودفعه إلى امرأة فجعلته في عقاصها⁹. فقال النبي ﷺ لأصحابه: "انطلقوا إلى موضع كذا، فإن به طعينة"¹⁰ عندها كتاب من حاطب إلى مشركي قريش.

فانطلقوا ففتشوها¹¹، فلم يجدوا عندها شيئاً، فقالوا لها: "لتخرجن الكتاب أو لنجردنك"، فأخرجته من عقاصها¹².

وإخباره لبعض زوجاته أنها ستنبعها كلاب الحوآب¹³، وأنها يقتل حولها قتل

1 وملكهم، في الأصل: وملكم، وفي ك: وملكهم.

2 له، أهملت في ك.

3 انظر الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي، ص 318 - 319.

4 على قوله، في ك: على قوله تعالى.

5 وقوله له، في ك: وقوله ﷺ.

6 حاطب بن أبي بلتعة صحابي جليل، كان غنياً وله تجارة واسعة. شارك مع الرسول ﷺ في كل الغزوات. توفي في 650 / 30. انظر الأعلام، ج 2 ص 159.

7 كتاباً: أي خطاباً.

8 وأخفى: في ك: وإخفاء.

9 عقاصها: ضفائر شعرها.

10 الطعينة: المرأة المسافرة.

11 ففتشوها، في ك: ففتشوا.

12 انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجردهن، رقم الحديث 2851، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، رقم الحديث 4550.

13 الحوآب، في ك: من الحوب، والحوآب هو مكان بين البصرة ومكة، وهو الذي نزلت فيه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما ذهبت إلى البصرة في موقعة الجمل. انظر هذا الحديث في مسند أحمد، مسند باقي الأنصار، رقم الحديث 23120 و 23513.

كثير،¹ فكان ذلك كله كما ذكر ﷺ. وقوله لعمار: "تقتلك الفئة الباغية"،² فقتله أصحاب معاوية. وقوله: "يكون في ثقيف كذاب ومبير"^{3 4}، فأوهما الحجاج والمختار. [235] وإخباره بأن مسيلمة يعقره الله⁵، فكان ذلك⁶.

ومن ذلك أن ناقته ضلت، فلم يدر أين هي، فقالت قريش: "يزعم محمد⁷ أنه يعرف خبر السماء وهو لا يعرف خبر ناقته"⁸.

فنزّل الوحي على رسول الله ﷺ، فقال: "أما أنا فلا أعلم إلا ما أعلمني الله به، وإن الله قد أخبرني أنها بموضع كذا".

فانطلقوا، فوجدت حيث ذكر، قد حبستها هنالك⁹ شجرة¹⁰.

وقوله لفاطمة ابنته¹¹: "إنك أول أهل بيتي لحوقاً بي"¹²، فكانت أول من مات من أهل بيته.

وأخبر بأهل الردة والخوارج، وعرف بعلامتهم¹³، فوجد ذلك كما أخبر.

والأخبار في ذلك أكثر من أن تُحصى، يضطر الواقف عليها إلى العلم بنبوته ﷺ.

1 وأنها يقتل حولها قتل كثير، في ك: وأنها تقتل حولها قتل كثير.

2 انظر في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله، رقم الحديث 2601، وصحيح مسلم، كتاب الفتن وأشرار الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، رقم الحديث 5193.

3 المير: المفسد في الإسراع بين الناس.

4 انظر صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها، رقم الحديث 4617، ومسند أحمد، باقي مسند الأنصار، رقم الحديث 25728 و25735.

5 يعقره الله: يهلكه الله ويقتله.

6 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3351، وصحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، رقم الحديث 4218.

7 يزعم محمد، في ك: يزعم محمداً.

8 وهو لا يعرف خبر ناقته، في ك: وهو لا يعرف ناقته.

9 هنالك، في ك: هناك.

10 انظر سيرة ابن هشام، ج 3 ص 60.

11 وقوله لفاطمة ابنته، في ك: وقوله لفاطمة الزهراء رضي الله عنها ابنته.

12 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ومنقبه فاطمة عليه السلام بنت النبي ﷺ، رقم الحديث 3438، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ، رقم الحديث 4486.

13 بعلامتهم، في ك: بعلاماتهم.

الفصل الثاني عشر في عصمة الله له ممن أراد كيده، وذلك من أبلغ آياته:

صحت الروايات، وثبتت الطرق أن رسول الله ﷺ كان يحرس ممن يريد ضره لكثرة أعدائه، وطلبهم¹ غرته، حتى نزلت [الآية]²: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، وقال لحراسه³: "يا أيها الناس! انصرفوا، فقد عصمني ربي"⁴. فلم يقدر أحد على أن يصيب منه⁵ مقتلاً مع حرصهم على ذلك⁶.

ومن ذلك ما صح أن النبي ﷺ نزل منزلاً في بعض غزواته، فقال⁷ تحت شجرة، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه⁸، فقال: "من يمنعك مني؟". فقال: "الله!"⁹. فدعدت¹⁰ يد الأعرابي، وسقط سيفه من يده، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه.

وقد اتفق مثل هذه القصة لعذرة بن الحارث، فأسلم ورجع إلى قومه، وقال: "جئتكم من عند خير الناس".

وقد روي أن هذه القصة كانت يوم بدر¹¹.

وكذلك وقع مثل هذه القصة بذي أمر لدعشور¹² بن الحارث¹³، وكان ذا نجدة وجُراً، فأسلم. فلما رجع إلى قومه، قالوا له¹⁴: "أين ما كنت تقول وقد

1 وطلبهم، في ك: وطلبهم.

2 حتى نزلت [الآية]، في الأصل: حتى نزلت، وفي ك: حتى نزل.

3 لحراسه، في الأصل: لحراسيه، وفي ك: لحراسيه.

4 انظر سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم الحديث 2972.

5 أحد على أن يصيب منه، في ك: أحد أن يصيب منه.

6 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 489.

7 فقال: أي أخذ قبولة.

8 اخترط السيف: استلّه من غمده.

9 انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستقلال بالشجر، رقم الحديث 2697، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس، رقم الحديث 4231.

10 فدعدت، في ك: فرعدت.

11 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 489 - 491.

12 لدعشور، في ك: لدعشور.

13 دعشور بن الحارث صحابي جليل، اعتنق الإسلام بعد الذي وقع له مع رسول الله ﷺ حيث اخترط سيفه، وأراد أن يقتل الرسول محمداً ﷺ، لكن الله حماه منه. انظر الإصابة، ج 1 ص 464.

14 قالوا له، في ك: قالوا.

أمكنك؟¹ فقال: "إني نظرت إلى رجل أبيض طويل، دفع في صدري، فوقعت لظهري، وسقط السيف من يدي، فعرفت أنه ملك".

وفيه أنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ
أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾
[المائدة: 11] الآية.

وكانت امرأة أبي لهب، وهي حمالة الخطب، تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، فكانها
يطأ² كتيبا³ أهيل⁴، يريد سهلاً.

ولما أنزل الله⁵ فيها وفي زوجها: ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1] إلى آخر السورة،
أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبوبكر، وفي يدها فِهْر⁶ من حجارة. [236]
فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبابكر، وأخذ الله ببصرها عن نبيه عليه السلام، فقالت: "يا أبابكر!
أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني. والله لو وجدته، لضربت بهذا الفهر فاه"⁷.

ومن ذلك ما حدث به الحكم بن أبي العاصي قال: "تواعدنا على أن نقتل محمداً حتى
جئناه، فلما رأيناه سمعنا صوتاً خلفنا، ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد⁸. فوقعنا مغشياً علينا حتى
قضى صلاته، ورجع إلى أهله.

ثم تواعدنا ليلة أخرى، فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة، فحالت بيننا وبينه"⁹.
ومن ذلك القصة المشهورة التي تُؤذن بالكفاية التامة، وذلك أن قريشاً اجتمعت على
قتله، وبيتوا¹⁰ ليدخلوا عليه بيته، فعلم بهم، فقال لعلي: "تحول على فراشي". ففعل، ثم خرج

1 وقد أمكنك: أي وقد كان بإمكانك أن تقتله.

2 فكانها يطأ، في الأصل: فكانها يطأها، وفي ك: فكانها يطأ.

3 الكتيب: الرمل المستطيل المحدود، م. كتيبان.

4 أهيل: يقال حال فلان الرمل ونحوه هيلاً، بمعنى دفعه وأرسله.

5 ولما أنزل الله، في ك: ولما أنزل الله عز وجل.

6 الفهر: الحجارة.

7 انظر دلائل النبوة، ج 2 ص 195 - 196.

8 أحد، في ك: أحد.

9 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 493.

10 وبيتوا، في الأصل: وبيتوه، وفي ك: وبيتوا.

عليهم، ودر التراب على رؤوسهم، فلم يروه¹ حتى دخلوا البيت، فوجدوا علياً على فراشه، فقالوا له: "أين صاحبك؟". فقال لهم: "قد خرج عليكم، وقد جعل التراب على رؤوسكم". فمد كل واحد منهم يده إلى رأسه،² فوجد التراب على رأسه³.

وقد قيل: إن في هذه القصة نزل قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

ومن ذلك ما اتفق لأبي جهل، وذلك أنه أخذ إبل رجل من العرب، وتعدى عليه فيها، فشكى ذلك لرسول الله ﷺ، فمشى رسول الله ﷺ لمنزل أبي جهل، وصاح به. فخرج منتقياً لونه، فقال له رسول الله ﷺ: "رُدَّ على هذا إبله". فقال: "نعم". ثم دخل مرة أخرى فأبطأ⁵، فصاح به، فخرج فرعاً متغيراً ذليلاً، ففعل ذلك ثلاثاً، ثم خرج فرعاً منتقياً لونه،⁶ فأنصف الأعرابي،⁷ وألان القول للنبي عليه السلام.

فلامته قريش على ذلك، فقال لهم: "إنه عرض لي دونه فحل من الإبل، ما رأيت مثل هامته، ولا أنيابه لفحل قط، وأنه هم بي ليأكلني".

فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: "ذلك جبريل! ولو دنا منه لأخذه"⁸.

وكذلك أخذ أبو جهل صخرة ليطرحها على النبي ﷺ وهو ساجد، وقريش ينظرون. فلزقت بيده، ويست يداه إلى عنقه. فرجع القهقري،⁹ وراه، ثم سأله¹⁰ أن يدعو له، ففعل، فانطلقت يداه¹¹.

وكذلك تواعد مرة أخرى مع قريش لئن رأى محمداً يصلي، ليطأن رقبتة. فلما دخل النبي ﷺ في الصلاة أعلموه، فأقبل نحوه، فلما قرب منه ولى هارباً ناكصاً على عقبيه، متقياً بيديه

1 فلم يروه، في الأصل: فلم يروا، وفي ك: فلم يروه.

2 فمد يده إلى رأسه، في ك: فمد يده على رأسه.

3 انظر سيرة ابن هشام، ج 3 ص 8.

4 نزل قوله، في الأصل: نزلت قوله، وفي ك: نزل قوله تعالى.

5 فأبطأ، في ك: خائفاً.

6 منتقياً لونه، في ك: ممتقياً لونه.

7 فأنصف الأعرابي، في ك: فانصرف الأعرابي.

8 انظر سيرة ابن هشام، ج 2 ص 136 - 137.

9 القهقري: الرجوع إلى الخلف.

11 انظر الشفا للقاضي عياض، ص 396.

10 ثم سأله، في ك: ثم سأل.

رقبته.¹ فُسِّيل عن ذلك، فقال: "لما دنوت منه، [237] أشرفت على خندق مملوء نارا كدت أهوى فيه، وأبصرت هولاً عظيماً، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض".

فقال عليه السلام: "تلك الملائكة! لو دنا لاختطفته عضواً عضواً". فأنزل على النبي ﷺ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ إِنَّ رَأَاهُ اسْتَعَى ۚ ﴿٧﴾﴾ [العلق: 6-7] إلى آخر السورة.³

ومن ذلك حديث شيبه، وذلك⁴ أنه أدرك النبي ﷺ يوم حنين، فقال: "اليوم أدرك ثأري من محمد"، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه.

فأتاه⁵ من خلفه، قال: "فلما دنوت منه، ارتفع إلي شواظ من نار⁶ أسرع من البرق، فوليت هارباً. وأحس بي النبي ﷺ فدعاني، فوضع يده على صدري وهو أبغض الخلق إلي، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلي⁷."

ومن ذلك حديث فضالة بن عبيد قال: "أردت قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنوت منه⁸، قال: "أفضالة؟". قلت: "نعم". قال: "ما كنت تحدث به نفسك؟". قلت: "لا شيء". فضحك واستغفر لي، ووضع يده على صدري، فسكن قلبي. فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه".

ومن ذلك خبر عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، وذلك أنها وفدا على رسول الله⁹ ليقتلاه. فقال عامر لأربد¹⁰: "أنا أشغل عنك وجه محمد، فاضربه¹¹ أنت". فلم يفعل أربد من ذلك شيئاً. فلما كلمه عامر في ذلك، قال له: "والله، ما هممت أن أضربه إلا وجدتك بيني

1 رقبته، أهملت في ك.

2 فأنزل على النبي ﷺ، في ك: فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ.

3 انظر دلائل النبوة، ج 2 ص 189.

4 وذلك، أهملت في ك.

5 فأتاه: أي فأتى شيبه النبي ﷺ.

6 شواظ من نار: لهب من نار لا دخان لها.

7 انظر سيرة ابن هشام، ج 5 ص 112، الروض الأنف، ج 4 ص 141، الوفا لابن الجوزي، ص 333، والشفاء للقاضي عياض، ص 499.

8 فلما دنوت منه، في الأصل: فلما دنوب منه، وفي ك: فلما دنوت منه.

9 وفدا على رسول الله، في ك: وفدا على رسول الله ﷺ.

10 فقال عامر لأربد، في الأصل: فقال عامر لا أربد، وفي ك: فقال عامر لأربد.

11 فاضربه، في ك: فاضرب.

وبينه، أفأضربك؟¹.

ومن ذلك الخبر المشهور، خبر سراقه²، وذلك أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجراً للمدينة، لم يعلموا بخروجه، فبعثت قريش في طلبه في كل وجه حتى جعلت لمن يأتي به جعلاً³ مائة ناقة.

قال سراقه: "فيينا أنا جالس في نادي قومي، إذ أقبل رجل فقال: "والله، لقد رأيت ركة ثلاثة مروا علي آنفاً. إني لأراه محمداً وأصحابه". قال [سراقه]: "فأومأت له"، يعني أن اسكت، ثم قلت: "إنما هم⁴ بنو فلان يبتغون ضالّة لهم". قال: "لعله".

قال [سراقه]⁵: "فمكثت قليلاً، ثم قمت، فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي⁶، وكنت أرجو أن أردّه على قريش، وأخذ المائة ناقة".

قال: "فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم فرأيتهم، عثري فرسي، وذبحت يده في الأرض، وسقطت عنه". قال: "ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار". قال: "عرفت حين رأيت ذلك أنه قد امتنع مني، وأنه ظاهر". قال: "فناديت القوم، أنا سراقه. أنظروني حتى أكلمكم". فقال له أبوبكر: [238] "وما تبتغي منا؟". قال: "قلت: كتابا يكون آية بيني وبينكم"⁷.

فكتب له أبوبكر بأمر رسول الله ﷺ، فأمسكه عنده حتى كان يوم الطائف⁸. والأخبار في هذا كثيرة، والحكايات صحاح شهيرة، لا يمكن جردها، ولا ينكر حصول

1 انظر سيرة ابن هشام، ج 5 ص 260 - 261، والشفاء للقاضي عياض، ص 500.

2 هو سراقه بن مالك بن جشعم أبو سفيان، اعتنق الإسلام بعد غزوة الطائف. توفي في 24 / 645. انظر الأعلام، ج 3 ص 80.

3 جعلت لمن يأتي به جعلاً: أي جعلت له أجراً.

4 إنما هم، في ك: إنيهم.

5 قال [سراقه]، في الأصل: قال، وفي ك: قلت.

6 من دبر حجرتي، في الأصل: من دبر حجري، وفي ك: من دبر حجرتي.

7 بيني وبينكم، في الأصل: بيني وبينك، وفي ك: بيني وبينكم.

8 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم الحديث 3618، وصحيح مسلم، كتب الأثرية، باب جواز شرب اللبن، رقم الحديث 3750، وانظر أيضاً سيرة ابن هشام، ج 3 ص 15 - 17.

العلم عندها، بل كلها تدل على صحة نبوته، وتصديق شريعته، وأنه كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. [آل عمران: 144].

ومعجزاته ﷺ أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب، أو تدخل تحت عدّ وحساب.

وعند الوقوف على ما تضمنته الفصول المتقدمة، والأبواب السابقة، يحصل العلم الضروري بصدقه في رسالته، وبوجوب اتباع شريعته. ومنكر ذلك معاند متواقع جاحد ﴿وَسِعَ الْعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227].

وقد نجز غرضنا من هذا الباب.

فإن قال قائل¹ من النصارى والمخالفين لنا: ما ذكرتموه من معجزات نبيكم إنما ثبت² عندكم بأخبار³ الآحاد، وهي وإن كانت صحاحاً، فلا يحصل بها العلم كما كنتم قدتمتم⁴، حيث تكلمتم مع النصارى حين استدلووا على إثبات نبوة مسيحهم. فإنكم قلتم: لا يقبل⁵ في مثل هذا الموضع خبر من تجوز العادة عليه الكذب والغلط، وإنما يقبل فيها⁶ خبر من لا تجوز عليهم العادة الكذب والغلط، وهو الخبر المتواتر.

ثم إنكم قبلتم هنا أخبار من تجوز العادة عليهم الغلط والكذب، وهي أخبار الآحاد، فقد خالفتم ما أصّلتهم، وقبلتم عين ما أنكروتم.

قلنا في الجواب عن ذلك: اعلم أيها المعترض، أننا لم نقبل في هذا الباب إلا الأخبار المتواترة التي يحصل العلم بها، لكن ينبغي أن تعلم أن المتواتر ضربان: ضرب يتواتر لفظه ومعناه، وذلك مثل قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، فإن هذا اللفظ نعلم قطعاً ويقيناً أن نبينا محمداً قاله⁷ كما تلوناه من غير زيادة ولا نقصان، إذ قد نقله عنه الجهم الغفير عن الجهم الغفير، فلا يتطرق إليه وجه من وجوه الشك،

1 فإن قال قائل، في الأصل: فإن قيل قائل، وفي ك: فإن قال قائل.

2 إنما ثبت، في ك: إنما يثبت.

3 بأخبار، في ك: من أخبار.

4 كما كنتم قدتمتم، في الأصل: كما كنتم تقدمتم، وفي ك: كما كنتم قدتمتم.

5 لا يقبل، في ك: لا نقبل.

6 وإنما يقبل فيها، في ك: وإنما نقبل فيها.

7 أن محمداً قاله، في ك: أن محمداً ﷺ قاله.

فلا يقدر أحد أن يتشكك في لفظه ولا في معناه. وكثير من معجزات النبي ﷺ المتقدمة الذكر من هذا القبيل، فهذا هو الضرب الأول.

وأما الضرب الآخر، وهو ما يتواتر معناه¹ دون لفظه، فيحصل العلم أيضاً بذلك المعنى. وذلك مثل أن تتوارد روايات كثيرة عن أخبار الأحاد الصحاح على معنى واحد، بألفاظ متغايرة، وحكايات مختلفة، مثال [239] ذلك أننا نجد من أنفسنا علماً قطعياً بشجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فإذا نظرنا في الخبر الذي حصل لنا العلم بشجاعته، لم نجده خبراً واحداً متواتراً، وإنما وجدناه جملة أخبار آحاد تواردت على معنى واحد، وهو الشجاعة. فتسمع عنه يوماً أنه فعل يوم خير كذا، وفعل يوم حنين كذا، ويوم صفين كذا، ويوم الجمل كذا. فلا تزال أخبار الأحاد تكثر حتى يضطر السامع إلى العلم بمخبرها، ولا يقدر على تشكيك نفسه في شيء منها. وهذا مسلك في تحصيل العلم، إذا تفقده العاقل المنصف من نفسه، وجده مفيداً للعلم، ومحضاً له ضرورة. ومن أنكر حصول العلم منه، كان منكراً لما هو ضروري.

فإذا ثبت هذا، قلنا بعده أن ما نقلناه من معجزات نبينا عليه السلام، منها ما تواتر لفظه ومعناه كانشقاق القمر وغيره، ومنها ما تواتر معناه، وهو أكثر ما احتوت عليه الفصول المتقدمة، وذلك أن كل فصل منها اشتمل على معنى واحد، كثر الأخبار² عن ذلك المعنى حتى اضطر الواقف عليها إلى العلم بمعناها، وذلك مثل نبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام القليل والماء القليل³ إلى غير ذلك من الفصول. فكل فصل منها قد تواتر معناه، وإن لم تتواتر آحاد ألفاظه.

ثم هذه الفصول بجملتها يحصل منها العلم القطعي واليقين الضروري بأن محمد ﷺ كانت العادات تنخرق على يديه معجزة له. إذ قد تواردت أخبار جميع هذه الفصول⁴ على هذا المعنى. فحصل من هذا أننا لم نستدل على إثبات نبوة نبينا محمد بأخبار الأحاد، وإنما استدللنا على ذلك بالأخبار المتواترة المحصلة للعلم، والحمد لله.

1 وهو ما يتواتر معناه، في ك: وهو متواتر معناه.

2 كثرت الأخبار، في ك: وكثرت الأخبار.

3 وتكثير الطعام القليل والماء القليل، في ك: وتكثير الماء القليل والطعام القليل.

4 أخبار جميع هذه الفصول، في ك: جميع أخبار هذه الفصول.

والنصارى فيما أوردوا لم يستدلوا هكذا، ولا عندهم علم من هذا. وكفى أنهم في ضلالتهم يعمهون، وفي شكهم يترددون.

عصمنا الله من الخطأ والزلل في القول والعمل، بكرمه وجوده.

الفصل الثالث عشر فيما ظهر على أصحابه والتابعين لهم من الكرامات الخارقة للعادات:

اعلم أن غرضنا في إثبات هذا الفصل شيان: أحدهما أن يُبين أن ما ظهر على أصحابه، وعلى أهل دينه من الكرامات، هو آية لرسول الله ﷺ من أعظم الآيات. وذلك أن الله تعالى إذا أكرم¹ واحداً منهم بأن خرق له عادة، فإن ذلك يدل على أنه على الحق، وأن دينه حق. إذ لو كان مبطلاً في دينه، متبعاً لمبطل في [240] دعواه، كاذب في قوله على الله، لما أكرمه الله ولا أكرم من اتبع دينه.

فعلى هذا نقول أن كل كرامة لوليٍّ إنما هي آية للنبي الذي يتبعه ذلك الولي، فهذا أحد الغرضين وهو أهمهما.

والغرض الثاني أن أصحاب رسول الله ﷺ، وإن كانوا قد أكرمهم الله بكرامات خارقة للعادات، فلا نعتقد² فيهم أنبياء كما فعلت النصارى بالحواريين. بل نعتقد³ فيهم أنهم أولياء الله، وأصحاب رسول الله، تلقوا عن رسول الله ﷺ شرعه، وبلغوا عنه قوله وفعله، فبدلوا في إظهار دين الله أنفسهم وأموالهم حتى أظهر الله على كل الأديان دينهم وإيمانهم، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29].

ونحن الآن نذكر بعض ما أكرمهم الله به⁴. من ذلك ما علمنا من أحوالهم على القطع، وذلك أنهم بعد موت رسول الله ﷺ تعرضوا لقتال كل من خالفهم من أهل الأرض، يهودهم ونصرانيهم، مجوسهم ووثنيهم، عربهم وعجمهم، على قلة عددهم، ونزارة عددهم، فقارعوا الأبطال، وسبوا الذراري والأموال، وأسروا العتاة، وقتلوا الرجال، وعلى هذا

1 إذا أكرم، في الأصل: وإذا أكرم، وفي ك: إذا أكرم.

2 فلا نعتقد فيهم أنبياء، في ك: فلا يعتقد فيهم أنبياء.

3 بل نعتقد فيهم، في ك: بل يعتقد فيهم.

4 بعض ما أكرمهم الله به، في ك: بعض ما أكرمه الله تعالى به.

انقرض عصرهم. ومع ذلك، فلم يرو قط عنهم أنهم ولوا مدبرين، ولا رجعوا منهزمين، بل كانوا يرجعون غالبين، وبعُدُّوهم ظافرين، وعليهم ظاهرين، هذا مع كثرة من كان يجتمع عليهم من عدوهم.

ومن وقف على فتوحات¹ الشام، علم أن دين الحق هو دين الإسلام. فلقد اجتمع عليهم من عدوهم بالشام ثلاث مائة ألف أو نحوها،² بل قد قال الواقدي: "ثمان مائة ألف من النصارى المستعربة وغيرهم، وهم زهاء ثلاثين ألفاً خيلهم ورجلهم". فقارعوهم مقارعة الكرام، وصبروا صبر من صدق بما وعده به³ نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، فأظفرهم الله عليهم، ومنحهم رقابهم، وأورثهم أموالهم وديارهم، وهكذا فعل الله معهم غير ما مرة.

ولا يُشك في أن هذا كرامة من الله لهم، وأمر خارق للعادة في حقهم، فإن العادة أن مَنْ أكثر من مقارعة الشجعان فلا بد له من أن يصاب، ولو في وقت من الزمان. وما اتفق لهم، وإن كان كرامة لهم، فهو آية لرسول الله ﷺ، فإنه⁴ قد كان [241] بشرهم بذلك، وأخبرهم بكل ما طرأ لهم هنالك.

فقد ثبت أنه عليه السلام قال: "تغزو فِئام⁵ [من الناس]،⁶ فيقال لهم: "هل فيكم من رأى رسول الله ﷺ؟". فيقولون: "نعم". فيُفتح لهم، ثم تغزو فِئام [من الناس]،⁷ فيقال لهم: "هل فيكم من رأى من رأى رسول الله ﷺ؟". فيقولون: "نعم". فيُفتح لهم، ثم تغزو فِئام [من الناس]،⁸ فيقال لهم: "هل فيكم من رأى من رأى من رأى رسول الله ﷺ؟". فيقال: "نعم"، فيُفتح لهم".⁹

1 فتوحات. في الأصل: فتحات، وفي ك: فتوحات.

2 أو نحوها، في ك: ونحوها.

3 بما وعده به، في ك: ما وعده به.

4 فإنه، في ك: وإنه.

5 الفئام: الجماعة.

6 تغزو فئام [من الناس]، في الأصل: تغزو فيام، وفي ك: تغزو قيام من الناس.

7 تغزو فئام [من الناس]، في الأصل: تغزو فيام، وفي ك: تغزو قيام من الناس.

8 هل فيكم من رأى من رأى رسول الله ﷺ، فيقولون نعم، فيفتح لهم، ثم تغزو فئام [من الناس]، أهمل في الأصل.

9 انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، رقم الحديث 2682 ، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم الحديث 4597.

وهذا منه ﷺ إخبار بنصر أصحابه، ونصر تابعيهم، وتابعي تابعيهم ثلاثة قرون. وهذه الأعصار هكذا انقرضت، لم يزل نصر الله لهم، وعونه معهم، تصديقاً لنبه، وإكراماً لأصحابه رضي الله عنهم، وجازاهم عنا بأفضل ما جازى أحداً عن أحد.

ومن ذلك ما ظهر على أحد منهم مما قدمنا ذكره، حيث ذكرنا أن طائفة منهم أكلت السم مع رسول الله ﷺ، فلم يضرها.

وقد ذكرنا حديث المرأة المهاجرة التي مات ابنها، فقالت: "اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك، فلا تحملني هذه المصيبة"، فحيي وأكل معهم.

وكذلك ذكرنا مقالة ثابت بن قيس بن شماس بعد موته، ومقالة زيد بن خارجة¹ بعد موته فيما تقدم، فلا معنى لإعادته، فلتنظر فيما تقدم.

ومن ذلك خبر بن عمر رضي الله عنه أنه كان في بعض أسفاره، فلقي جماعة وقفوا على الطريق خوفاً من السبع، فطرد السبع عن طريقهم، ثم قال: "إنما يسلط الله على بن آدم ما يخافه، ولو أنه لم يخف غير الله لم يسلط عليه شيء".

ومن ذلك حديث العلاء بن الحضرمي²، بعثه رسول الله ﷺ في غزاة، فحال بينهم وبين الموضع الذي يريدونه قطعة³ من البحر، فدعا الله باسمه الأعظم، ومشوا على الماء.

ومن ذلك أن عباد بن بشر⁴ وأسيّد⁵ بن حُصَير⁶ خرجا من عند رسول الله ﷺ، فأضاء لهما رأس عصا أحدهما كالسراج⁷. وقد قدمنا مثل هذا.

1 ومقالة زيد بن خارجة، في ك: وكلام زيد بن خارجة.

2 هو العلاء بن عبد الله الحضرمي، صحابي جليل شارك في الفتوحات. عينه الرسول ﷺ والياً على البحرين في 8 / 629. توفي في 21 / 642. انظر الأعلام، ج 4 ص 245.

3 قطعة، في ك: قطة.

4 ابن بشر، في الأصل وفي ك: ابن بشير، وهو عباد بن بشر الأنصاري، الصحابي الجليل. اعتنق الإسلام بالمدينة وشارك في كل الغزوات. كان الرسول ﷺ يبعثه إلى القبائل لجمع الزكاة. توفي في 12 / 633. انظر الأعلام، ج 3 ص 257.

5 وأسيذر، في ك: أو أسيد.

6 هو أسيد بن حضير بن سهاك الأوسي أبو يحيى، صحابي جليل كان من أشرف قومه قبل وبعد إشرافه الإسلام. شارك في غزوة أحد وغيرها من الغزوات. انظر الأعلام، ج 1 ص 330.

7 انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب منقبة أسيد بن حُصَير وعباد بن بشر رضي الله عنهما، رقم الحديث 3521، ومسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم الحديث 11955.

ومن ذلك أن سلمان وأبا الدرداء كانت بينهما قصعة، فسبحت حتى سمعا تسبيحها.
وقد تظاهرت الأخبار بأن جماعة منهم رأوا الملائكة، وكانت تسلم عليهم مثل عمران
ابن حصين وأسيد بن حضير.
والأخبار في هذا كثيرة.

وأما التابعون فقد ظهرت لهم من الكرامات والخيرات ما لا يمكن استيفاء ذكره في هذا
الكتاب، فقد كان كثير منهم يمشي على الماء، ويطير في الهواء، وينظر إلى الحصى فيصير
جواهر، وينظر الآخر إلى الأرض بين يديه فيصير ذهباً، وتطوى له الأرض، ويتوضأ فيسبل
الماء من بين يديه [242] قضبان ذهب، ويدعو الله تعالى فيُرى المرضى والمجانين والزمناء إلى
ما لا يُحصى كثرة.

وقد دُوِّن من هذا كثير يقضى منه العجب في كتب كرامات الأولياء، ولو لم يكن في
الدنيا¹ من هذا إلا قبر معروف الكرخي² الكائن ببغداد، لكان فيه كفاية، وأعظم آية. وذلك
أن قبره يُستسقى به³، ويُدعى الله عنده، فيُشفى المريض، وتُقضى الحاجة، حتى أن أهل بغداد
يقولون: "قبر معروف الكرخي ترياق مجرب".

وبعد هذا أقول للنصارى: وليست هذه الأمور العجيبة، والأفعال الغريبة من قبيل
الحيل والنيرجات التي تعظمون بها أديانكم، وتموهون بها على عوامكم، وتضيفونها إلى
هذيانكم. فلقد حُكي لنا أنكم تمخرقون⁴ على ضعفاء العقول منكم بخرافات وتُرّهات⁵، مثل
ما وصف عن بعض مشاهدكم المعظمة عندكم⁶، وذلك أنكم تزعمون أن يد الله المسيح تظهر
بها في يوم واحد من السنة من وراء ستر، وهذا مشهور عندكم.

ولقد حكي لنا من يوثق بحديثه أن رجلاً من اليهود كان قد حظي عند أحد رؤسائكم

1 في الدنيا، أهملت في ك.

2 معروف الكرخي أبو محفوظ بن فيروز أو فيروزان، أحد الزهاد الصوفيين ببغداد، يعد من بين أولياء الله وهو
مدفون ببغداد. توفي في 200 / 815 أو 816. انظر دائرة المعارف، ج VI ص 598 - 599.

3 يستسقى به، في ك: يستشفى به.

4 تمخرقون: تدهشون وتحيرون.

5 تُرّهات: ج. تُرّهة وهو القول الذي لا نفع فيه.

6 انظر في هذا: Fernando de La Granja: "Milagros españoles en una obra polémica musulmana: كتاب مقامع الصلبان للخزرجي، مدريد، مجلة الأندلس، العدد 33، (1968)، ص 311 - 364.

بالأندلس بؤصلة¹ كانت بينهما. فرام الرئيس أن يخرج اليهودي عن دينه، ويدخله في دين النصرانية، وقال له: "ألا ترى هذه الأعجوبة؟ ظهور يد الله المسيح لنا في يوم معلوم من السنة". فقال له اليهودي: "يا مولاي! أنا قد رضيت من هذا الأمر بشهادتك وصدقتك عليه، فابحث عنه. فإن كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقاً دخلت في دينك"².

فخالط الرئيس الشك، فلما دنا ذلك اليوم، مشى ذلك الرئيس إلى ذلك المشهد، وقرب مالا يهديه هنالك. فبرز إليه الأساقفة، وقربوه لتقبيل اليد، فلما ظهر له من وراء الستر، وضع يده فيه، فصاحوا به، وأغلظوا له القول، يقولون له: "اتق الله. الآن يُحسَف بك."³ الآن تقع عليك السماء. الآن تُرسل عليك الصواعق". فقال لهم: "دعوا عنكم هذا كله، فإن هذه اليد⁴ لا أحل يدي⁵ عنها حتى أعلم أحقاً⁶ ما تصفون عنها أم باطلاً⁷".

فلما رأوا بَجَحَه⁸ فروا عنه، ولم يبق معه إلا اثنان، أسراً إليه، وقالوا له: "ما تبغي في ذلك؟ أصبوت⁹ عن دين آبائك؟ أتريد أن تحل ربطاً رُبط منذ ألف سنة أو نحوها؟". قال: "لا. ولكنني أحب الوقوف على سر هذه اليد". فقالوا: "هي يد أسقف¹⁰ واقف خلف هذا الستر". فقال: "أحب أن أراه". فقالوا: "أنت وذاك".

فكشفا له عن قس مجرود¹¹ الحدين، واقف وراء الستر¹². فلما عاينه الرئيس أرسل يده، وخرج إلى عسكره، فقال له اليهودي: "يا مولاي! ما تأمرني به؟ أدخل في دينك وأخرج [243] عن ديني؟". فقال له: "رأيك. خرجت منه أو فلا خرجت"¹³.

1 الوُصلة: الاتصال.

2 انظر مقامع الصليبان، ص 173.

3 الآن يحسَف بك، في ك: الآن تحسَف بك الأرض.

4 فإن هذه اليد، في الأصل: فإن هذا اليد، وفي ك: فإن هذه اليد.

5 لا أحل يدي، في ك: لا أحل يدي.

6 حتى أعلم أحقاً، في ك: حتى أعلم حقاً.

7 انظر مقامع الصليبان، ص 173 - 174.

8 فلما رأوا بجحه، في ك: فلما رأوا الحجة، والبجح هو الافتخار والتعظيم والتباهي.

9 صبا يضبو صبوا أي مال.

10 هي يد أسقف، في ك: هي يد الأسقف.

11 مجرود، في ك: مجدود.

12 واقف وراء الستر، في ك: واقف خلف هذا الستر.

13 انظر مقامع الصليبان، ص 174.

وكذلك وُصف لنا عن صليب في بعض مشاهدكم المعظمة عندكم، يمشي إليه الناس ليتعجبوا منه، وهو واقف بين السماء والأرض، وأن بعض رؤسائكم سأل عن ذلك كاتباً له يهودياً، فتفطن اليهودي¹ إلى أن ذلك الصليب حديد، تمسكه أحجار المغناطيس، فبحث عنه فوجد كذلك².

وكذلك وصف عن الثريا التي في كنيسة الغراب، وحيلتها حيلة الصليب. وكذلك كنتم تذكرون أن هذه الكنيسة ينزل فيها نور، يوحد ذيال الثريا المذكورة في ذلك اليوم المشهود. فذكر ذلك لأحد ملوك بني أمية بالأندلس، فتعجب من ذلك، وسأل عن ذلك فأخبره رجل من أهل إفريقية بحيلتها. وذكر أنهم مدوا مع الحائط قصبة حديد، ضيق جوفها، وأبرزوا³ لها أنبوباً كَسَمَ الخياط⁴، موضعه موزون مع طرف الثريا⁵.

ثم إنهم ذلك اليوم، يرسلون نار النفط في القصبة متراكماً حتى يخرج في غاية القوة إلى ذيال الثريا الذي هو في زنة واحدة معه. ووصف ذلك الإفريقي مع ذلك حياً ودهاناً⁶.

فاجتاز⁷ ذلك الأمير على الكنيسة في أحد غزواته، وقد دنا يومها ذلك. فدعى الإفريقي، وكان معه، فسأله كشف ذلك. فعمد الإفريقي فاستخرج منه قناة من الصُّفْر⁸، على نحو ما كان ذكر. وعمد إلى سماء الثريا، فاستخرج منه حجراً من المغناطيس فسقطت [الثريا]، فأمر الأمير عند ذلك بمعاقة القسيس⁹.

وكذلك كنتم ترعمون أن مريم نزلت من السماء على دون¹⁰ أذفنش المطران¹¹، بجامع طليطلة، وكست رأسه بقجيلة، وجسمه بثياب مزينة، وذلك في ليلة النصف من شهر

1 فتفطن اليهودي، في الأصل: فتفطن اليهود، وفي ك: فتفطن اليهودي.

2 انظر مقامع الصلبان، ص 174 - 175.

3 أبرز: أظهر وبين.

4 سم الخياط: ثقب الإبرة.

5 انظر مقامع الصلبان، ص 175.

6 ودهاناً، أهملت في ك.

7 فاجتاز، في ك: فاحتال.

8 الصُّفْر: النحاس الأصفر.

9 انظر مقامع الصلبان، ص 175 - 176.

10 دون: كلمة إسبانية بمعنى السيد.

11 يقول الدكتور Fernando De La Granja أن هذه الحكاية هي الوحيدة التي هي معروفة، عكس الروايات السابقة. كما يقول بأن طليطلة تحتفل بهذه الذكرى المقدسة لديها. انظر: De La Granja: "Milagros...." p: 355 - 358.

غشت¹، فتعظمون تلك الليلة تعظيماً شنيعاً². وذلك كله إنما يصحّ عليكم لجهلكم بالأمر كلها، حقها وباطلها، حتى أنكم تصدقون بالباطل والتُّرَّهات، وتكذبون بالحق كله وباليقينيات. فردكم لغير معنى، وقبولكم لغير معنى، فلذلك لم تعدوا من العقلاء، ولم تضربوا بسهم مع النبلاء³.

ولقد أورد بعض حُذَّاقنا⁴، المجترئين على الكلام على النصارى في كذبهم في نزول مريم⁵ على دون أذفَش إلزامات بتهمة النصارى⁶ ولا محيص لهم عنها. فقال لهم: "أخبرونا عن نزول مريم الذي تزعمون، هل كان بإذن سيدها أو بغير إذن؟ فإن قلت: كان بإذنه، فكيف يجوز عليه أن يمتن أم ولده⁷، بزعمكم، في حق عبده؟ وهلا كان يرسل عبداً من عبده ويصون أم ولده؟ هذا يدل على عدم الغيرة، ولو فعل ذلك الواحد منا لعرض نفسه [244] وزوجته للتهم، ولئن تضاف⁸ إليه النقائص، ويُنسب إلى خِسة الهمة⁹.

وإن قلت: كان ذلك بغير إذن منه، فكيف ينبغي أن تخونه؟ مع أن الله قد اصطفاهَا عن نساء العالم¹⁰، واتخذها أم ولده¹¹ بزعمكم، فتتزل بغير إذن إلى رجل من جنسها بكسوة وثياب مزينة، في كنيسة خالية. هذا محل خيانة وتهمة¹².

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وسبحانه عما ينسب إليه الجاهلون بكرة وأصيلاً. وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأسأله التوبة من حكاية هذه القبائح، ومن رواية هذه الفضائح.

فالحمد لله الذي أعاد الإسلام من هذه الرذائل، وخصه بكل الفضائل التي يستحسنها كل عاقل، ويتدين بها كل فاضل، ويتميز عندها الحق من الباطل.

1 غشت، في الأصل وفي ك أغشت.

2 انظر مقامع الصلبان، ص 176.

3 بسهم مع النبلاء، في ك: بسهم النبلاء.

4 الحُذَّاق: المهرة، ج. حاذق.

5 في نزول مريم، في ك: نزول مريم.

6 بتهمة النصارى، في ك: نهت النصارى.

7 أم ولده، في الأصل: وأم ولده، وفي ك: أم ولده.

8 ولئن تضاف، في ك: ولتضاف.

9 إلى خِسة الهمة، في ك: إلى همته الخِسة. وخِسة الهمة: العزم الحقيق.

10 عن نساء العالم، في ك: على نساء العالم.

11 أم ولده، في الأصل وفي ك: أم ولد.

12 وتهمة، أهملت في ك.

فهرس المصادر والمراجع العربية:

أولاً: المصادر:

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، 1995.

موسوعة الحديث النبوي الشريف: الكتب التسعة على قرص ليزر: صحيح البخاري ومسلم، سنن أبي داود والنسائي وابن ماجة والترمذي والدارمي، وموطأ الإمام مالك، ومسنند أحمد.

أحمد ابن عمر القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام.... "تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، 1980.

أحمد ابن عمر القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام.... "مخطوط تحت رقم 83، موجود بمكتبة القصر الملكي بالرباط (المملكة المغربية).

أحمد ابن عمر القرطبي: تلخيص صحيح الإمام مسلم، تحقيق: رفعت فوزي وأحمد محمود الخولي، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، 1988.

أحمد ابن عمر القرطبي: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محيي الدين ديب متو، أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، محمد إبراهيم بزال، الطبعة الأولى، دمشق وبيروت، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، 1996.

الباقلاني، أبو بكر ابن الطيب: إعجاز القرآن، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1988.

الباقلاني، أبو بكر ابن الطيب: التمهيد في الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، دار الفكر العربي، دون تأريخ.

ابن إسحاق، محمد: سيرة ابن إسحاق أو كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق: حميد الله، فاس، معهد الدراسات والأبحاث، 1976.

ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1979.

ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1988.

- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: إبراهيم العجوز، بيروت، دار الفكر، 1978.
- ابن حزم، أبو محمد علي: الفصل في الممل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعكير عبد الرحمان، عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1982.
- ابن عبد البر، يوسف ابن عبد الله: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجليل، 1992.
- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الآفاق الحديث، دون تأريخ.
- ابن فرحون، إبراهيم علي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون ابن محيي الدين الجنان، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1996.
- ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي: البداية والنهاية، تحقيق: أبو ملحم أحمد، علي نجيب وعلي عبد الساتر، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1985.
- ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1987.
- البیهقي، أبو بكر أحمد: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلججي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1985.
- تقي الدين الفاسي: ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد، تحقيق: كمال يوسف الخوت، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1990.
- الحَمِيرِي، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975.
- الخزرجي، أحمد ابن عبد الصمد: مقامع الصلبان، تحقيق: عبد المجيد الشرفي، تونس، S.T.A.G، 1975.
- الدمياطي، أبو محمد عبد المؤمن ابن خلف: معجم شيوخ شرف الدين الدمياطي، مخطوط موجود بالخزانة الأحمديّة، دار الكتب الوطنية بتونس، رقمه: 12910.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين: الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد وزكار عبد الجبار، بيروت، دار الفكر المعاصر، الطبعة الثانية، 1993.

- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين: تذكرة الحفاظ، بيروت، دار الكتب العلمية، 1955.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين: سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الرسالة، الطبعة التاسعة، 1990.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمان: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، القاهرة، مكتبة الكلية الأزهرية، دون تأريخ.
- السيوطي، جلال الدين: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1967.
- الصفدي، صلاح الدين: الوافي بالوفيات، فيزياد، فرانز ستاينر، 1969.
- عفيف الدين عبد الله الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقطان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق: عبد الله الجودي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1984.
- عماد الدين إسماعيل أبو الفداء: تقويم البلدان، بيروت، دار صادر، باريس، دار الطباعة السلطانية، 1850.
- القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: علي محمد، بيروت، دار الكتاب العربي، 1977.
- القزويني، زكرياء ابن محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، 1960.
- المراكشي، أبو عبد الله محمد: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: محمد بنشريف، بيروت، دار الثقافة، دون تأريخ.
- المقري، أحمد ابن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968.
- ثانياً: المراجع:
- بلعم مفتاح السنوسي: القرطبي: حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 1998.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية عشر، 1997.
- محمود القصبي زلط: القرطبي ومنهجه في التفسير، بيروت، المركز العربي للثقافة والإعلام، دون تأريخ.

فهرس المصادر والمراجع الأجنبية:

Carl Brockelman: **Geschichte der arabischen literatur**, Leiden, E.J.Brill, 1996.

Chebel, Malek: **Histoire de la circuncision. Des origines á nos jours**. Casablanca, Eddif, 2° ed, 1997.

Encyclpodédie de l'Islam. Nouvelle édition, Leiden, E.J.Brill, 1960.

Fernando De la Granja: "Milagros españoles en una obra polémica musulmana (el Kitāb maqāmi' al-ṣulbān) de al-Jazra'ī" **al-Andalus**, Madrid-Granada, 33 (1968).

Glassé, Cyril: **Dictionnaire Encyclopedique de l'Islam**, Paris, Bordas, 1991.

María Jesús Viguera Molins: "La Religión y el Derecho" en **Historia de España**, fundada por R. Menéndez Pidal, VIII, 2000.

Míkel De Epalza: **Fray Anselm Turmeda (Abdallāh al-Tar'ūmān) y su polémica islamo-cristiana**. Edición, traducción y estudio de la Tuhfa, Hiperión, 2° Edición, 1994.

Míkel De Epalza : « Notes et documents, notes pour une histoire des polémiques anti-chrétiens dans l' Occident musulman », **Arábica**, 18 (1971).

Paul Devillard: **Thèse de troisième cycle** présentée à la Faculté des Lettres à Aix en Provence le 10 Janvier 1970.

Samir Kaddouri: "Identificación de "al-Qurṭubī", autor de al-I'lām bimā fī dīn al-naṭārā min al-fasād wa al-awhām", **al-Qanṭara**, Madrid, CSIC, 21, (2000).

Van Koningsveld: "La apología de al-Kindī en la España del siglo XII. Huellas toledanas de un "animal disputas" in **Estudios sobre Alfonso VI y la reconquista de Toledo**, Toledo, 1989.

فهرس الإعلام:

—أ—

- إبراهيم: 6، 45، 69، 70،
أبو أمامة: 79.
أبو أيوب الأنصاري: 144.
أبو الدرداء: 185.
أبو القاسم: 91.
أبو بكر بن فورك: 149.
أبو بكر الصديق: 125، 142، 143،
146، 149، 156.
أبو جهل: 81، 118، 135، 159،
162، 177.
أبو ذؤيب: 53، 55.
أبو ذر: 123، 149، 171.
أبو سعيد الخدري: 151، 155.
أبو سفيان بن حرب: 81، 93، 100،
102، 152.
أبو طالب: 57، 59، 92، 99، 105،
142، 172، 181.
أبو طلحة: 93، 143، 165.
أبو هريرة: 80، 145، 152، 153،
164، 170.
أبي بن خلف: 94.
أحمد: 5، 42، 43، 44، 45.
الأخنس بن شريق: 81.
آدم: 69، 79، 132.
أربد بن قيس: 178.
أسامة بن زيد: 148.
إسحاق: 35.
إسرائيل: 7، 43، 130، 132.
إسرافيل: 79.
إسماعيل: 3، 34، 35، 42، 46، 48،
50، 69، 70.
الأسود بن عبد المطلب: 128.
الأسود بن عبد يغوث: 128.
أسيد بن حضير: 184.
أشعيا: 42، 44، 45، 48، 50، 51، 71.
أصحاب الكهف: 130، 131.
الأصمعي: 119.
أعرابي: 76، 119، 147، 151، 152،
162، 175، 177.
أغفانوش: 40.

-ب-

- أم أبي هريرة: 164.
 أم سلمة: 68، 152، 179.
 أم سليم: 145.
 أم عثمان: 52.
 أم مالك: 166.
 أم معبد: 168.
 آمنة: 52، 56.
 أنس: 84، 93، 136، 140، 143،
 145، 149، 153، 154، 156، 161،
 166.
 أنيس أخو أبو ذر: 123.
 أهبان بن أوس: 152.
 إيل: 39.
 أيوب النبي: 5، 68.
 ابن أبي كبشة: 102.
 ابن أبي هالة: 90.
 ابن إسحاق: 138، 140، 155.
 ابن الناظور: 102.
 ابن الهيبان: 62.
 ابن دريد: 53.
 ابن مريم: 40، 79، 119، 121، 130.
 ابن آدم / بنو آدم: 51، 69، 184.

بارنبا: 40.

بحيرا: 58، 59، 60.

البخاري: 163.

بخت نصر: 46، 47.

البرقليط: 38، 39.

بريدة: 147، 150.

البنار: 155.

بشر بن البراء: 155.

البكري: 138.

-ت-

تمام: 59.

-ث-

ثابت بن قيس بن شماس: 156، 184.

-ج-

جابر بن عبد الله: 143، 153، 154.

جبريل: 65، 78، 97، 133، 177.

جبير بن مطعم: 136.

جرجيس: 40.

الجلندي: 88.

جعيل الأشجعي: 165.

جهجاه: 166.

-ح-

- الحارث بن الصمة: 94.
الحارث بن الطلالة: 129.
حاطب بن أبي بلتعة: 173.
حقوق: 44.
حبيب بن فديك: 157.
حبيب بن يساف: 159.
الحجاج: 174.
حذيفة: 136، 161، 171.
حزقيال: 42، 45.
حسان بن ثابت: 53.
الحسن: 150، 156، 166.
الحسين: 166.
الحكم بن أبي العاص: 165، 176.
حليمة: 53، 54، 55، 56، 168.
حمزة بن عبد المطلب: 61، 178.
حنش بن عقيل: 167.
حنظلة بن حذيم: 169.
-خ-
- خالد بن الوليد: 166.
خديجة بنت خويلد: 60، 61، 97.
الخضر: 109، 131.
خويلد بن أسد: 61.

-د-

- دانيال: 46، 47.
داوود: 37.
الدجال: 40، 41.
دحية: 102.
دريس: 59.
دعثور بن الحارث: 175.
دون أذفنش: 187، 188.

-ذ-

- ذو القرنين: 130، 131.

-ز-

- زريق: 59.
زكرياء بن برحيا: 38.
زيد بن أرقم: 154.
زيد بن خارجة: 157، 184.
زيد بن سعية: 77.
زينب: 144، 169.

-س-

- سراقة: 178، 179.
سعد بن أبي وقاص: 162.
سلمان الفارسي: 63، 64، 104، 167،
185.
سلمة بن الأكوع: 141، 152، 158.
سليمان: 37.
سمرة بن جندب: 144.

- ش -

شرحبيل الجحفي: 159.

شمعون: 40.

شيبية: 178.

- ص -

صفوان: 85.

- ط -

طاووس: 170.

الطحاوي: 138.

الطفيل بن عمرو: 164.

- ع -

عائذ بن عمرو: 169.

عائشة: 84، 153.

العاصي بن وائل: 129.

عامر بن الطفيل: 178.

عباد بن بشر: 184.

العباس: 76، 93، 149، 173.

عبد الرحمن بن أبي بكر: 144.

عبد الرحمن بن عوف: 161.

عبد الله بن أبي الحمساء: 87.

عبد الله بن أنيس: 158.

عبد الله بن أوفى: 154.

عبد الله بن جبير: 95، 96.

عبد الله بن جحش: 168.

عبد الله بن جعفر: 163.

عبد الله بن سلام: 104، 133.

عبد الله بن شهاب الزهري: 95.

عبد الله بن عباس: 85، 136، 159،

163.

عبد الله بن عبيد الله: 156.

عبد الله بن عمر / بن عمر: 136،

184.

عبد الله بن مسعود: 135، 136، 162،

168.

عبد الله بن وهب: 154.

عبد المطلب بن هاشم: 56.

عبد الله بن عبد المطلب: 52، 53.

عتبة بن أبي لهب: 164.

عتبة بن أبي وقاص: 95.

عتبة بن ربيعة: 107، 108، 123.

عتبة بن فرقد: 169.

عثمان بن حنيف: 157.

عثمان بن عفان: 146، 149، 157،

173.

عذرة بن الحارث: 175.

عروة بن أبي الجعد: 163.

عقبة بن أبي معيط: 131.

فهد بن عطية: 155.

عكاشة: 80، 168.

ق -

العلاء بن الحضرمي: 184.

قتادة: 96، 141، 157، 167، 169.

علي بن أبي طالب: 92، 99، 109،

قيدار: 42، 49، 50.

136، 138، 149، 158، 164، 172،

قيس بن زيد الجذامي: 169.

173، 177، 181.

قيصر: 84، 172.

علي بن الحكم: 159.

ك -

عمار: 174.

كسرى: 84، 164، 172.

عمر بن الخطاب / ابن الخطاب: 77،

كلثوم بن الحصين: 158.

84، 86، 118، 142، 146، 151،

ل -

153، 157، 162.

اللات والعزى: 59، 151، 152.

عمران بن حصين: 94، 141، 185.

ليد بن الأعصم: 77.

عمرو بن شعيب: 142.

لوقيوش: 40.

عمرو بن قمنة: 95.

م -

عمير بن سعد: 168.

مائل: 40.

عياض: 138.

مبارك اليمامة: 156.

عيسى / ابن مريم: 40، 43، 45، 79،

معلم بن جثامة: 165.

106، 112، 114، 119، 121، 130،

محمد بن حاطب: 159.

131، 146، 160.

محمد: 1، 3، 4، 5، 6، 7، 36، 38،

ف -

39، 41، 43، 44، 45، 48، 50، 52،

فاطمة: 174.

53، 64، 65، 81، 82، 83، 85، 94،

فضالة بن عبيد: 178.

98، 101، 102، 104، 107، 109،

الفضل: 109.

112، 115، 117، 118، 126، 132،

134، 135، 142، 146، 147، 152،

- 156، 157، 160، 174، 177، 178، النجاشي: 89.
- 179، 180، 181، 182، 183، النضر بن الحارث: 82، 131.
- المختار: 174، النعمان بن بشير: 157.
- ه —
- 40، 41، 43، 44، 45، 47، 63، هابيل: 38.
- 106، 185، 186، هاجر: 6، 8.
- مسيلمة: 174، هرقل: 81، 88، 100، 101، 102، 103.
- معاذ: 140.
- و —
- معاذ بن عفراء: 86، 159.
- معاوية: 162، 172، 174.
- معروف الكرخي: 185.
- معيقب: 156.
- المغيرة بن شعبة: 88، 154.
- المقداد: 168.
- المقداد بن الأسود: 163.
- ملاعب الأسنة: 158.
- ي —
- المهدي: 173.
- موسى: 5، 6، 88، 112، 113، 116، 119، 131، 138، 142، 143، 146.
- ميسرة: 60، 61، 62.
- ن —
- النابعة الجعدي: 163.
- يزيد بن شهاب: 153.
- يعفور: 153.
- يوحنا: 12.
- يوشع: 5، 139.
- يونس بن بكير: 138.

فهرس الأمم والقبائل:

أ-

إرم: 62.

الأكراد: 47.

ب-

البربر: 47.

بنو إسرائيل: 32، 33، 43، 45، 88، 132، 146.

بنو إسماعيل: 35.

بنو الأصفر: 102.

بنو أمية: 173، 187.

بنو سعد بن بكر: 53، 54، 55، 69.

بنو صهيون: 35.

بنو قريظة: 63، 79.

بنو كنانة: 69.

بنو هاشم: 69.

ت-

الترك: 47، 172.

خ-

الخزر: 147.

د-

الديلم: 47.

ر-

الروم: 5، 33، 63، 100، 102، 103، 119، 125، 126، 172.

ع-

عاد: 62.

العجم: 47، 110، 115، 120.

العرب: 33، 47، 62، 64، 69، 97، 103، 108، 110، 114، 115، 117، 119، 120، 121، 122، 123، 127، 177.

ف-

فارس: 125، 172.

الفرس: 47.

ق-

القبط: 47.

قريش: 33، 57، 58، 60، 61، 69، 78، 80، 81، 82، 88، 94، 100، 104، 105، 106، 108، 122، 125، 126، 127، 131، 135، 139، 152، 164، 173، 174، 176، 177، 179.

م-

مضر: 164.

ن-

النبط: 47.

نجران: 104، 132.

ي-

يأجوج ومأجوج: 41.

فهرس الأماكن والدول:

-أ-

إفريقية: 187.

الأندلس: 127، 186، 187.

أنطاكية: 40.

-ب-

بابل: 44، 45.

بصرى: 52، 58، 102.

بغداد: 185.

بيت المقدس: 40، 41، 48، 50،

127، 171.

-ت-

تبوك: 126، 140، 144.

التنعيم: 78.

تامة: 176.

التين: 44.

-ج-

جبال الروم: 33.

جبل أحد: 83، 86، 150.

-ح-

الحبشة: 70، 104.

الحديبية: 141.

حمص: 103.

الحوآب: 173.

الحيرة: 171.

-خ-

ختعم: 159.

خير: 138، 153، 154، 155، 158،

172.

-س-

ساعير: 33، 35، 40.

سبأ: 36، 50.

سرف: 94.

السند: 47.

السودان: 47.

سيناء: 33، 35، 39، 40.

-ش-

الشام: 41، 47، 50، 52، 58، 56،

62، 100، 171، 183.

- ص -

الصفاء والمروة: 176.

الصهباء: 138.

صهيون: 36، 51.

- ط -

الطائف: 129.

طليطلة: 187.

- ع -

العراق: 171.

عمورية: 45.

- غ -

غسان: 103.

- ف -

فاران: 33، 35، 40، 44، 45.

فلسطين: 40.

- ق -

القلزم: 138.

- ك -

الكرمل: 50.

الكعبة: 49، 57، 81، 164، 172.

كنيسة الغراب: 187.

- ل -

لبنان: 45، 50.

- م -

مدين: 50.

المدينة: 62، 64، 79، 80، 93، 98،

131، 133، 152، 157، 162، 165،

166.

المسجد الحرام: 49، 124.

المغرب: 41، 53.

مفاز شور: 164.

مكة: 33، 48، 49، 50، 54، 55، 57،

59، 61، 71، 83، 94، 97، 98، 124،

125، 127، 131، 136، 137، 149،

152، 154، 156، 171، 173، 179.

منى: 135.

- ن -

نجران: 104، 132.

- ه -

الهند: 47، 74.

- ي -

يرشالم: 38.

اليمن: 47، 171.

فهرس الغزوات:

-أ-

أحد: 75، 94، 95، 157، 158، 168،
169.

-ح-

"الحديبية": 140.
حين: 93، 170، 178، 181.

-ب-

بدر: 81، 92، 94، 159، 165، 168،
175.

-خ-

الخنديق: 143، 158.
خير: 158، 172، 181.

-ت-

تبوك: 140، 144.

-ص-

صفين: 181.

-ج-

الجمال: 181.

-ط-

الطائف: 149، 179.

فهرس الكتب السماوية:

-أ-

الإنجيل: 37، 40، 41، 143.

-ت-

التوراة: 32، 33، 34، 35، 39، 128.

-ق-

القرآن: 24، 97، 98، 99، 101،

103، 104، 105، 107، 108، 111،

113، 115، 121، 124، 125، 126،

129، 132، 164.

فهرس أهل المِلَل والنَّحَل:

- ط -

113، 121، 122، 126، 132، 134،

142، 146، 160، 180، 182، 183،

185، 188.

الطبيعي: 139.

- ك -

- و -

الكتابي: 115، 139.

الوثني: 182.

- م -

- ي -

المجوس: 115، 134، 182.

اليهود/ يهود/ يهودي/ يهودية: 32،

34، 38، 41، 48، 62، 63، 77، 83،

88، 103، 106، 110، 113، 126،

129، 131، 132، 133، 134، 142،

143، 146، 154، 155، 182، 186،

187.

المسلمون/ مسلمون/ مسلم: 47، 88،

93، 94، 102، 119، 125، 127،

155.

- ن -

النصارى/ نصارى/ نصراي: 1، 32،

37، 48، 63، 79، 88، 100، 110،

فهرس الاستشهادات من العهد القديم (التوراة):

رقم الصفحة	العدد	الاصحاح	اسم السفر التكوين
35	12-11	16	
103	14-9	17	
34	20	17	
103	27-23	17	
34	21	21	
88	2	11	الخروج
88	36-35	12	
116	14	16	
32	19-18	18	التثنية
33	19	18	
133	29-22	22	
33	2-1	33	
35	2	33	
39	2	33	
40	2	33	
33	10	34	
139	13-12	10	يشوع
36	6-4	45	المزامير
36	17-8	72	
35	8-1	149	

44	9-6	21	إشعيا
51	14	28	
45	2-1	35	
50	2	35	
51	9-6	35	
48	25	41	
42	4-1	42	
42	12-11	42	
48	1	54	
49	10-9	54	
49	17-11	54	
49	5-1	60	
50	7-4	60	
49	7	60	
49	11	60	
49	14	60	
45	14-12	19	حزقيال
47	45-31	2	دانيال
44	3	3	حبقوق
45	3	3	

فهرس الاستشهادات من الإنجيل (العهد الجديد):

رقم الصفحة	العدد	إنجيل متى الاصحاح
43	6-5	10
39	15-13	11
39	14	11
146	21-17	14
43	24	15
160	18-17	17
160	34-32	20
41	34-33	21
41	43	21
41	44	21
39	39-30	23
39	39	23
107	38	26
107	64-63	26
43	31-27	27
43	46-35	27
106	46	27

إنجيل مرقس:

160	13-2	5
160	56-53	6
160	52-51	10
41	2-1	12
43	24-17	15

إنجيل لوقا:

160	25-24	5
-----	-------	---

160	17-11	7
-----	-------	---

إنجيل يوحنا:

146	13-9	6
-----	------	---

39	38	6
----	----	---

37	18-15	14
----	-------	----

39	16	14
----	----	----

38	27-23	15
----	-------	----

38	1	16
----	---	----

38	15-7	16
----	------	----

فهرس الاستشهادات من القرآن الكريم:

رقم الصفحة	الآية	السورة
134	24-23	البقرة
104	89	
133	97	
173	137	
44	146	
72	179	
120	179	
127	12	آل عمران
104	53	
132	59-58	
102	64	
180	85	
127	111	
180	144	
75	113	النساء
41	158	
176	11	المائدة
78	13	
133	44	
133	45	
133	47	

السورة	الآية	رقم الصفحة
المائدة	15	133
	67	126
	67	175
	91-90	73
الأعراف	199	78
	199	118
الأنفال	30	177
يونس	32	38
هود	44	120
يوسف	29	78
الرعد	31	125
	34	33
الحج	9	128
	94	119
	96-95	128
النحل	90	118
الإسراء	72	39
	88	112

السورة	الآية	رقم الصفحة
الكهف	107	120
مريم	32-15	121
	36-34	121
النور	52	119
	55	125
الشعراء	227	180
القصص	7	119
	7	119
العنكبوت	40	120
الروم	6-1	125
سبأ	51	120
يس	38	139
الزمر	19	134
فصلت	2-1	123
	3-1	107
	34	120
	42	110
	53	127

السورة	الآية	رقم الصفحة
الفتح	27	124
	29	182
الحجرات	13	73
	13	74
الذاريات	58-56	74
القمر	3-1	136
	45	127
الصف	8	41
	9-8	126
القلم	4	100
المزمل	5	96
المدثر	3-1	97
	14-11	123
القيامة	18	96
العلق	1	96
	7-6	178
المسد	1	176

فهرس المحتويات

3	مقدمة.....
4	مؤلف كتاب الإعلام.....
8	التعريف بالمؤلف.....
9	نسب الإمام أحمد ابن عمر ونشأته.....
11	شيوخ أحمد ابن عمر.....
12	تلاميذ أحمد ابن عمر.....
13	مؤلفات أحمد ابن عمر.....
15	وفاة أحمد ابن عمر.....
16	التعريف بكتاب الإعلام.....
17	محتوى كتاب الإعلام.....
19	محتوى إثبات نبوة محمد (ﷺ).....
23	عملي في هذا الكتاب.....
24	الرموز.....
31	الفصل الأول من القسم الثاني في إثبات نبوة نبينا محمد عليه السلام.....
32	النوع الأول من الأدلة على نبوة محمد (ﷺ): إخبار الأنبياء به قبله.....
52	النوع الثاني: الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله (ﷺ).....
110	النوع الثالث: الاستدلال على نبوته (ﷺ) بالكتاب العزيز.....
135	النوع الرابع: الاستدلال على نبوة محمد (ﷺ) بجملة من الآيات الخارقة للعادات.....
135	الفصل الأول: انشقاق القمر.....
138	الفصل الثاني: حبس الشمس آية له (ﷺ).....
139	الفصل الثالث: نبع الماء وتكثيره معجزة له (ﷺ).....

143	الفصل الرابع: تكثير الطعام معجزة له (ﷺ).....
147	الفصل الخامس: كلام الشجر وكثير من الجهادات وشهادتها له بالنبوة.....
151	الفصل السادس: كلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم آية له (ﷺ).....
154	الفصل السابع: إحياء الموتى وكلامهم وكلام الصبيان والمرضع وشهادتهم له بالنبوة.....
157	الفصل الثامن: إبراء النبي (ﷺ) المرضى وذوي العاهات.....
160	الفصل التاسع: إجابة دعائه (ﷺ).....
165	الفصل العاشر: ذكر جل من بركاته ومعجزاته.....
170	الفصل الحادي عشر: ما أخبر به مما أطلعه الله من الغيب.....
175	الفصل الثاني عشر: عصمة الله له ممن أراد كيده.....
182	الفصل الثالث عشر: ما ظهر على أصحابه والتابعين لهم من الكرامات الخارقة للعادات.....
189	فهرس المصادر والمراجع العربية.....
192	فهرس المصادر والمراجع الأجنبية.....
193	فهرس الأعلام.....
199	فهرس الأمم والقبائل.....
200	فهرس الأماكن والدول.....
202	فهرس الغزوات.....
203	فهرس الكتب السماوية.....
204	فهرس أهل الملل والنحل.....
205	فهرس الاستشهادات من التوراة.....
207	فهرس الاستشهادات من الإنجيل.....
209	فهرس الاستشهادات من القرآن الكريم.....
213	فهرس المحتويات.....